الأستاذ الدكتور
زهران محمد جبر

فى الأدب الجاهلى



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدي رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحابته الغر الميامين .

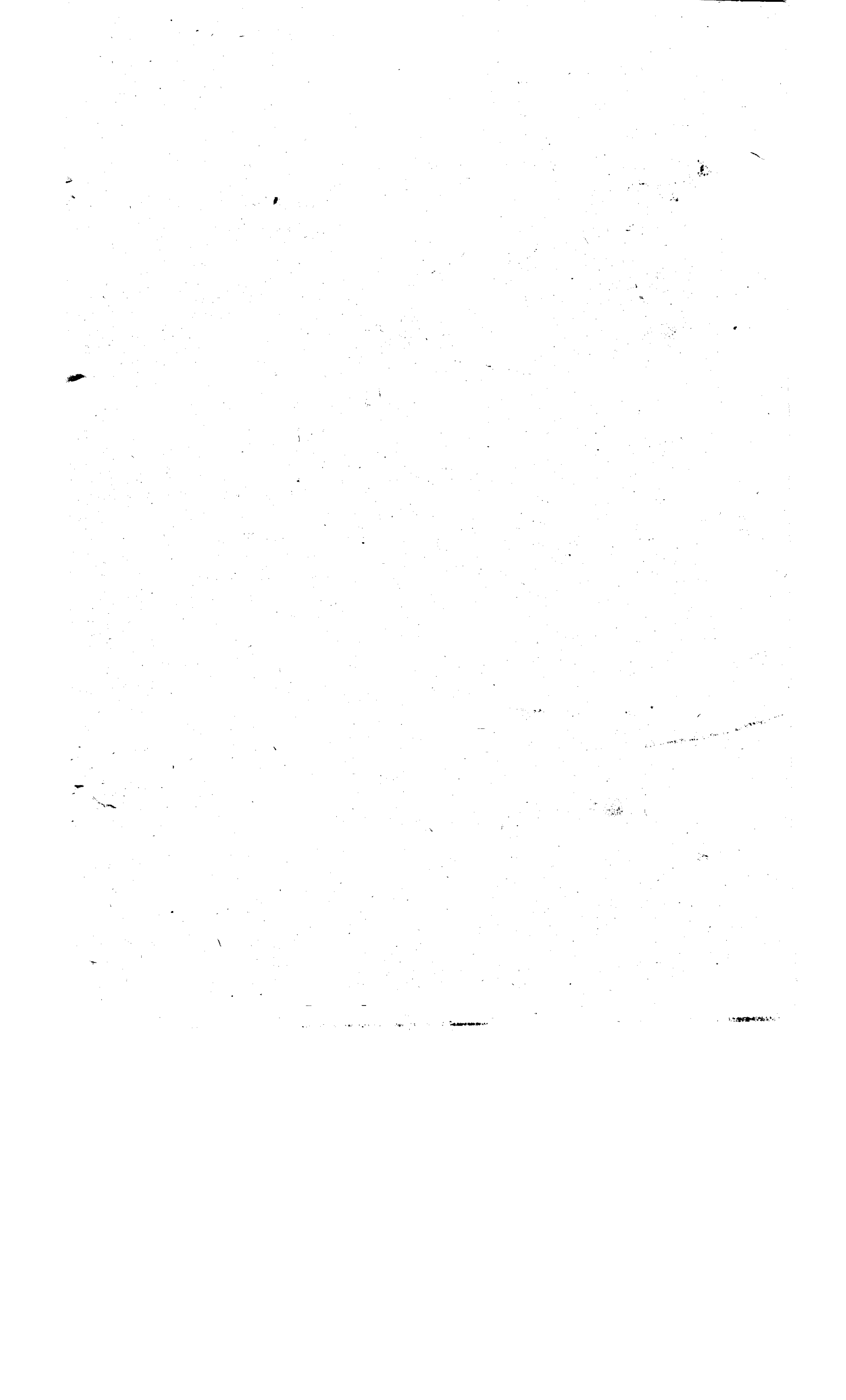
أما بعد

فهذا كتاب يحوي عرضا لحقبة من تاريخ أدبنا العربي وما ازدان بـه مـن شعر ونثر وما استتبعها من قضايا أدبية ونقدية حاول فيه المؤلف أن يتعرف إلى آراء الدارسين فيها قبله في مؤلفاتهم وبحوثهم ، ثم أدلى بدلوه وشارك برأيه وجسد رؤيته مرجحا أو مخالفا أو موافقا اعـتقادا منه أن البحث في الأصول مدعاة للتأصيل ، وإن الارتكاز على التراث انطلاق مأمون نحو الغد في المجال نفسه ، ومن لا قديم له فليـناطح الهواء بحثا عن حديث وليرض من الغنيمة بقبض الريح ، ومن لم يتخذ الموروث متكأ انكب على وجهه وتعثر عند أول عارض

والكـتاب بـين دفتـيه خمسة فصول انتظمت في بطحائها أطر الطـرح الباحث في إسهامات الباحثين والمفكرين في الأدب الجاهلي وأهـم قضـاياه في الشـعر والنثر والحوارات التي أثرتها ، كذلك مداخـلات المؤلـف — راجيا — أن يسهم ولو بقطرة في بحر لجي متلاطم الأمواج لا يتوقف مدا ولا ينحسر جزرا ...

والله اسأل أن ينفع به .

زهران محمد جبر



الفصل الأول

" ما لا بد منه "

١ــ اللغة العربية .

٢ــ اللهجات العربية .

٣ــ سيادة اللغة القرشية .

٤ــ الأسواق وأثرها في اللغة .

٥ــ أيهما أسبق الشعر أم النثر ؟

اللغة العربية

اللغة العربية إحدى اللغات السامية ، تفرعت وغيرها من أصل واحد نبت في بيئة واحدة ، وعندما بدأ الساميون يتكاثرون عددا ويتشعبون موطنا ، اختلفت لغتهم الأولى بالاشتقاق والاختلاط ، ثم تزداد الشقة ويتباعد الزمن وتستقل مجموعات بنفسها ، فتنقطع الصلة ويتعمق الاختلاف لتصبح كل لهجة لغة مستقلة [١] .

وقد فطن الباحثون في مجال اللغات إلى هذه العلاقة الوثيقة والتشابه بين اللهجات التي تفرعت من أصل واحد بما لا يدع مجالا للشك في العلاقة ما بين اللغات السامية التي يردها العلماء إلى الآرمية والكنعانية والعربية ، ويردون اللغات الآرية إلى اللاتينية - واليونانية والسنسكريتية ، فالآرامية أصل الكلدانية والآشورية والسريانية والكنعانية مصدر العبرانية والفينيقية ، والعربية تشمل المضرية الفصحى ولهجات مختلفة تكلمتها قبائل اليمن والحبشة .

وإذا كان علماء الأجناس وثقاة الباحثين متفقون على أن العرب من الشعوب السامية نسبة إلى سام بن نوح ، الذي ورد ذكره في التوراة ، وأن لغات هذه الشعوب متقاربة الملامح ، متشابهة المنطق في الكثير من مظاهرها بما يرجح أنها من أصل واحد ، فإنهم قد اختلفوا في منشأ تلك الشعوب السامية ، فيرى بعضهم أن موطنهم الأصلي

---

[١] ١٣ : تاريخ الأدب العربي . الزيات .

بلاد الحبشة في أفريقيا ، وأنهم نشأوا مع إخوانهم الحاميين ، ثم هاجر الساميون عن طريق باب المندب ، أو عن طريق شبه جزيرة سيناء ، ويرى آخرون أنهم نشأوا في أواسط آسيا أو أرمينيا ، ويرى غيرهم أن مهدهم جزيرة العرب ، وأنهم حين كثروا وضاقت بهم الأرض تشعبوا وتفرقوا في البقاع المجاورة ، فظهر البابليون والآشوريون في العراق ، والآراميون في الشام ، والعبرانيون في فلسطين والفينيقيون في سواحل سوريا ، وبقى العرب في جزيرتهم .

وأيا ما كان الأمر ، فالعرب أحد الشعوب السامية ، وهم الذين يسكنون الجزيرة المعروفة باسم جزيرة العرب(الجزيرة العربية) وينقسمون في رأي أهل التحقيق إلى ثلاث طبقات[1] .

١ـ بائدة : وهم الذين درست أخبارهم ، وطمست آثارهم ، فلم يسجل لهم التاريخ إلا صفحات غير واضحة لا تنفي ظنا ولا تثبت حقيقة ، وأشهر قبائلهم عاد وثمود وطسم وجديس ، قال تعالى (وأنه أهلك عاد الأولى . وثمود فما أبقى) [2].

وأما طسم وجديس فتفانوا في حادثة خرافية كما يزعمون .

٢ـ عاربة : وهم اليمنيون المنتمون إلى يعرب بن قحطان المذكور في التوراة باسم يارح بن يقطان ، ويزعم العرب أنه أصل

---

[1] ١٣ : الأدب العربي بين الجاهلية والإسلام . المسلوت .

[2] ٧ : تاريخ الأدب العربي ، والآيتان من سورة النجم .

لسانهم ومصدر بيانهم ، وبذلك يفتخر حسان بن ثابت في قوله :

تعلمتم من منطق الشيخ يعرب

أبينا فصرتم معربين ذوى نفر

وكنتم قديما ما لكم غير عجمة

كلام وكنتم كالبلهاء في القفر

ومن اليمنيين بطون حمير ، وأشهرهم زيد الجمهور وقضاعة والسكاسك وبطون كهلان ، وأشهرهم همدان وطيئ ومذحج وكندة ولخم ، ومن لخم بنو المنذر في الحيرة والأزد ، ومن الأزد الأوس والخزرج في المدينة ، والغساسنة في الشام ، وكانت لحمير السيادة على اليمن فمنهم الملوك والأقيال .

٣ــ مستعربة : وهم ولد إسماعيل عليه السلام ، ويسمون الإسماعيلية نسبة إلى جدهم إسماعيل بن إبراهيم ، والذي كان لسانه عبرانيا ، فاستعرب بعد أن اتصل بجرهم الثانية من ولد يعرب بن قحطان وأصهر إليهم ، ويسمون أيضا العدنانيين نسبة إلى عدنان أحد أحفاد إسماعيل، والنــزاريين نسبة إلى نزار بن معد بن عدنان ، وكانوا يسكنون تهامة ونجد والحجاز إلى مشارف الشام والعراق وكانت حياتهم بدوية تقوم على رعي الإبل والتماس الماء والكلأ [1].

---

[1] ١٥ : الأدب العربي بين الجاهلية والإسلام .

وقد كان لتقارب الأجناس أثر في اقتباس لغة من أخرى ، فقد تأثر اليمنيون باللغة الحبشية لقربهم منها ، وكثرة اتصالهم بها ، كما تأثر الحجازيون بالعبرية .

ولأن العرب بطبيعتهم قوم رحل ، فقد هيأت لهم الرحلة أن يختلطوا بأمم كثيرة ، مما جعل لغتهم يدخلها الكثير من الحبشية والحميرية والعبرية والآرامية ، ولأن اللغة لا يمكن أن تعيش بمنأى عن النقل والمحاكاة والاكتساب والتأثير والتأثر، وإلا كتب عليها الفناء وقد كان عدنان الذي ينتهي إليه عمود النسب العربي الصحيح قد ورث لغته عن آبائه إلى إسماعيل أبي العرب المستعربة .

وإسماعيل عليه السلام أخذ اللسان العربي من العرب العاربة أو القحطانية ، حين هاجرت جرهم الثانية إلى بلاد العرب ونزلت بمكة حيث كان يترل إسماعيل الذي أصهر إليهم ، وأمتزج بهم ونشأ منهم ومنه جيل جديد هم العرب المستعربة أو الإسماعيلية .

وتنفرد السامية بميزات تتميز بها عن غيرها من اللغات من ذلك اقتصارها في الكتابة على الحروف دون حركاها .

ومن ذلك أيضا زيادة عدد حروفها عن اللغات الآرية ، وكذلك كثرة اشتقاق صيغ متعددة من المادة الواحدة ، كما أن هناك شبها بين اللغات السامية في الأساليب ، وتراكيب الجمل والمفردات الدالة على أعضاء الجسم والضمائر .

ولأن اللغات السامية ترجع إلى أصل واحد — كما قيل — نجد كثيرا من الكلمات مشتركا بين هذه اللغات مع اختلاف قليل أحيانا كالذي بين العبرية والعربية ، فبعض الكلمات بالشين في اللغة العربية وهي بالسين في اللغة العبرية ،والألف في العربية واو في العبرية ، فسلام في العربية (شلوم) في العبرية ، وكذلك الثاء في العربية شين في العبرية كثور (شور) ، وما كان في العرب بالضاد ففي العبري بالصاد كأرض وأرص وهكذا .

ومن ذلك التشابه أيضا التنوين فهو في البابلية ميم وفي العربية نون وهما من أحرف الإبدال ، ومن العرب من يجوز إبدال أحدهما من الآخر ومنها علاقة الجمع ، فهي في البابلية الواو والنون كما في العربية وفي السريانية الياء والميم ، ومنها أن صيغ الأفعال في البابلية أقرب إلى الصيغ العربية منها إلى غيرها من سائر اللغات السامية .

اللهجات العربية :

استطاعت اللغة القرشية أن تتسلل إلى ألسنة أبناء الجزيرة كلهم وتوغلت في القبائل شمالا وجنوبا حتى صارت لغة الأدب والشعر ، ينطق بها الشعراء ، ويفدون إلى أسواقهم ومحافلهم متفاخرين متبارين ولكن مع ذلك بقى من لهجات العرب لهجات كثيرة نطق بها بعض القبائل .

وتعددت هذه اللهجات بتعدد مواطن القبائل واختلاف أماكنهم ، وكان التغير في صورة النطق شائعا في الكلام كالإمالة مثلا فقد كانت تميم وأسد وقيس تميل الألف وكان الحجازيون ينطقونها مفخمة من غير إمالة ، وكإبدال حرف بآخر كإبدال الباء ميما أو الميم باء كقولهم : (باسمك) مكان (ما اسمك؟) و (مكر) مكان (بكر) ومن ذلك تردد الكلمة بين الفك والإدغام وبين الإتمام والنقص ، أو بين الصحة والإعلال والإعراب والبناء وكنقص "من" الجارة كقولهم : (خرجت ملبيت) وفي شعر جميل :

وما أنس ملأشياء لا أنسى قولها　　وقد قربت نضوى أمصر تريد؟

وقد كان لكل قبيلة لهجة عرفت بها مثل : عجعجة قضاعة وهي جعل الياء جيما بعد العين مثل (الراعج) في الراعي ، وجعل الياء المشددة جيما مطلقا ، كقولهم (العشج) في العشي ، و (علج) في على ، قال الشاعر :

خالي عويف وأبـــو علـــج　　المطعمان اللحـــم بالعشـــج

ومن هذه اللهجات كشكشة ربيعة وهي إبدال الشين من كاف الخطاب للمؤنث مثل (عليش) في عليك ، أو زيادتها عليها مثل (عليكش) ومنها كسكسة هوازن ، وهي زيادة سين بعد كاف المؤنث مثل (منكس) و (أعطيتكس) في منك وأعطيتك .

واستنطاء أسد كقولهم في أعطى (أنطى) ، وشنشنة اليمن وهي جعل الكاف شينا مطلقا نحو (شلمني) في كلمني ، و(البيش) في لبيك ، وطمطمانية حمير ، وهي جعل (أم) بدل (ال) وجاء بلغتهم الحديث : (ليس من أمبر أمصيام في إمسفر) اي ليس من البر الصيام في السفر .

ومنها عنعنة تميم وهي قلب الهمزة عينا في بعض الكلمات يقول شاعرهم :

أعن توسمت من خرقاء منزلة ماء الصبابة من عينيك مسجوم

قلب همزة (أن) إلى (عين) .

وفحفحة هذيل ، وهي جعل الحاء عينا مثل (العسن) في الحسن ، (واللعم) في اللحم .

وكان من مظاهر تعدد اللهجات ـــ أيضا ـــ تسمية الشيء الواحد بعدة أسماء ، فالقمح كما يقول الجاحظ لغة شامية ، والحنطة كوفية والبر حجازية ، وكلها لشيء واحد ، ومثلها الذهب والعسجد والغيث والمطر ، ومثلها الأسماء التي للسيف والأسد والفرس والبعير ، وقد كان هذا الترادف من أهم عوامل ثراء اللغة وزيادتها ونمائها وخصوبتها ، ومثل الترادف كذلك التضاد الذي يرجع إلى اختلاف اللهجات .

فالكلمة تستعمل عند قبيلة بمعنى وتستعمل في ضد هذا المعنى عند قبيلة أخرى مثل (الجون) للأبيض والأسود و (جلل) للعظيم والحقير .

وهكذا كانت الجزيرة تموج بمثل هذه اللغات التي لا تحصر ولا تقف عند حد ، وظل هذا الاختلاف الأصيل يستبد بالألسنة ، ويغلب على الطبائع ، ويتعدد بتعدد المواطن ، ويختلف باختلاف الأماكن حتى استطاعت اللغة القرشية أن تبسط نفوذها وتمد سلطانها لأن أزمة التجارة تحولت إلى مكة ، ولأن الكعبة كانت قبلة العرب يفدون إليها حاجين ناسكين من كل صوب جعلت اللغة القرشية من هذه اللهجات المختلفة المتباينة لهجة عذبة فصيحة على اللسان حبيبة إلى الآذان ، مهذبة الألفاظ منسقة الكلمات ، يحرص الجميع على تقليدها ، ويصر الكل على الإقبال عليها والاحتفاظ بها .

سيادة اللغة القرشية :

لقد ساعدت ظروف دينية وعوامل سياسية واقتصادية على أن تسود لهجة قريش خلال القرن السادس الميلادي ، وأن تصبح لغة الشعر مهما تعددت لهجات الشعراء واختلفت [1].

فموقع مكة له أثر بالغ في وحدة اللغة ونهضة الأدب ، لأن مكة كانت في النصف الثاني من القرن السادس محطا لقوافل التجارة الآتية

---

[1] ١٩ : الشعر الجاهلي مراحله واتجاهاته . سيد حنفي .

من الجنوب تحمل السلع من الهند إلى اليمن ، فيبتاعها المكيون ، ويصرفونها في أسواق الشام ومصر ، وكانت طرق مكة التجارية آمنة لحرمة البيت ومكانة قريش ، فكان تجارهم يخرجون بالقوافل ، ويترلون الأسواق ، ويهبطون الآفاق فيستفيدون بسطة في العلم وقوة في الفهم وثروة في المال ، وخبرة بأمور الحياة ، كما أنها كانت أكبر مركز للتجميع الديني الوثني في الجزيرة العربية . وخاصة بعد ما رأت القبائل العربية هجوم الدول المجاورة لها من الفرس والروم والأجناس على أطرافها ، والديانتين المسيحية واليهودية على دينها الوثني ، وكانت قريش حامية دين العرب ، تقوم على السدانة وعلى الحجابة ، وتخدم الحجيج القادم إليها ، وتؤم الشعائر الوثنية بكل ما فيها من أدعية ومراسيم تنأى بلهجتها ، ومن هنا فرضت قريش هذه اللهجة على القبائل الأخرى .

كذلك كان لمكانة القرشيين من الحضارة ورياستهم في عكاظ وإيلافهم رحلة الشتاء والصيف الأولى إلى اليمن والأخرى إلى حوران دور في تغلب لهجة قريش على غيرها من اللهجات .

ففي عكاظ التي كانت سوقا أدبية قبل أن تكون سوقا تجارية يتبارى فيها الشعراء والخطباء ، يحتكمون في ذلك إلى قريش ، فما قبلوه منها كان مقبولا ، وما ردوه منها كان مردودا [1].

---

[1] ٢٢ : السابق .

ولهذا قالوا : إن العرب كانت تعرض أشعارهم على هذا الحي فما قبلوه شاع وذاع ، وما رفضوه أهمل وأجمل ، وقدم عليهم علقمة ابن عبدة الميمي فأنشدهم قصيدته :

(هل ما علمت وما استودعت مكتوم)

فقالوا : هذا سمط الدهر ، ثم عاد إليهم في العام المقبل فأنشدهم قصيدته :

طحابك قلب في الحسان طروب   بعيد الشباب عصر حان مشيب

فقالوا : هاتان سمطا الدهر .

ومما يؤكد سيطرة لهجة قريش حتى في شمال اليمن ، وما كان به من القبائل اليمنية التي وفدت على النبي صلى الله عليه وسلم ، فتأخذ عنه ، وتتفاهم معه ، وكذلك دعاته صلى الله عليه وسلم الذين كان يرسلهم إلى القبائل المختلفة للدعوة والتعليم ، وقد أرسل صلى الله عليه وسلم معاذ بن جبل إلى اليمن ، ليقضي فيهم بكتاب الله تعالى وسنة رسوله ويعلمهم دينهم [1]. وهذا دليل على أنهم كانوا يعرفون لغة قريش ، وأنها تغلغلت إلى أنحاء الجزيرة العربية وساعد هذا التغلغل على سرعة استجابة القبائل العربية على اختلاف لهجاتها للقرآن الكـــريم ، فقـــد كانوا يفهمونه بمجـــرد سماعـــه

---

[1] ١٢٣ : الأدب العربي بين الجاهلية والإسلام .

ويشعرون بإعجازه البياني كما يشعر القرشيون أنفسهم [١].

ثم هذه الأشعار التي كانت تلقى في بلاط المناذرة ، وقصور الغساسنة دليل أيضا على سيادة اللغة القرشية .

ويرى الدكتور طه حسين أن السيادة التامة للغة قريش لم تكن حقيقة إلا بعد الإسلام ، وهو برأيه هذا إنما يريد تأكيد ما ذهب إليه في قضية انتحال الشعر الجاهلي يقول : (فالمسألة إذن هي أن نعلم : أسادت لغة قريش ولهجتها في البلاد العربية ، وأخضعت العرب لسلطانها في الشعر والنثر قبل الإسلام أم بعده ؟ ، وأما نحن فنتوسط ونقول : أنها سادت قبيل الإسلام ، حين عظم شأن قريش ، وحين أخذت مكة تستحيل إلى وحدة سياسة مستقلة ، مقاومة للسيادة الأجنبية التي كانت تتسلط على أطراف البلاد العربية . ولكن سيادة لغة قريش قبل الإسلام لم تكن شيئا يذكر ، ولم تكن تتجاوز الحجاز ، فلما جاء الإسلام عمت هذه السيادة وسار سلطان اللغة واللهجة مع السلطان الديني والسياسي جنبا إلى جنب "[٢] .

ورأى الدكتور طه حسين فيه نظر ، لأن هذه السيادة لو تمت فقط بعد الإسلام ، لأنكرنا على اللغة العربية ازدهارها وقوتها وانتشارها في جميع الجزيرة العربية قبل الإسلام بمائة وخمسين عاما ، .

---

[١] ٢٢ : الشعر الجاهلي مراحله واتجاهاته .

[٢] ١٠٩ : الأدب الجاهلي . طه حسين

حيث عبر الشعر عن عنفوان هذه اللغة في تلك المدة ، ولم يكن رأى الدكتور طه حسين إلا للتدليل به في شكه في الشعر الجاهلي .

ومن خلال ما سبق فإن اللغة العربية الفصحى بدأت معالمها تتضح منذ منتصف القرن الرابع الميلادي ـــ تقريبا ـــ وأخذت هذه المعالم تتحدد وتقترب شيئا فشيئا من اللغة الفصحى خلال القرن الخامس الميلادي ، وأصبح معلوما أن هناك لهجة عربية تتغلب تدريجيا على وسط الجزيرة وشماليها ، وتشابه النقوش من حيث اللهجة تلك التي عثر عليها في هذه المناطق ، يثبت أن القبائل العربية كانت تتفاهم فيما بينهم دون صعوبة اعتمادا على هذه اللهجة الموحدة ، كما يثبت أيضا أن اللغة العربية الفصحى ـــ لغة الشعر الجاهلي ـــ بدأت تأخذ شكلها المعروف خلال القرنين الرابع والخامس الميلاديين ، حتى إذا وصلنا إلى عصر عثورنا على أقدم النصوص الشعرية الجاهلية مع أوائل القرن السادس الميلادي كانت هذه النصوص قد أصبحت مروية في معظم القبائل العربية يتناولها الرواة في أنحاء الجزيرة وينشدها الشعراء تعبيرا عن ذواتهم الفردية أو عصبيتهم القبلية واتضح أن قريشا استطاعت أن تطبع هذه اللغة الأدبية الموحدة بطابعها الخاص وبلهجتها المستقلة نتيجة لمركزها الديني والتجاري الذي كانت تحتله قبيل ظهور الإسلام ، حتى إذا

نزل القرآن الكريم وحد البيئة اللغوية التي تفهمه دون عناء على الرغم من اختلاف اللهجات [١].

الأسواق وأثرها في اللغة والأدب الجاهليين

أسواق العرب في الجاهلية كثيرة شملت أماكن متفرقة في أنحاء الجزيرة العربية لتنال كل بقعة نصيبها منها ولا يحرم بعض السكان من وجود هذه الأسواق في ديارهم ، كما جعلوا لكل منها وقتا خاصا بحيث لا يتعارض بعضها مع بعض ، ليستطيع كل من شاء أن يحضر هذه الأسواق دون أن تفوته واحدة منها[٢] ، لأنها كانت تعد معارض سلعهم وتجارتهم ومنتدى شعرائهم وخطبائهم وحلقات لمفاخراتهم ومنافراتهم ومجالات لتهذيب اللغة وتقويم المنطق وسمو البيان ، وكانت هذه الأسواق موئلا يغشاها الرجال و النساء من جميع الطبقات للمفاخرة بالبيان والمباهاة بالشجاعة والكرم والنجدة والتحكيم في الخصومات وفك الأسرى ، وكانت تقام في أشهر السنة ، وكان العرب يتنقلون في تلك الأسواق ولكنها قد تكون خاصة للقبائل القريبة من مكان الاجتماع مثل سوق "هجر" بالبحرين و"دومة الجندل" بالشام،وهناك أسواق في صنعاء وعمان وحضرموت وعدن والشحر والأبلة والأنبار والمجنة والمشقر وغيرها .

---

[١] ٢٣ : الشعر الجاهلي مراحله واتجاهاته .

[٢] ٨١ : دراسات في أدب ونصوص العصر الجاهلي . د/ محمد عبد القادر أحمد .

ويذكر اليعقوبي في تاريخه أشهر هذه الأسواق ومدهّا قائلا : وكان المعتاد " إذا فرغوا من سوق انتقلوا إلى سواها ، فكانوا يــترلون "دومة الجندل" بأعلى نجد أول يوم ، ثم ينتقلون إلى سوق "هجر" بالبحرين فيقيمون هناك شهرا ، ويرتحلون منها إلى عمان فيقيمون سوقهم ثم يرتحلون إلى حضرموت بعدن ، وبعضهم يترل صنعاء فيقيمون أسواقهم ، ثم يرتحلون إلى "عكاظ" في الأشهر الحرم "[1] .

وكان لليهود أسواقهم يقيموها في المناطق التي يترلون بها ، وكان التعامل في كل هذه الأسواق يتم بالمقايضة وبتبادل السلع ، كما كان يتم بنقود الفرس والروم التي كان يتعامل بها العرب في تجارهم [2].

وأشهر هذه الأسواق على الإطلاق سوق "عكاظ " ، وكانوا يقيموها في نجد بين نخلة والطائف في أول ذي القعدة إلى العشرين منه ، وقد أقيمت بعد عام الفيل بخمس عشرة سنة ، وبقيت بعد الإسلام حتى قضى عليها الخوارج سنة ١٢٩هـــ [3].

و" عكاظ " حكمة مشتقة من تعكظ القوم إذا تحبسوا لينظروا في أمورهم ، وقيل إنها سميت عكاظ لأن العرب كانت تجتمع فيها

---

[1] ٣١٣ / ١ : تاريخ اليعقوبي .

[2] ٨٢ : دراسات في أدب ونصوص العصر الجاهلي .

[3] ٨٢ : دراسات في أدب ونصوص العصر الجاهلي .

فيعكظ بعضهم بعضا بالمفاخرة أي يعركه ويقهره بحجته ويرد عليه فخره .

والتعاكظ : التجادل والتحاج والتعارك ، وتعكظوا في موضع كذا إذا اجتمعوا وازدحموا .

وترجع أهمية عكاظ إلى أنها كانت تعقد قبيل الحج وهي قريبة من مكة ، فمن أراد الحج سهل عليه أن يجمع بين هدفه الديني ومآربه التجارية ، ثم أن انعقادها كان في شهر من الأشهر الحرم ، والعرب فيها كانت لا تتحارب ، حتى إن الرجل كان يلقي قاتل ابيه أو ولده فلا يعرض له بسوء ، فقاصد السوق آمن على نفسه وماله .

ومما يميز سوق عكاظ ــ أيضا ــ أن تجارة الملك النعمان بن المنذر وغيره من ملوك الحيرة ، وكانت هذه التجارة تزدهر بصنوف الطيب التي كانت معروفة عند أهل الحيرة ، والتي كان أهل مكة المترفون يحتاجون إليها في حياتهم الاجتماعية ، كما كانت قريش تحتاج إليها في مناسكها الدينية .

هذه السوق كان لها شهرة خاصة وآثار عامة في حياة العرب المادية والأدبية والاجتماعية ، فمن كانت له خصومة انتظر موسم عكاظ ليعلن خصومته ، وكانوا إذا غدر الرجل أو جنى جناية انتظر أحدهم حتى يرفع له راية غدر بعكاظ ، فيقوم رجل فيخطب بذلك الغدر ، فيقول : ألا إن فلان بن فلان غدر فاعرفوا وجهه ولا

تصاهروه ولا تجالسوه ولا تسمعوا منه قولا فإن أعتب ، وإلا جعل له مثل مثاله (تمثال) في رمح فينصب بعكاظ فلعن ورجم ، ومن كان له دين على آخر أنظره إلى عكاظ ، ومن كان له حاجة استصرخ القبائل بعكاظ ، كما كانت السوق ميدانا يتم فيه إعلان خلع الأفراد من قبائلهم ، وكذلك الديات تدفع فيها .

وقد رأى النبي صلى الله عليه وسلم قس بن ساعدة الإيادى وهو يخطب خطبته المشهورة : " أيها الناس اسمعوا وأعوا ....." على جمل أورق فيرغب ويرهب ، ويحذر وينذر .

وفي سوق عكاظ أنشد عمرو بن كلثوم معلقته ، وقيل: إنما علقت في هذه السوق ، كما أنشد فيها الأعشى مدحته المحلق .

كذلك ألقى فيها حسان بن ثابت مدائحه ، كما كانت الخنساء تلقي فيها مراثيها وتعاظم بمصيبتها ، وكانت تضرب للنابغة قبة حمراء من أدم ، ويفد عليه الشعراء بشعرهم ليحكم بينهم ، ومن الشعراء الذين وفدوا إليه الأعشى والخنساء وحسان بن ثابت وحكومته بينهم مشهورة في تاريخ الأدب العربي القديم [١].

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يدعو الناس إلى الإسلام في عكاظ ، وروى اليعقوبي[٢] أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قام

---

[١] ١/٢٣ : تاريخ اليعقوبي .

[٢] ١٠ : تاريخ الأدب العربي .

بسوق عكاظ عليه جبة حمراء .فقال : "يا أيها الناس ، قولوا لا إله إلا الله تفلحوا وتنجحوا" . وإذا وراءه رجل كأن وجهه الذهب يقول : "أيها الناس هذا ابن أخي وهو كاذب فلا تصدقوه . وهو أبو لهب بن عبد المطلب " .

وكانت هذه الأسواق وخاصة عكاظ وسيلة إلى تهذيب اللغة وتقارب اللهجات ، ومدعاة إلى تجويد الشعر وصقل الخطب ، فهي حلبة تنجلي فيها قيم الشعراء وأقدار الخطباء ، وتنقد ثمار القرائح وحصائد الألسنة . كما كان بها منابر يقوم عليها الخطيب بخطبته وفعاله ، وعد مآثره وأيام قومه من عام إلى عام .

وكان أعظم ما تعتز به القبيلة وتفخر ، ظهور شاعر بينها ، فإذا حكم له بالسبق على من في السوق من الشعراء ، أقامت القبيلة الأفراح والولائم أياما . وهنأتها القبائل لأنه لسانها المدافع عنها والمذيع لمفاخرها ، وهو مثيرها في الحرب وهاديها في السلم .

ولا شك أن هذا التنافس الأدبي والسباق البياني ، والاحتفال بتجويد القصائد ، والاقتباس من اللغة المهذبة ، واللهجة المنقحة كان لكل ذلك أبلغ الأثر في تهذيب اللغة وصقل مواهب الأدباء بل نهضة الأدباء عموما .

ومعنى هذا أن عكاظ كانت أشبه بمؤتمر كبير للعرب فيه يجتمعون ، وينظرون في خصوماتهم ومنازعاتهم ، وكل ما يتصل بهم

من شئون . يقول الزيات عن الأسواق في الجاهلية وأثرها على اللغة : " فكان للعرب من ذلك معونة على توحيد اللسان والعادة والدين والخلق ، وإذا كان الشاعر أو الخطيب إنما يتوخى الألفاظ العامة ، والأساليب الشائعة قصدا إلى إفهام سامعيه ، وطمعا في تكثير مشايعيه والرواة من ورائه يطيرون شعره بين القبائل وينشرونه في الأنحاء فتنتشر معه لهجته وطريقته وفكرته " .[١]

أيهما أسبق الشعر أم النثر ؟

ذهب الأدباء القدامى إلى أن النثر أقدم في الوجود من الشعر ، لأن النثر مطلق والشعر مقيد يحتاج إلى وزن وقافية ، وهذا ما يراه ابن رشيق حيث يقول : " كان الكلام كله منثورا ، فاحتاجت العرب إلى التغني بمكارم أخلاقها وطيب أعرافها ، وذكر أيامها الصالحة وأوطانها النازحة وفرسانها الأمجاد وسمحائها الأجواد ، لتهتز أنفسها إلى الكرم ، وتدل أبناءها على حسن الشيم ، فتوهموا أعاريض جعلوها موازين للكلام ، فلما تم لهم وزنه سموه شعرا لأنهم شعروا به " .[٢]

ونصوص عربية أخرى تؤكد الرأي السابق وتذهب إلى أن العرب قالت النثر ، ثم السجع ، ثم الرجز ، أما بعض المستشرقين

---

[١] صـــ ١٠ تاريخ الأدب العربي للزيات .

[١] ١/٥ : العمدة .

كجولدزتيهر وبروكلمان ، فيرون أن السجع كان المرحلة الأولى التي عبرها النثر إلى الشعر .

وفي المحدثين من يرى أن وجود الشعر أسبق من وجود النثر ، بل قبل أن يتخلق النثر ، وقبل أن يولد بدهور طوال ، يدفعهم إلى هذا القول الدعوى بان الأمم القديمة تغنت ونظمت الشعر قبل أن تعرف النثر .، وأن النثر الأدبي لم يعرف إلا بعد أن تعلم الناس الكتابة ، ويرى أصحاب هذه الدعوى أن الشعر عندما ضاقت أوزانه بمظاهر العقل الإنساني ، دعا ذلك إلى التحلل من هذه القيود وإرسال الكلام منثورا على ما يدعو الطبع وتمس إليه الحاجة ، وتلك دعوى غريبة ، لأن مرحلة الوصول إلى نظم الشعر مرحلة متقدمة لا يعقل أن تكون البداية بها ، وتشبه هذه الدعوى من الزعم أن الإنسان كان يسكن البيوت ، وكانت حياته منتظمة ثم دعاه بعد ذلك إلى أن يأنف من هذا الضيق وينطلق من تلك الأسوار ، فينطلق إلى الصحراء ، فيعود من كمال إلى نقص . ومن نظام إلى فوضى[1] .

وعلى كل حال فإن كثرة ما وصل إلينا من شعر بالقياس إلى قلة ما وصل إلينا من نثر ، مع الاعتراف بأن المنثور الجاهلي كان أكثر من المنظوم ، وأن المنثور هو البداية الطبيعية إلا أن الشعر وعته صدور الحفاظ وتناقلته ألسنة الرواة ، وظفر بعناية العرب بما لم يظفر

---

[1] ١٣٩ ــ ١٤٠ : دراسات في أدب نصوص العصر الجاهلي .

بشيء من مثله النثر ، إلى أن أوصلته إلى علماء اللغة المدونين في القرن الثاني والثالث الهجريين .

والمـــرجح أن النثر كان أسبق ظهورا من الشعر لما فيه من يسر التخاطـــب به ، وأنه أقرب إلى لغة التعامل اليومي ــ مع الوضع في الاعتـــبار أن العـــرب في الجاهلية أهل فصاحة وبيان ــ فلا غرو أن يكون النثر هو الأول ثم لم يهتموا به اهتمامهم بالشعر لأنه لا مزية له عـــلى كلامهم العادي إلا في الجمل القصيرة المقصودة والسجع كما ســـنتبين ذلك في الحديث عن النثر ، وعلى الرغم من ذلك ومع أن رجاله كانوا أكثر عددا من رجال الشعر ، إلا أن ما وصل إلينا منه يعد قليلا جدا بالقياس إلى ما وصل إلينا منه بعد ذلك لبعض العوامل مـــنها : أن الأمة العربية في ذلك الوقت كانت تغمرها الأمية وتلفها الجهالـــة ، فهي لم تدون نثرها ، ولم تقيد شعرها ، ولم تسجل وقائع أيامهـــا لقلـــة القـــارئين والكاتبين ، يضاف إلى ذلك أن حفظ النثر أصـــعب من حفظ الشعر ، فالشعر يساعد على حفظه وزنه وقافيته ومـــا يتولد عنهما من جرس ونغم ، وحلاوة إيقاع ولا يزال المنظوم من كل شيء أمتع للنفس ، وأحلى للقلوب من المنثور ، والنظام سر الجمـــال في مظاهر الوجود حتى في الجماد والحجر ، أما النثر فمثله كالضيف لم يكد يسلم حتى يودع .

الفصل الثاني

(الشعر الجاهلي)

١ــ العصر الجاهلي . (المصطلح) .

٢ــ الشعر روايته ورواته .

٣ــ المعلقات .

٤ــ قضية انتحال الشعر الجاهلي .

٥ــأنواع الشعر .

العصر الجاهلي

المقصود منه :

المراد بالعصر الجاهلي : تلك الحقبة الممتدة في عمق التاريخ الذي يسبق ظهور الإسلام ، وينتهي بظهوره ، وعند الباحثين ينقسم ذلك العصر إلى جاهليتين : الجاهلية الأولى ، وهذه لم يحدد لها فترة معينة ابتداء وانتهاء ، وقد ورد في القرآن الكريم كلمة الجاهلية مطلقة مرة ومقيدة أخرى ، قال تعالى في سورة الفتح الآية ٢٦ (إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية) وهي تشتمل على كل المدة السابقة على الإسلام عموما . وفي سورة الأحزاب الآية ٣٣ (وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى)تحديد لتاريخ . وفي المقابل هناك جاهلية ثانية وهي الفترة التي تسبق ظهور الإسلام مباشرة وإن لم يحدد لها تاريخ معين كذلك . إلا أن الذي يهمنا هو أن الأدب الذي ندرسه هنا:هو أما أنتجته قرائح الأدباء في مدة استغرقتها الجاهلية الثانية بعمق مائة وخمسين عاما إلى الوراء من البعثة النبوية ، والباحثون في تاريخ الأدب الجاهلي لا يتجاوزون في دراساتهم للأدب ما وراء قرن ونصف قبل الإسلام ، إذ أن هذه هي المدة التي تكاملت للغة العربية منذ أوائلها خصائصها يقول الجاحظ :

أما الشعر (العربي) فحديث الميلاد صغير السن ، أول من نهج

سبيله ، وسهل الطريق إليه امرؤ القيس بن حجر ومهلهل بن ربيعة ، فإذا استظهرنا الشعر بغاية الاستظهار فمائتي عام " . [1]

أما كلمة "الجاهلية" التي اطلقت على هذا العصر ، فليست مشتقة من الجهل الذي هو ضد العلم ونقيضه ، وإنما هي مشتقه من الجهل بمعنى السفه والغضب والنـــزق قال عمرو بن كلثوم :

ألا لا يجهلن أحد علينا   فنجهل فوق جهل الجاهلينا

وهي تقابل كلمة "الإسلام" التي تدل على الخضوع والطاعة لله عز وجل وما يطوي فيها من سلوك خلقي كريم ، ووردت كلمة " الجاهلية "في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف والشعر الجاهلي . بمعنى الحمية والطيش والغضب ففي القرآن في سورة الفرقان الآية ٦٣ " وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما " وفي الحديث الشريف قال الرسول عليه السلام لأبي ذر وقد عير رجلا بأمه : (إنك امرؤ فيك جاهلية) .

ثم أطلقت الكلمة واستخدمت للدلالة على العصر القريب من الإسلام ، أو السابق عليه مباشرة ، لما اتسم به من وثنية وأخلاق قوامها الحمية والأخذ بالثأر ، واقتراف ما نهى عنه الشرع الحنيف .

---

[1] ١/٤ : الحيوان للجاحظ .

وترجع الأهمية في دراسة الأدب الجاهلي شعره ونثره ، إلى أنه وثيقة تاريخية ، نتعرف منها على ظواهر الحياة المختلفة قبل الإسلام خاصة عندما تعوز الباحث المصادر المروية أو المكتوبة من الأخبار ، ولا يجد إلا الشعر موئلا يرجع إليه[١] .

ثم بدت قيمة هذا الأدب أكثر عندما تطورت قيمته ، واتخذ أداة لتفسير ما يغمض على الناس من لغة القرآن الكريم : " وكان ابن عباس رضي الله عنهما يقول : إذا قرأتم شيئا من كتاب الله فلم تعرفوه ، فاطلبوه في أشعار العرب ، فإن الشعر ديوان العرب وكان إذا سئل عن شيء من القرآن أنشد فيه شعرا[٢] " ويقول محمد بن سلام الجمحي : " كان الشعر في الجاهلية عند العرب ديوان علمهم ومنتهى حكمهم ، به يأخذون ، وإليه يصيرون "[٣] .

ثم تطورت رؤية أبن عباس ــ رضى الله عنهما ــ على أيدى من تلاه من العلماء فصاروا يفسرون أساليب الأداء التعبيري في القرآن الكريم بما يشابهه من طرق في الشعر الجاهلي ويستشهدون بالشعر عليها ، كما صدر مصادر للنحويين واللغويين وسائر علماء اللسان العربي .

---

[١] ١١ : الأدب العربي في الجاهلية . د/ عبد السلام عبد الحفيظ .

[٢] ١/٣٠ : العمدة .

[٣] ١/٢٤ : طبقات فحول الشعراء .

وظلت القيمة الجمالية في هذا الشعر عاملا مهما في الاحتفاء به والحفاظ عليه ، فقد " بلغ ......درجة عالية من الاستواء والنضج[1] " كما يقول الدكتور عز الدين إسماعيل . وفيه ثروة ضخمة من الشعر الرائع كما يقول شكري عياد .

واتخذ منذ العصور الإسلامية مثالا يحتذي ويهتدي بطرائقه ، ويسترشد بفنون الجمال التكويني فيه ، ويظل ذلك الشعر مرفأ الباحثين عن التعبير السامق واللغة الفصيحة ، والمشاعر الصادقة ، والنفس الإنسانية التي لم تتلوث وانفعالها بالحياة من حولها .

ودراسة ذلك الأدب له أثره البالغ في حياة الأمة ، فإن المحافظة على اللغة وما فيها من ثمار العقل والقلب ، أحد الأسس التي تبنى عليها الأمة وحدتها ومجدها وفخرها ، فإذا حرمت أمة آدابها وعلومها الجليلة الموروثة ، وقطعت سياق تقاليدها الأدبية والقومية ، حرمت قوام خصائصها ونظام وحدتها ، وقيدت إلى العبودية العقلية ، وهي شر من العبودية السياسية ، لأن استبعاد الجسم مرض يمكن دواؤه ويرجى شفاؤه ، أما استبعاد الروح فموت للأمة وفناء للثوابت لا يقدر على إحيائها طبيب .[2]

---

[1] ١٠ : المكتبات الأولى للثقافة العربية .

[2] صـــ ٤ تاريخ الأدب العربي ، للزيات .

والأدب الجاهلي مصطلح يستوعب ذلك النموذج العالي مما أبدعته عقول المبدعين من أدباء الجاهلية من نثر ، وما ترجمت به عواطفهم من شعر ، وتفاعلهم مع الحياة في شتى صورها من حولهم ، والنثر منه الخطابة والمثل والحكمة والوصايا والنصائح والمفاخرة والمنافرة والمحاور وسجع الكهان ، أما شعرهم فكان غنائيا جله .

رواية الشعر الجاهلي ورواته

اعتمد العرب في حفظ الشعر الجاهلي وروايته من الجاهلية إلى عصر التدوين على الرواية الشفهية والحفظ ، وقد ساعدهم على ذلك ذاكرتهم القوية وملكاتهم القادرة على الاستيعاب .

وكان اعتمادهم على حافظتهم ، لأن الكتابة لم تكن شائعة في ذلك العصر ، كما أن الورق كان قليلا ، لذلك استعاضوا عنه فيما دونوه في ذلك العصر بالحجارة وسعف النخل والعظام والجلود [1].

ولم يكن عامة الشعراء يتبع نظام الكتابة لتسجيل شعرهم "وليس بين أيدينا دليل مادي على أن الجاهليين اتخذوا الكتابة وسيلة لحفظ أشعارهم ، ربما كتبوا بها بعض قطع أو بعض قصائد ، ولكنهم لم يتحولوا من ذلك إلى استخدامها أداة في نقل دواوينهم إلى الأجيال التالية ، فقد كانت وسائلها الصعبة من الحجارة والجلود والعظام وسعف النخل تجعل من العسير أن يتداولها الشعراء في حفظ دواوينهم ، إنما وجدت ذلك في الإسلام بفضل القرآن الكريم وما أشاعه من كتابة آياته وتحول جمهور العرب معه من أميتهم إلى قارئين يتلون .

أما عن الروايات التي تثبت كتابة بعض الأشعار في الجاهلية ،

---

[1] ٢٩٩ : دراسات في أدب ونصوص العصر الجاهلي .

إنما تدل على أن الكتابة كانت معروفة ، وخاصة في البيئات الآخذة بشيء من الحضارة ، ولكنه لا يدل بحال على أنها اتخذت أداة لحفظ الشعر الجاهلي ودواوينه ، ولو أنهم كان لهم كتاب جمعوا فيه أطرافاً من أشعارهم لما أطلق جل وعز على القرآن اسم الكتاب ، فلا كتاب لهم من قبله لا في الدين ولا في غير الدين " [1].

ومما ساعد على بقاء الأشعار حية على الرغم من أن الجزء الأكبر منها لم يكتب ، اعتمادهم في تداولها وسيرورتها على ذاكرتهم وكثرة ترديدها في مجالسهم ومنتدياتهم ، فتكرار النص الأدبي يجعله حيا في ذهن حافظيه ، وموهبة الحفظ تقوى بالممارسة والتدريب ومداومة التذكر [2].

ولأن الاعتماد الأكبر للشعراء الجاهليين في سيرورة أشعارهم وبقائها ، كان يعتمد على الرواية ، فإن الشاعر منهم كان يقف فينشد قصيدته ويتلقاها عنه الناس ويروونها [3].

ومنذ العصر الإسلامي وجدت طائفة من الرواة لا عمل لها إلا جمع الأشعار وحفظها وروايتها ، واتخذت ذلك مهنة لها ، وإلى هؤلاء نحن مدينون بما وصل إلينا من أشعار العرب .

---

[1] ١٣٩ ــ ١٤٠ : العصر الجاهلي ، د/ شوقي ضيف .

[2] ٢٩٩ : دراسات في أدب ونصوص العصر الجاهلي .

[3] ١٤١ : العصر الجاهلي .

ومعنى ذلك أن النهر الكبير الذي فاض بالشعر الجاهلي إنما هو الرواية الشفوية .

هذه الرواية التي كانت الأداة المطيعة في العصر الجاهلي لنشر الشعر وذيوعه ، وكانت هناك طبقة تحترفها احترافا هي طبقة الشعراء أنفسهم [1]. " فقد اضطلعوا بدور هام في الرواية ، حيث كانت لهم المدرسة التي يتعلمون فيها صوغ الشعر ونظمه والتمرس بأساليب الكلام وفنون القول ،ومن أراد أن يصبح شاعرا لزم واحدا من فحولهم ، يحفظ عنه ويروي له ، ويترسم خطاه ، ويذكر الباحثون لاتصال الروايات نماذج ، منها أن زهير بن أبي سلمى كان راوية أوس بن حجر ، وكعب بن زهير والحطيئة راويتي زهير ، وكان هدبة بن خشرم العذري رواية الحطيئة ، وجميل بثينة راوية هدبة ، وكثير عزة راوية جميل [2]، وتكاد الخصائص الفنية لشعر كل منهم تتقارب مع خصائص سابقة ولاحقة ، ومن تأمل هذا الإسناد ندرك أن الراوية قد يكون ابن الشاعر ، أو أحد أقربائه ، وقد يكون غريبا عن القبيلة كلها ، فالحطيئة عبسي من مضر ، وهدبة عذرى من حمير "[3]

---

[1] ١٤١ : السابق .

[2] ٨/٩١ : الأغاني .

[3] ١٧ : دراسة في مصادر الأدب . الدكتور الطاهر أحمد مكي .

وتدل الأخبار المروية ، على كثرة ما كان يحفظ الرواة وقوة ذاكرتهم ، يروي عن الأصمعي قوله : " احفظ ست عشرة ألف أرجوزة " ويقول حماد الراوية للخليفة الوليد بن زيد : " أروي سبعمائة قصيدة أول كل واحدة منها (بانت سعاد) وكان أبو بكر الأنباري يحفظ فيما ذكر ثلاثمائة ألف بيت شاهدة في القرآن .[1]

الشعر والرواة :

كان للشعراء الذين يروون الشعر عن آخرين دور بارز وأصيل في نقل ما وصل إلينا منه عن طريق روايتهم الشفهية له وذلك من فرد إلى فرد ومن جيل إلى جيل بالصورة التي نراها اليوم ، ونص صاحب الأغاني على سلسلة من هؤلاء الشعراء الرواة الذين يأخذ بعضهم عن بعض [2].

وأهم ما يلاحظ على الشعراء الرواة أنهم كانوا من قبائل مختلفة في شرقي الجزيرة وغربيها ، وكان شعراء القبيلة الواحدة يروي خلفهم عن سلفهم ، ونص القدماء على ذلك في غير شاعر ، وظهور شاعر كبير في القبيلة مدعاة للفخر ، والاحتفاظ بآثاره شيء تفرضه العصبية ، وضياعها أمر يمس الشرف ، وأصدقاء الشاعر يستظهرون بعضا من قصائده ، أما الراوية المحترف فيحفظ كل شعر الشاعر في

---

[1] صـ ٢٩٩ : دراسات في أدب ونصوص العصر الجاهلي .

[2] ١٤٢ : العصر الجاهلي .

جميع موضوعاته ما بلغ فيه الشاعر القمة أو قصر عن الإجادة [١].

وكان حرص القبيلة في الحفاظ على شعر شعرائها يتمثل في أن شعراءها يروون شعر بعضهم بعضا ، فقالوا: إن الأعشى كان راوية لخاله المسيب بن علس وكان يأخذ منه ، وقالوا إن أبا ذؤيب الهذلي كان راوية لساعدة بن جؤبة الهذلي [٢]، وكان طرفة يروي للمرقش الأصغر ويأخذ عنه ، والمرقش الأصغر يروي عن عمه المرقش الأكبر ويحتذي شعره ، كما كان طرفة يروي عن خاله المتلمس ، وقد لا تكون القبيلة الجامعة الواصلة ، فقد يجمع بين الشعراء سلوك في الحياة كالصعاليك أو الفرسان ، فيروي بعضهم عن بعض ، ويأخذ منه كما عند تأبط شرا والشنفري ، أو عند أبي دؤاد الإيادي وزيد الخيل [٣].

لقد حافظت القرابة بين أفراد القبيلة على عناية أبنائها برواية شعرائها ، وكان كثير من أبناء الشاعر رواة لشعر آبائهم ،وفي كتب الأدب روايات كثيرة تروى عن معمرين من أبناء شعراء الجاهلية الذين أدركوا خلفاء بني أمية واستنشاد هؤلاء الخلفاء لهم وسؤالهم عن شعر آبائهم في الجاهلية ، من ذلك استنشاد معاوية لشعبة بن

---

[١] ١٧ : دراسة في مصادر الأدب .

[٢] ٢/٦٣٥ : الشعر والشعراء لابن قتيبة .

[٣] ١٤٢ : العصر الجاهلي .

غريض شعر أبيه السموءل في رثاء نفسه[١] ،واستنشاد عبد الملك بن مروان إبراهيم بن متمم بن نويرة بعض مراثي أبيه في عمه [٢]، وكذلك إستنشاد معاوية ابن أبي محجن الثقفي شعر أبيه [٣]، ويروي أخذ العلماء بعض شعر تميم بن أبي بن مقبل عن ابنته أم شريك وروايتهم عنها تفسيرها لكلمات في شعر أبيها[٤] ، وروى العلماء شعرا لعمرو بن العاص أخذوه عن ابن ابن ابنه وهو عمرو بن شعيب بن عبد الله بن عمرو يذكر لجده [٥].

ولم يكن الشعراء وحدهم الذين يهتمون برواية هذا الشعر فقد كان يشركهم في ذلك الاهتمام أفراد القبيلة جميعهم ، لأنه يسجل مناقب قومهم وانتصاراتهم في حروبهم ، كما يسجل مثالب أعدائهم وإلى ذلك أشار بعض بني بكر معيرا "تغلب" لكثرة تردادها لقصيدة واحدة ، هي معلقة عمرو بن كلثوم ، وكأن ليس لها شعر سواها يقول [٦]:

---

[١] ١٣٠ ـــ ١٣١ : الأغاني للأصفهاني .

[٢] ٢٤٠ : الموشح للمرزباني .

[٣] ٣/١٣١ : معجم ما استعجم للبكري .

[٤] ٩/٥٨ : الأغاني .

[٥] ٣٠/١٠٠ : الأغاني .

[٦] ١١/٥٤ : الأغاني .

ألهى بني تغلب عن كل مكرمة قصيدة قالها عمرو بن كلثوم
يروونها أبدا مذ كـان أولـهم ياللرجال لشعر غير مسـئـوم

وإلى جانب أبناء القبيلة كان هناك كثير من أفراد القبائل الأخرى ، يشتركون معهم في إشاعة الشعر ، وكان بينهم عدد كبير من الحفظة الذين يتناقلون الشعر وينشدونه في محافلهم ومجالسهم وأسواقهم إذ لم يكن لهم شاغل سواه [1]، وأورد ابن سلام في طبقاته قول عمر بن الخطاب : " كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه " ، ثم عقب عليه بقوله : " فجاء الإسلام فتشاغلت عنه العرب وتشاغلوا بالجهاد وغزو الفرس والروم ، ولهت عن الشعر وروايته[2]

إذن كان الشعر علمهم وكل حياتهم ، ولما جاء الإسلام انكبوا على تلاوة القرآن الكريم ، ولكن لم ينسوا شعرهم أبدا حتى منذ بدء الدعوة الإسلامية[3] . فقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم ،يستحث حسان بن ثابت وغيره من شعراء الأنصار على هجاء قريش والرد على شعرائها ، وكان كثيرا ما يستنشد الصحابة الشعر حتى شعر أعدائه مثل أمية بن أبي الصلت ، ويقول الشريد بن سويد الثقفي استنشدني الرسول عليه السلام شعر أمية بن أبي الصلت

---

[1] ١٤٤ : العصر الجاهلي .
[2] ١٩ : دراسة في مصادر الأدب .
[3] ١٤٤ : العصر الجاهلي .

فأنشدته ، فأخذ النبي عليه السلام يقول : هيه هيه حتى أنشدته مائة قافية [١].

وكان أبو بكر الصديق نسابة راوية للشعر الجاهلي يتمثل به في مواقفه ، ويستنشد الشعراء ما قالوه في جاهليتهم ، وإسلامهم فقد استنشد يوما معد يكرب وقال[٢] : أما إنك أول من استنشدته في الإسلام " ، وهذا يدل على ما كان عليه سيدنا أبو بكر الصديق قبل الإسلام ، فقد كان عالما من علماء النسب والأخبار ، بل لقد كان أعلم قريش بأنساب العرب ، حتى إن حسانا لما أراد أن يهجو قريشا ، قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم ، استعن بأبي بكر ، فإنه علامة قريش بأنساب العرب [٣].

وكذلك كان عمر يحفظ للشعراء ويفاضل بينهم ، ويقول : أشعر الشعراء الذي يقول : (ومن ، ومن) يقصد زهيرا ، ويقول لابن عباس : ألا تنشدني لشاعر الشعراء زهير ، قال : يا أمير المؤمنين لم صيرته شاعر الشعراء قال : لأنه لا يعاظل في الكلام ، ولا يتتبع حوشى الكلام ، ولا يمدح أحدا بغير ما فيه[٤] . وكان يستنشد من يحضر مجلسه في حله ، أو من يرافقه في سفره ، وكان ذواقة بصيرا

---

[١] ١٩٨ : الأدب العربي بين الجاهلية والإسلام .

[٢] ٦/٥٧ : الطبقات الكبرى / لابن سعد .

[٣] ٢٠٩ : مصادر الشعر الجاهلي ناصر الدين الأسد .

[٤] ٥٢ : جمهرة أشعار العرب لأبي زيد القرشي.

بالشعر ناقدا له ، وكان هو نفسه يحفظ كثيرا من الشعر الجاهلي ، يقول محمد بن سلام الجمحي عن بعض أشياخه[1] ، " كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه لا يكاد يعرض له أمر إلا أنشد فيه بيت شعر وقال لبعض ولد هرم : أنشدني بعض مدح زهير أباك ، فأنشده فقال عمر : إنه كان ليحسن فيكم المدح . قال : ونحن والله إن كنا لنحسن له العطية قال : قد ذهب ما أعطيتموه ، وبقى ما أعطاكم " وكان هذا شأن الصحابة جميعا ، فكانوا كثيرا ما يتناشدون الأشعار ، ويقصون بعض الأخبار عن جاهليتهم ، ومعنى ذلك أن رواية الشعر الجاهلي كانت مستمرة في صدر الإسلام ، وأخذت تظهر عوامل تشد من أزرها ، وتقوي من شأنها ، منها الحاجة الشديدة لمعرفة الأنساب بعد تدوين الخليفة عمر بن الخطاب للدواوين للاستعانة بها في رواتب الجند الفاتحين ، ومعرفة مراكز القبائل بالمدن الجديدة التي خططوها ، ولاعتماد العرب على النسابين في معرفة أصولهم ، كذلك اشتعال العصبيات بعد الحرب التي دارت بين علي كرم الله وجهه ومعاوية ، فأخذت كل قبيلة تتغنى برواية شعرها الجاهلي الذي يصور مناقبها ومثالب خصومها ، ويتناقله أبناؤها ، ثم إن الدولة الأموية وهي عربية النـــزعة قد عملت على حفظ هذا التراث بما كانت تروي منه ، وكانوا كثيرا ما يسألون وفود القبائل التي تفد عليهم عن بعض شعرائها ، ويستفسرون عما يشكل عليهم منه بالبريد في

---

[3] ١/٢٤١ : البيان والتبيين .

الآفاق ، أو يستقدمون العلماء لتأديب أبنائهم أو للمسامرة . كذلك كان للمسجد الجامع دور هام ، منذ وقت مبكر في صدر الإسلام ، إذ كان يجلس القصاص فيه للعظة ، ويستشهدون بالأشعار الجاهلية بما يتفق مع وعظهم ، وأخذ يظهر بجانب أولئك جماعة تعنى بأخبار العرب الماجنين وما يجري على ألسنة شعرائهم ، وفي أثناء ذلك كان الشعراء الإسلاميون أنفسهم يعنون عناية شديدة برواية الشعر القديم ومن غير شك كان ذلك أكبر عون على حفظ الشعر الجاهلي ، فقد حملته القبائل طوال القرنين الأول والثاني حتى أدوه إلى العلماء الذين عنوا بتدوينه " [1].

وإذا كنا لاحظنا أن الرواة الموصوفين بهذا الاسم في الجاهلية كانوا عادة من الشعراء ، فإننا نلاحظ في العصر الإسلامي نشوء طائفة من الرواة لم يكونوا ممن يحسنون نظم الشعر ، فهم لا يروونه لغرض تعلمه ، وإنما إلى العلماء الذين عنوا بتدوينه [2].

ويمكن الإشارة — بإيجاز — إلى بعض الأسباب والعوامل المتعددة التي ساعدت على حفظ الشعر الجاهلي وبقائه وحمله بالرواية الشفوية حتى عصر التدوين فيما يلي [3]:

---

[1] ١٤٥— ١٤٦ : العصر الجاهلي .

[2] ١٤٦ : السابق .

[3] ٣٠٠ — ٣١١ : دراسات في أدب العصر الجاهلي .

١ـــ المجالس الأدبية : وتتمثل في سوق عكاظ ، وفي المناسبات التي كانت تستدعي هذه المجالس ، وفي سمر أبناء القبيلة حول مضارب الخيام بإنشاد الشعر وروايته ، ثم نقل ما يسمع إلى مجالس أخرى مما يكسب هذا الشعر صفة التواصل والانتقال بالرواية من زمن إلى آخر .

٢ـــ الباعث الديني الذي ظهر في حاجة المفسرين للشعر لفهم ما أستغرق عليهم من ألفاظ القرآن الكريم وعباراته ، ويروي عن ابن عباس : " إذا أشكل عليكم الشيء من القرآن ، فأرجعوا إلى الشعر فإنه ديوان العرب " وذكروا أن علوم الأدب كلها وسيلة لفهم كتاب الله .

٣ـــ الغيرة على اللغة العربية ، والاندفاع للحفاظ عليها أديا إلى جمع تراثها وإبقائه محفوظا خاصة بعد أن تمت الفتوح الإسلامية ، وقتل كثير من رواة الأدب ، وضاع كثير من محفوظ الشعر الجاهلي ، وفي ذلك يقول ابن سلام : " كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه ، فجاء الإسلام ، فتشاغلت عنه العرب ، وتشاغلوا بالجهاد وغزو الفرس والروم ، ولهت عن الشعر وروايته ، فلما كثر الإسلام ، وجاءت الفتوح ، واطمأنت العرب بالأمصار ، راجعوا رواية الشعر ، فلم يؤولوا إلى ديوان مدون ولا كتاب مكتوب ،

ألفوا ذلك ، وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل ، فحفظوا أقل ذلك ، وذهب عليهم كثير منه " . [١]

٤ـ ما حدث بين سيدنا علي كرم الله وجهه من ناحية ومعاوية بن أبي سفيان من ناحية أخرى من حرب ، نتج عنها تشرذم المسلمين إلى فريقين إن لم يكونوا فرقا ، وقد أحيت هذه الفتنة العصبيات الجاهلية القديمة ، وكان للشعر دوره الهام في إذكائها ، واسترجاع ما قيل من شعر ، وترداده مما ساعد على حفظ الشعر الجاهلي وروايته.

٥ـ كان للمجتمع الإسلامي بعد البعثة النبوية أثر كبير في رواية الشعر الجاهلي بدءا من سماع الرسول عليه السلام ممن ينشدونه ، ثم رواية الصحابة له كأبي بكر الصديق رضى الله عنه ، وتمثلهم بأبيات الجاهليين واستنشادهم لحفاظه وللشعراء ، وكذلك في عصر بني أمية فقد اهتم الخلفاء برواية الشعر والشعراء والحفاظ على اللغة العربية فصيحة كما توارثوها ، وعمدوا إلى بعث أبنائهم إلى البادية ليأخذوا العربية من مصادرها .

٦ـ اهتمام القبائل العربية برواية شعر شعرائها شفاهة ، يأخذه الخلف عن السلف ، فتتناقله الأجيال تباعا ، وقد حافظت القرابة للشعراء في روايته والتواصل به .

---

[١] طبقات فحول الشعراء صـ ١٠ : دار النهضة العربية ، بيروت .

نتج عن كل ما سبق ظهور طبقة من الرواة انقطعت في القرنين الأول والثاني الهجريين برواية الشعر وحفظه ، والسعي إلى جمعه من مصادره الأصلية في البادية حيث يقيم القبائل العربية وحيث يعيش المعمرون من أبنائها حفظة الشعر القديم ساعد في ذلك اهتمام الخلفاء والأمراء والولاة والحكام بالأدب ورواته وإثابتهم عليها .حتى كدنا نعرف طبقة الرواة المحترفين من كوفيين وبصريين من هؤلاء الرواة : محمد بن سائب الكلبي م١٤٦ هـ ومحمد بن اسحق م ١٥٠هـ ، وأبو عمرو بن العلاء م سنة ١٥٤هـ ، وحماد الراوية م ١٥٦هـ والمفضل الضبي م ١٧٠هـ ، وخلف الأحمر م ١٤٩هـ ، وأبو عبيدة معمر بن المثنى المتوفي ٢١١هـ وأبو عمرو الشيباني ، والأصمعي م ٢١٥هـ ، وابن الأعرابي م ٢٣١هـ ، وابن سلام الجمحي م ٢٣٢هـ ، وابن السكيت ٢٤٥هـ ، وابن قتيبة م ٢٧٠هـ ، والمبرد ٢٨٥هـ ، وثعلب ٢٩١هـ ، وابن الانباري م ٣٢٨هـ ، والأصفهاني ٣٥٧هـ . وظلت صدور هؤلاء الرواة تنطوي على أروع وأجمل ما أثر للعرب قبل الإسلام من أشعار .

وكان هؤلاء الرواة يتفاوتون فيما بينهم صدقا وأمانة ودقة تبعا لتكوينهم الطبقي والعنصري والثقافي ، وصمودهم أمام ضغوط البيئة حولهم سياسية واجتماعية وعلمية ، أو استجابتهم لها حتى إذا

استكملت الحياة الثقافية مقوماتها في البصرة والكوفة تميزت كل منهما بطابع أثر عنها وعرفت به [١].

واشتهر بعض الرواة بانتحال الشعر وإضافته إلى الجاهليين مثل حماد الراوية وخلف الأحمر ، بينما كان هناك رواة مصلحون ، وابن سلام يقسم الرواة الوضاعين إلى فريقين : فريق ينظم الشعر وينحله الجاهليين مع علم بالشعر وإجادة لنظمه ، ويمثل هذا الطريق حماد وخلف الأحمر ، والطائفة الثانية لم تكن تحسن النظم ولا الاحتذاء على أمثلة الشعر الجاهلي ، ولكنها كانت تحمل كل غثاء منه وكل زيف ومنحول وهم رواة القصص والأخبار والسير مثل ابن أسحق راوي السيرة النبوية إذ كانت تضع له الأشعار ويدخلها في سيرته دون تحرز ، منطقا بالشعر العربي من لم ينطقوه من قوم عاد وثمود وغيرهم من الأمم البائدة [٢]. على كثرة ما فيه أيضا من الشعر الصحيح الثابت عند العلماء والرواة ، وقد استدرك عليه ابن هشام واسقط كثيرا ــ مما حشا به سيرته من شعر منحول ــ وبين زيفه ، وذكر نقد العلماء له وقد نبه ابن اسحق نفسه على ذلك ، واعتذر عن إيراد مثل هذا الشعر المنحول بقوله : " لا علم لي بالشعر أوتي به

---

[١] ٢١ : دراسة في مصادر الأدب .

[٢] ٣٠٦ ــ ٣٠٧ : دراسات في أدب ونصوص العصر الجاهلي .

فأحمله " [١]، وقد عقبا ابن سلام على ذلك بقوله :" ولم يكن له ذلك عذرا " ، فكتب في السيرة أشعار الرجال الذين لم يقولوا شعرا قط ، وأشعار النساء فضلا عن الرجال ، ثم جاوز ذلك إلى عاد وثمود ، فكتب لهم أشعارا كثيرة وليس بشعر ، إنما هو كلام مؤلف معقود بقواف ، أفلا يرجع إلى نفسه فيقول : من حمل هذا الشعر ؟ ، ومن أداه منذ آلاف السنين ، والله تبارك وتعالى يقول : " فقطع دابر القوم الذين ظلموا " أي لا بقية لهم وقال أيضا سبحانه وتعالى : " وأنه أهلك عادا الأولى وثمود فما أبقى " ، وقال في عاد : " فهل ترى لهم من باقية " .

ونقد ابن النديم ابن إسحق أيضا فقال : " ويقال : كان يعمل له الأشعار ، ويؤتى بها ويسأل أن يدخلها في كتاب السيرة فيفعل ، فضمن كتابه من الأشعار ما صار به فضيحة عند رواة الشعر " [٢].

وقد سلك الرواة لجمع اللغة والأدب طريقين ، تمثل الطريق الأول في اتجاههم بالرحلة إلى البادية والأخذ عن العرب الخلص ، وقد اشتهر بهذه الرحلة إلى البادية يونس بن حبيب الضبي وخلف الأحمر وأبو عمرو بن العلاء وأبو زيد الأنصاري والأصمعي

---

[١] ٩ : طبقات الشعر .

[٢] ١٣٦ : الفهرست ، ٢٤٧ ـ ٢٤٨ : مصادر الشعر .

والكسائي . ويتمثل المصدر الثاني لجمع اللغة والأدب في الجماعات الكبيرة من أعراب البادية الذين كانوا يفدون على إقليم العراق في القرن الثاني ليرووا لسكان المدن أخبار البادية وأشعارها ، وقد وفر هؤلاء الأعراب بما حملوه من شعر ولغة على علماء اللغة في المدن عناء الرحلة إلى البادية والضرب في الفيافي .

وتذكر المراجع القديمة أسماء كثيرة من الأعراب الذين كانوا يفدون إلى مدن العراق حاملين معهم إلى الرواة وجماعي اللغة والأدب ما يشبع رغباتهم في الجمع والتلقي ، ومنهم أبو زياد الكلابي وأبو محلم الشيباني وأبو البيداء الرياحي،وأبو ضمضم، وأبو مسحل الأعرابي وأبو مالك عمرو بن كركرة وأبو سوار الغنوي وأبو الجاموس ثور بن زيد وأبو شبل العقيلي والبهدلي .

ويشهد القرن الثاني الهجري ازدهار الرواية الأدبية وانتقال كثير من العلماء بها مما أوجد بينهم تنافسا وصل في بعض الأحيان إلى حد العداء الشخصي ، كما أدى هذا التنافس إلى وجود مدرسة بالبصرة ومدرسة بالكوفة [1].

---

[1] ٣٠٩ : ٣١٠ : دراسات في أدب ونصوص العصر الجاهلي .

وكان تلاميذ كل مدرسة وعلماؤها يتعصبون لمدرستهم ولشيوخهم ، ويوثقون روايتهم ويجرحون شيوخ المدرسة الأخرى ، ويضعفون روايتهم ، ويتهمونهم بالوضع والنحل والكذب [١].

وكان على رأس مدرسة البصرة أبو عمرو بن العلاء وعلى رأس الثانية حماد الراوية ، وقد اتصف الكوفيون بأنهم أكثر جرأة وأكثر حرية وأنهم قد توسعوا في الأخذ عن مصادر أسقطها البصريون ، ومن هنا كثرت رواية الكوفيين ، فاتهمهم البصريون بالتزيد والوضع [٢]، على أساس هذا الخلاف بين المدرستين يرجع إلى المنهج الذي اتبعته كل مدرسة في الرواية ، فقد عرف عن البصريين التشدد والتزام القياس وجعل ما سواه خطأ ، أما الكوفيون فقد توسعوا في الرواية والأخذ عن العرب واحترام كل ما جاء عنهم حتى لو كان خارجا على القواعد العامة ، وكان البصريون أكثر اعتدادا بأنفسهم وأكثر ثقة بما يروون ، وأشد ارتيابا بما يرويه الكوفيون ، لذلك كان الكوفي يأخذ عن البصري ، ولكن البصري كان يتحرج في الأخذ عن الكوفي[٣] . قال ابن سلام في حديثه عن الأسود بن يعفر بعد أن أورد قصيدة له[٤] : " وله شعر كثير جيد ولا كهذه ،

---

[١] ٢٥٢ : مصادر الشعر الجاهلي .

[٢] ٤٣٦ : السابق .

[٣] ٣١٠ ـ ٣١١ : دراسات .

[٤] ١٢٣ : طبقات الشعر .

وذكر بعض أصحابنا أنه سمع المفضل يقول له : له ثلاثون ومئة قصيدة ، ونحن لا نعرف له ذلك ولا قريبا منه ، وقد علمت أن أهل الكوفة يروون له أكثر مما يروي ويتجوزون في ذلك بأكثر من تجوزنا" .

وقال أبو الطيب اللغوي: " والشعر بالكوفة أكثر وأجمع منه بالبصرة ولكن أكثره مصنوع ومنسوب إلى من لم يقله وذلك بين في دواوينهم " ، وقال الثوري : " اتكل أهل الكوفة على حماد وجناد ففسرت روايتهم من رجلين ، كانا يرويان ولا يدريان ، كثرت رواياتهما وقل علمهما " . [1]

وكان من شأن البصريين أنهم لا يقبلون من النصوص إلا ما أجمعت عليه لهجات العرب ، وأما الشاذ فقد وقفوا منه موقفين ، فإذا كان صحيحا فإنه يحفظ ولا يقاس عليه ، وإذا أحاط به الشك أو كان غير ثابت فإنهم يرفضونه ، بل جرءوا على أكثر من ذلك فخطأوا بعض العرب في أقوالهم إذا لم تجر على القواعد كما فعل ابن أبي إسحق الحضرمي مع الفرزدق ، وهم على أساس النصوص المجمع عليها يقيمون قواعدهم ، ويقيسون عليها ، أما الشاذ فلا تأثير له على قواعدهم العامة [2].

---

[1] ١١٩ : مراتب النحويين .

[2] ٣١٠ ــ ٣١١ : دراسات في أدب ونصوص العصر الجاهلي .

أما الكوفيون فلم يسيروا في هذا الاتجاه ورأوا احترام كل ما جاء عن العرب حتى ولو كان شاذا ، بل أباحوا القياس عليه حتى ولو كان هذا يخالف القواعد العامة .

ومن أشهر علماء المدرسة البصرية من الرواة بعد عمرو بن العلاء (ت : ١٥٤ هـ) الخليل بن أحمد (ت : ١٦٠ أو ١٧٦) ويونس ابن حبيب (ت: ١٨٥هـ) ومؤرج بن عمرو السدوسي (١٩٥هـ) . ومن الجيل الثاني : أبو محمد اليزيدي (ت: ٢٠٧ أو ٢١٠ هـ) وأبو زيد الأنصاري (ت ٢١٥ هـ) والأصمعي (ت : ٢١٥هـ) وأبو عمرو الجرحي (ت ٢٢٥هـ) وأبو حاتم السحبستاني (ت٢٥٠ أو ٢٥٥هـ) والرياشي (ت ٢٥٧هـ) والتوزي (ت ٢٣٨هـ) .

أما علماء مدرسة الكوفة ورواتها فمن أشهرهم بعد حماد الراوية الكسائي (ت ١٨٢ أو ١٨٣ أو ١٨٩ هـ) ثم الفراء (ت ٢٠٧هـ) وأبو عمرو الشيباني (ت٢٠٦ أو ٢١٠ هـ) وابن الأعرابي (ت٢٣١ هـ) وابن السكيت (ت ٢٤٣ أو ٢٤٦ أو ٢٤٩هـ) وثعلب (ت ٢٩١هـ) والمفضل الضبي .

وكل ما تقدم يدل أوضح الدلالة على أن رواة لا يحصيهم العد حملوا الشعر الجاهلي إلى عصور التدوين ، ويخيل إلى الإنسان أنه لم

يبق عربي في العصر الإسلامي وما وليه من أوائل العصر العباسي إلا وهو يروي الشعر الجاهلي إن هو تحدث أو وقف خطيبا ، وقد حافظت القبائل عليه ، كما حافظ كثير من الأفراد وخاصة الشعراء والرواة ، وبذلك أسلموه للأجيال التالية ، وإن كان قد شابه شيء من الانتحال والوضع ، فإنه مما لا شك فيه أن كثيرا منه سقط في أثناء اجتيازه هذا الطريق الزمني الطويل كما قال ابن سلام : " لما كثر الإسلام وجاءت الفتوح ، واطمأنت العرب بالأمصار ، راجعوا رواية الشعر ، فلم يؤولوا إلى ديوان مدون ولا كتاب مكتوب وألفوا ذلك ، وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل فحفظوا أقل ذلك وذهب عليهم منه كثير "[1] .

تدوين الشعر :

عندما أتجه العرب إلى تدوين الشعر وحفظ التراث القديم خشية الضياع وخوف التبدد ، أخذوا يعودون إلى الذاكرة ويستملونها ما استوعبت من أشعار ، يقول ابن سلام في كتابه طبقات الشعراء . " .... قد كان عند النعمان بن المنذر ديوان فيه أشعار الفحول وما مدح به هو وأهل بيته ، فصار ذلك إلى بني مروان أوصار منه "[2] .

---

[1] ٥٥ : طبقات الشعراء ، ١٤٧-١٤٨ : تاريخ الأدب العربي العصر الجاهلي

[2] ٢٢ : طبقات الشعراء .

ولعل أقدم إشارة إلى التدوين ما رواه أصحاب الأخبار عن حماد في تعلقه بالشعر من أنه نقب ليلة على رجل ، فأخذ ما عنده وكان فيما أخذه جزء من شعر الأنصار ! ويزعم حماد أن الوليد بن يزيد أرسل في طلبه ، فقال في نفسه : " لا يسألني إلا عن طرفيه قريش وثقيف ، فنظرت في كتابي قريش وثقيف " [١]، ويروى عن ثعلب أن الوليد بن يزيد جمع ديوان العرب وأشعارها وانسابها ولغاتها ، وأنه طلب لذلك من حماد وجناد الكوفيين ما عندهما من هذا الديوان ثم رد إليهما ما أخذه منهما " [٢].

وقد كان آخر كتب حماد المشتملة على شعر الجاهلية معروفا مشهورا ، حتى أن الوليد بن يزيد بن عبد الملك ــ حين أراد أن يجمع ديوان العرب وأشعارها وأخبارها وأنسابها ولغاتها ــ استعار من حماد ومن جناد بن واصل الكوفي ما عندهما من الكتب والدواوين فدونها عنده ، ثم رد إليهما كتبهما "[٣] .

وان صحت هذه الأخبار كانت دليلا على أنه أخذت تظهر مع أوائل القرن الثاني مدونات تاريخية للقبائل لعلها هي التي أعدت فيما

---

[١] ٦/٩٤ : الأغاني .

[٢] ١٤٣ : الفهرست .

[٣] ١٣٤ : الفهرست .

بعد لتدوين الرواة أشعار كل منها على حدة بنفس الصورة التي نعرفها لديوان هذيل[1] .

ويلقانا بعد الوليد بن يزيد أبو عمرو بن العلاء المتوفى سنة ١٥٤هـ ، وقد بلغت عنايته بالشعر الجاهلي مبلغا كبيرا ، حتى قال الأصمعي[2]:

جلست إلى أبي عمرو بن العلاء عشر حجج ما سمعته يحتج ببيت إسلامي وقال أبو عمرو مرة : لقد كثر هذا الحديث وحسن حتى لقد هممت أن آمر فتياننا بروايته !! يعني شعر جرير والفرزدق وأشباههما .

وكان أبو عمرو يعتمد على الرواية ، ولكنه كان يقيد إلى جانبها كثيرا من الأشعار والأخبار ، حتى قالوا : إن كتبه ملأت بيتا له إلى قريب من السقف ، ثم تقرأ (تنسك) ، فأحرقها كلها ، يقول الجاحظ : فلما رجع بعد إلى علمه الأول لم يكن عنده إلا ما حفظه بقلبه ، وكانت عامة أخباره عن أعراب قد أدركوا الجاهلية[3].

---

(1) ١٥٩ : العصر الجاهلي .

(2) ١/٣٢١ : البيان والتبيين .

(3) ١/٣٢١ : السابق .

وقد كانت عناية عمرو بن العلاء بالكتابة والتدوين لا تقل عن عنايته بالحفظ والرواية فقد كان يرسل إلى الحارث بن خالد بن العاص ـــ الشاعر الغزل المشهور ـــ أخاه معاذ بن العلاء ومعه كتاب فيه مسائل يسأل عنها ، وكان كذلك يكتب إلى عكرمة بن خالد ـــ محدث جليل من وجوه التابعين ـــ يسأله كما يسأل أخاه ، وكان أبو عمرو يذهب إلى عمرو بن دينار ومعه كتابه ، فكان يقيد في كتابه مما يسمعه ما لم يكن فيه ، وقال شعبة : كنت أجتمع أنا وأبو عمرو بن العلاء عند أبي نوفل بن أبي عقرب فأسأله عن الحديث خاصة ، ويسأله أبو عمرو عن الشعر واللغة خاصة ، فلا أكتب شيئا مما يسأله عنه أبو عمرو ، ولا يكتب أبو عمرو شيئا مما اسأله أنا عنه .

أما حماد رأس المدرسة الكوفية فعلى ما يبدو كان يعني بالرواية أكثر من عنايته بالكتابة ، بل لعله لم يكن يعني بالكتابة ، وإنما كتب كتب عنه تلاميذه ، وقد ولد حماد بالكوفة عام ٩٥هـ ، وكان يتمتع بذاكرة قوية حافظة ، يستطيع استرجاع مئات القصائد المطولة من الشعر الجاهلي وأن يميز بينها . وينسبها إلى قائليها ، والمعلقات المعروفة من روايته ، وكان إلى جانب ذلك شاعرا ممتازا ، وروى له الأصمعي شيئا من شعره [1].

---

[1] ٢٦ : مصادر الأدب .

وكان حماد ــ كما سبق ــ يملي على تلاميذه ، يقول صاحب الفهرست : " لم ير لحماد كتاب ، وإنما روى عنه الناس ، وصنفت الكتب بعده " ، بينما حماد نفسه يقول :

" أرسل إلى يزيد ..... فنظرت في كتابي قريش وثقيف " .[1]

وقد كان أمر كتب حماد المشتملة على شعر الجاهلية معروفا مشهورا حتى إن الوليد بن يزيد بن عبد الملك ــ حين أراد أن يجمع ديوان العرب ، استعار من حماد ما عنده من الكتب والدواوين فدونها ، ثم رد إليه كتبه "[2] .

ويروى عن حماد أنه كان في أول أمره يتشطر ، ويصحب الصعاليك واللصوص ، فنقب ليلة على رجل ، فأخذ ماله وكان فيه جزء من شعر الأنصار ، فقرأه حماد ، فاستحلاه وحفظه ، ثم طلب الأدب والشعر وأيام الناس ولغات العرب بعد ذلك وترك ما كان عليه ، فبلغ في العلم ما بلغ.وقد رأى أبو حاتم السجستاني بعض كتب حماد في الشعر الجاهلي وكان يرجع إليها ، ويثبت ما يجده فيها زائدا على ما جمع من الشعر ، وإن كان نص على أن هذه الزيادات هي من الشعر

---

[1] ٩٤ / ٦ : الأغاني .

[2] ٩٤/٦ : الأغاني .

المصنوع [(١)].

ويذهـــب الدكـــتور شـــوقي ضيف إلى ما يراه ابن النديم في الفهرست " أن حمادا لم يدون ،بل أملى ما روى على تلاميذه فدونوه

وغـــير أولئك ممن نظروا في الكتب ، وأسهموا في التدوين ابن الأعـــرابي (١٥٠ ـــ ٢٣١هـــ) ، فقد كان كثير العكوف عليها والمدارســـة لها ، والنظر فيها والأخذ منها ، أما الأصمعي (١٢٣ ـــ ٢١٦ هـــ) فقد قرأ بعض دواوين الشعر الجاهلي على شيوخه قال : قرأت شعر الشنفري على الشافعي . بمكة ، وقال أيضا : قرأت على أبي عمرو بن العلاء شعر النابغة الذبياني ، وقال أبو حاتم السجستاني قرأ الأصمعي على أبي عمرو بن العلاء شعر الحطيئة ، وكذلك كان أبـــو عبـــيدة (١١٤ ـــ ٢١٠هـــ) ، وأبو حاتم السجستاني[(٢)] يتدارســـان الشعر الجاهلي في كتب ، قال أبو حاتم : جئت أبا عبيدة يوما ومعي شعر عروة بن الورد ، فقال لي : ما معك ؟ ، فقلت شعر عروة ، قال : فارغ حمل شعر فقير ليقرأه على فقير [(٣)].

وأمـــا أبو عمرو الشيباني وقد بلغ ١١٠ أو ١١٨ سنة ، فقد كان كذلك يكتب الشعر والأخبار ، ويأخذها من الكتب ، قـــال

---

(١) ١٢٣ ـــ ١٢٦ : مختارات ابن الشجري .

(٢) ٢/٣٥٥ : المزهر للسيوطي.

(٣) ١/١٦١ : المزهر .

يعقـــوب بن السكيت [1]: " مات أبو عمرو الشيباني وله مائة وثمـــاني عشـــرة سنة ، وكان يكتب بيده إلى أن مات ، وكان ربما اســـتعار مني الكتاب وأنا إذ ذاك صبي آخذ عنه وأكتب من كتبه " وقد قرأ أبو عمرو الشيباني دواوين الشعراء على المفضل [2].

وما سبق يدلنا على أن هؤلاء العلماء الرواة قد وجدوا أمامهم دواويـــن الشـــعر الجاهـــلي مكـــتوبة قبل عهدهم ، وأنهم قرءوها وتدارسوها ، وأخذوا منها ، ومن هنا كانت الدواوين التي صنعوها أو المجموعـــات الـــتي اختاروها قائمة — في أساسها — على ما كان مدونا من قبل عصرهم ، خاصة إذا علمنا أن هناك آحادا من الناس كانوا يجيدون الكتابة منذ الجاهلية . يدل على ذلك النقوش المختلفة الـــتي وجـــدت منســـوبة لذلك العصر وتشهد بذلك مما شاع عند الشـــعراء من تشبيه الأطلال ورسوم الديار بالكتابة ونقوشها يقول المرقش الأكبر :

الدار قفـــر والرســـوم كـــما رقش في ظهـــر الأديم قلـــم

وقـــيل أنه كان يحسن الكتابة ، وأنه كتب على بعض الرحال قصيدة له حين وقع أسيرا في يد بعض العرب .

---

[1] الفهرست : ١٠٢

[2] مصادر الشعر : ١٨٣ — ١٧٣ ، وفيات الأعيان : ١/١٦٥

ويقول سلامة بن جندل :

لمن طلل مثل الكتاب المنمق   خلا عهده بين الصليب فمطرق

ولعله يقصد بالكتاب الصحيفة ، ويقول لبيد في مطلع معلقته :

عفت الديار محلها فمقامها   بمنى تأبـد غولهـا فرجامهـا

فمدافع الريان عرى رسمهـا   خلقا كما ضمن الوحي سلامها

وجلا السيول عن الطلول كأنها   زبر تجد متونهـا أقـلامهـا

فهو يشبه رسوم الديار بالوحى أو الكتابة في الحجارة الرقيقة ، ويقول :إن السيول جلت التراب عن الطلول حتى لكأنما آثار الديار كتـب طمست فأعيد بعضها على بعض ، وترك ما بين منها ، فهي تبين مختلفة .

ويقول الأخفش بن شهاب التخلبي :

لابنة حطان بن عوف منازل   كما رقش العنوان في الرق كاتب

ويدور هذا التشبيه كثيرا في أشعارهم ، مما يدل على أن كثيرين مـنهم كانوا يعرفون الكتابة ، بل إن فريقا منهم كما يقول الرواة ، كان يعرف الكتابة الفارسية ، على نحو ما حدثوا عن لقيط بن يعمر الإيـادي وعدى بن زيد العبادي ومما لا شك فيه أن الكتابة كانت شائعة في الحواضر وخاصة في مكة ، وفي السيرة النبوية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جعل فداء الأسرى القرشيين الكاتبين في بدر أن

يعــلم الأســير منهم عشرة من صبيان المسلمين القراءة والكتابة ، وكان من يكتبون بين يديه صلى الله عليه وسلم الوحي وفيما يعرض مــن أمــوره علــيه السلام وأمور المسلمين في عقودهم ومعاملاتهم كــثيرين فالكــتابة كانــت معروفة بل كانت شائعة في الجاهلية ، ورويت أخبار متفرقة تدل على أن بعض الشعراء استخدمها بلاغا شعريا لقومه في بعض ما حزبه من الأمر [1]، ولكن وجود الكتابة في الجاهلية ومعرفة بعض العرب لها لا يعني شيوعها وانتشارها بين سائر العرب الجاهليين ففي حين كان هناك نفر ذكرتهم المصادر أنهم كانوا يعــرفون الكتابة مثل عدى بن زيد العبادي ولقيط بن يعمر الأيادي وســويد بن صامت الأوسي ، وعبد الله بن رواحة وكعب بن مالك والربــيع بــن زياد العبسي ولبيد بن ربيعة كان السواد الأعظم من الــبدو سكان الصحراء الذين لم تتح لهم حياتهم الصعبة وسعيهم في طلب الرزق ، وانشغالهم الدائم فرصة تعلم القراءة والكتابة بالإضافة إلى صــعوبة الحصول على وسائل الكتابة من حجارة رقاق عريضة وسعف النخل والعظام والجلود ولذلك لم يفكر العرب في استخدامها في تدويــن شعرهم بشكل واسع منظم في القرن الأول الهجري[2] ، لا كمــا زعــم (كرنكــو)أن نظم الشعر في الجاهلية كان مرتبطا بالكــتابة وبمعرفتها بدليل اختلاف القراءات للفظة الواحدة ، وأيضا

---

[1] ١٣٨ ـــ ١٣٩ : تاريخ الأدب العربي (العصر الجاهلي) .

[2] ٣١٣: دراسات في نصوص .

فأن استخدام الشاعر لبعض القوافي النادرة يدل على أنه كان يلاحظ العين اكثر مما يلاحظ الأذن ، ويرد الدكتور شوقي ضيف على رأي (كرنكـــر) بقوله : " وأكبر الظن أن اختلاف القراءة ، إنما نشأ في عصر التدوين أو بعبارة أخرى في القرن الثاني للهجرة ، وأيضا فإن الشعر فن سمعي وليس فنا بصريا " . [1]

ولقــد حــرص الرواة الأوائل على تلقين الشعر شفاها حتى لا يــلحن فــيه ، ومــن أجل ذلك عمدوا إلى عدم تدوينه ، بل أملوا تلامــيذهم بعد روايته ، إلا أن يكون قد أخذها عن شيخ ، ولذلك ضــعف ابــن سلام رواية من يتداولون الشعر القديم من كتاب إلى كــتاب يقــول : " ليس لأحد أن يقبل من صحيفة ولا يروي عن صحفي " [2].

والــرواة التالون لهؤلاء الرواة المتقدمين هم الذين يرجع إليهم الفضــل في تدوين الشعر الجاهلي تدوينا منهجيا قائما على التوثيق والــتجريح ، وعلى رأسهم الأصمعي ، وقد حصر اهتمامه في جمع الشعر الجاهلي في دواوين ومجموعات صحيحة ، وكان هؤلاء الرواة المتوثــون لا يكتفون بالسماع من جلة الرواة السابقين ، بل كانوا يــرحلون إلى الصحراء العربية ليستوثقوا مما يروونه على نحو ما هو

---

[1] ٢٦ : العصر الجاهلي .

[2] ١٦٠ : السابق.

معروف عن الأصمعي نفسه وعن أبي عمرو الشيباني الذي يقال إنه أتى البادية ومعه دستيجتان من الحبر فما خرج حتى أفناهما فيما يكتب سماعه من العرب[1] .

وأصبح التدوين مهما لأن الاعتماد على الرواية في هذه المرحلة لم يعد كافيا فدونوا ما يسمعونه ، واحتفظوا به ، وقرأوه في مجالسهم ، ليـنقله الطـلاب عنهم ، وأخذت موجة (التدوين تتسع اتساعا كبيرا ، حتى أتم الخلف تدوين الشعر الجاهلي ، وأشهرهم في الكوفة أبـو عمرو الشيباني وابن الأعرابي وقد اشتهر الأول بأنه جمع أشعار نيف وثمانين قبيلة ، وكان كلما عمل شعر قبيلة منها وأخرجه للناس كتـب مصحفا وجعله في مسجد الكوفة ، وطبعي أن يخرج دواوين القبائل راو كوفي ، لأن بيوتات العرب وأشرافها كانوا في الكوفة ، ولم يكونـوا في البصرة ، وكانوا من أهم الأسباب التي أعانت على حفظ الشعر الجاهلي وروايته إلى أن دون في القرن الثاني ، ثم بدأ منذ القـرن الثالـث تأليف الكتب الجامعة ، مثل حماسة أبي تمام والبيان والتبـيين للجاحظ والكامل للمبرد وعيون الأخبار لابن قتيبة وكتابه الشـعر والشعراء ، ونمضي في القرن الرابع الهجري فيتكاثر التأليف والـتدوين عـلى نحـو ما هو معروف عن ابن دريد وابن الأنباري والقالي والمرزباني وعملهم مشتق من عمل رواة القرن الثالث ، على

---

(1) ٦٢ : نزهة الألباء .

أن مـــا يمـــيز تدوينهم هو عدم الاكتفاء غالبا بالراوي القريب الذي سمعـــوا منه ، بل يسلسلون الرواة حتى نصل إلى أبي عمرو بن العلاء أوَ إلى المفضـــل الضبي ، كما فعل أبو الفرج الأصفهاني في أغانيه ، وبذلك قدموا مادة الشعر الجاهلي بكل ما تحمله من أسباب ضعف أو ثقـــة وكـــان كـــثير منهم لا يزال يرحل إلى البادية صنيع الرواة المتقدمين [١].

ونـــتج عـــن جهـــد الرواة بعد التدوين أن اتجه علماء البصرة والكوفة إلى جمع ما بقى من الأشعار القديمة لمن بعدهم من الأجيال ، كانوا يجمعون حينا لشعراء معينين ، وحينا يختارون مجموعات شعرية لقـــبائل أو طـــبقات معينة وقد يجمعون مختارات أو منتجات نفيسة يرونها أحق بالتقديم وأولى بالاختيار والترجيح كما فعل حماد الراوية حين جمع سبع قصائد من عيون الشعر وسماها بالسموط أو المعلقات دلالـــة عـــلى نفاستها ونقاء جوهرها ، وهذه القصائد هي معلقات امـــرئ القـــيس وزهير وطرفة ولبيد وعمرو بن كلثوم ، وهذه هي القصـــائد المتفق على أنها المعلقات والسادسة والسابعة قصيدتا عنترة والحـــارث بن حلزة [٢]، وقد وضع المفضل مكانهما قصيدتي النابغة التي أولها :

---

[١] ١٦٣ : تاريخ الأدب العربي .

[٢] ١٧٦ : السابق .

عوجوا فحيوا لنعم دمنة الدار ماذا تحيون من نؤى وأحجار

وقصيدة الأعشى :

ما بكـــاء الكبير بالأطـــلال وسؤالي وما تـــرد ســـؤالي

وشعراء هذه المعلقات هم أشهر شعراء الجاهلية ما عدا الحارث بن حلزة .

ويقال إن السبب في ضم قصيدته إلى هذه المجموعة عصبية حماد لقبيلته "بكر بن وائل" إذ كان مولاها ، وكانت هذه القبيلة في عداء دائـــم مع قبيلة تغلب ، وقد شهرت قصيدة عمرو بن كلثوم شهرة واســـعة لتمجيدها قبيلة "تغلب" ، ولانتشار هذه القصيدة بين الناس وفي المجتمعات والأندية لم يسع "حماد" أن يعدل عن اختيارها ، ومن هنا وجد نفسه مضطرا لاختيار قصيدة أخرى إلى جانبها تشيد بمجد ســـادته وهم قبيلة بكر بن وائل ، فكانت قصيدة الحارث بن حلزة وهو شاعر قليل الشهرة فيما عدا ذلك [1].

وهـــناك من يعد هذه المختارات تسعا بإضافة القصيدتين اللتين اخـــتارهما المفضل الضبي إلى السبع التي اختارها حماد ، وهناك من يجعلها عشرا بإضافة قصيدة لعبيد بن الأبرص التي أولها :

أقفـــر من أهلـــه ملـــحوب فالـــقطبيـــات فالـــذنـــوب

---

[1] ٦٨ : تاريخ الأدب العربي . بروكلمان .

وإلى جانب مختارات "حماد" كانت هناك منتخبات أخرى لمعاصره ومنافسه المفضل بن محمد بن يعلي الضبي المتوفى سنة (١٦٤ أو ١٦٨ أو ١٧٠هـ) ، ولما أتخذه أبو جعفر المنصور مؤدبا لابنه محمد المهدي ، اختار لتأديبه مائة ، وستا وعشرين قصيدة أو مائة وثمان وعشرين وبينهما مقطوعات لسبعة وستين شاعرا ، منهم سبعة وأربعون شاعرا من شعراء الجاهلية ، وأربعة عشر شاعرا من المخضرمين ، وقد سميت هذه المختارات (بالمفضليات) نسبة إلى جامعها "المفضل" ، وقد نشرت بشرح ابن الأنباري .

ثم جاء الأصمعي المتوفى سنة ٢١٦هـ ، فأراد أن ينسخ على منوال "حماد والمفضل" ، ولكنه لم يجد إلا نخبة متواضعة تحوي اثنين وتسعين قصيدة ومقطوعة لواحد وسبعين شاعرا من شعراء الجاهلية ، وقد سميت بالأصمعيات ، وهي كسابقتها في الثقة وعلو درجتها .

على أن هذه الأصمعيات على الرغم من شهرة الأصمعي ، لم تلق من الذيوع والشهرة والقبول ما لقيته المفضليات ، لأنها كانت أقل اشتمالا على الغريب ، ولأن الأصمعي عمد فيها إلى اختصار الرواية .

وفي أواخر المائة الثالثة للهجرة جمع "أبو زيد القرشي" مجموعة سماها جمهرة أشعار العرب ، وهي مجموعة سباعية على سبعة أقسام وهي : ١ـ المعلقات السبع . ٢ـ المجمهرات . ٣ـ المنتقيات

(المختارات) . ٤ـ المذهبات . ٥ـ المراثي .٦ـ المشوبات، سميت بذلـــك لأنهـــا لمخضرمين شابهم الكفر والإسلام . ٧ـ الملحمات . وقد غلبت في جميع أقسامها قصائد الشعراء الجاهليين ما عدا القسم الأخير فإنه خاص بشعراء العصر الأموي .

وجمـــع هـــبة الله العلوي بن أحمد الشجري (ت ٥٤٢هـــ) مخـــتاراته (أشعار العرب) ، وهي كسابقتها ضعيفة السند ، ومنتقاة من شعر جاهلي وإسلامي،وهي موزعة على ثلاثة اقسام،اختار القسم الأول مـــن دواوين المتلمس،وطرفة،والشنفري،ولقيط الأيادي،كما أخـــذ القسم الثاني من دواوين زهير،وبشر بن أبي خازم،وعبيد ابن الأبرص،وكان القسم الثالث مختارات من ديوان الحطيئة .

وجمـــع محمد بن المبارك بن محمد بن ميمون (ت ٥٨٨هـــ) مجموعـــة تحتوي على ألف قصيدة وسماها "منتهى الطلب من أشعار العرب" .

كذلـــك ظهر نوع جديد من المنتخبات في أيام العباسيين ، هي القطع المأثورة التي استجادها المختارون ، إذ لم يعد أحد يطيق الصبر على قراءة القصائد الطوال ، وأقدمها ما جمعه أبو تمام وهو عائد من خراسان إلى العراق ، وقد سمي بالحماسة تسمية له بأول أبوابه .

وجمـــع "البحـــتري" مختارات سميت كذلك "الحماسة" ، وألف الأخـــوان أبو عثمان سعيد المتوفى حوالي ٣٥٠هـــ ، وأبو بكر محمد

المتوفى سنة ٣٨٠ هـ ابنا هاشم الخالدي وكانا من شعراء سيف الدولة الحمداني وأسمياه كتاب "الأشباه والنظائر" أو "حماسة الخالدين" .

وجمع الأدباء عدا المختارات ودواوين الشعر الخاصة كامرئ القيس وزهير وطرفة وعنترة وعلقمة دواوين للقبائل ، ولم يبق من ذلك إلا ديوان هذيل وأقل شعرائه جاهليون وأكثرهم إسلاميون .

وذكر صاحب الأغاني أن الأصمعي جمع أشعار "بني جعدة" وجمع كذلك أشعار الأنصار ، وجمع "السكرى" أشعار اليهود ، وأكمل هذه المجموعة محمد بن جعفر الطيالسي ، وصنف "أبو سعيد السكري" كتاب "أخبار اللصوص" ، جمع فيه أشعار لصوص البدو المشهورين ، وفي هذا الكتاب ديوان طهمان بن عمرو الكلابي الذي عاصر عبد الملك بن مروان [1].

ولم يقف الاهتمام بالشعر المروي عن الجاهلين والإسلاميين عند جمعه وتصنيفه ، إنما امتدت إليه أيدي العلماء والنقاد بالجمع ثم الشرح والنقد منذ القرن الثاني الهجري ، وكثرت الكتب في ذلك وتنوعت موضوعاتها وحوى كثير منها آراء النقاد الأوائل الذين جمعوا هذا الشعر ، ومن هذه الكتب كتب "طبقات الشعراء"، ومنها كتاب "طبقات فحول الشعراء" لابن سلام الجمحي ، وهو إلى جوار

---

[1] ٢٠١ ـــ ٢٠٤ : الأدب العربي بين الجاهلية والإسلام .

أهميـــته في نقد الشعر يعد مصدرا من مصادره ، وواحدا من الكتب الــتي حفظـــت أخبار الشعراء ، وقد اعتمد عليه المؤلفون في الشعر والأخبار من بعده ومنهم صاحب "الأغاني"، ثم كتب "معاني الشعر"، وهـــي كتب اهتم بها مبكرا الرواة والمعلمون لتفسير الغريب من لغة الشـــعر المروي وتقريبه من أفهام الناس ، ومن هذا الباب " كتاب المعاني الكبير " لابن قتيبة ، ويعد مصدرا من مصادر الشعر لما يحويه من الأبيات والمقطوعات والقصائد النادرة في موضوعات متنوعة .

ثم كتب السرقات ، وفيها تحدث مؤلفوها عن المعاني التي أخذها الشـــعراء بعضـــهم عـــن بعـــض ، واشتملت على شعراء جاهليين وإسلاميين وعباسيين كما في كتاب " سرقات الكميت من القرآن " الـــذي ألفـــه ابن كناسة المتوفى سنة ٢٠٧ هـــ ، وكتاب سرقات الشعراء الذي كتبه ابن السكيت م ٢٤٦ هـــ

ثم كتب أخبار الشعراء من مثل " الشعر والشعراء " لابن قتيبة ، وفـــيه يترجم لكثير من الشعراء الجاهليين والإسلاميين والعباسيين ويختـــار مـــن شـــعرهم مـــا يستحسنه ، إلى جانب كتب ألفت في موضـــوعات مخـــتلفة من الشعر كانت حافظة له من الضياع مثل : الأبـــيات الســـائرة ، ومـــا قـــيل في الحيات من الشعر والرجز ،

ومناقضــات الشــعراء ، وغريـــب الشعر ، وغير ذلك مما نجده في المؤلفات التي عنيت بالتراجم والفهرسة [1].

وعلى ما سبق فإن الشعر الجاهلي في رحلته الطويلة من الرواية إلى التدوين قد حمل شعلته دون أن تخبو على مر السنين طوائف من الرواة العلماء في ثلاث طبقات الطبقة الأولى : وقفوا جهودهم على روايـــة التراث العربي حين لم تكن الكتابة أداة حفظه الأولى يجمعون مـــا تبعـــثر من خبرة ، وينخلون ما اختلط من أمره ، واليهم تسند روايته ، وهم يذيعونه بين تلاميذهم في حلق الدرس ويجادلون حوله في مجالس السمر .

ثم كانت الطبقة الثانية : من أولئك التلاميذ الذين سمعوا عنهم ووعـــوا ما قالوه ، فحفظوا مأثورهم وقيدوه أحيانا ، فإذا اقتربنا من نهايـــة القرن لثاني الهجري وتجاوزنا إلى الثالث ظهرت الطبقة الثالثة وعـــلى رأسها ابن الكلبي (ت ٢٠٦هـ) ومعاصروه أو من جاءوا بعـــده ، وجعلوا همهم الأول ترتيب وإكمال وتدوين ما إنتهى إليهم مـــن علماء الطبقتين الأولى والثانية ، وبهم بدأ التخصص في الدرس يعرف طريقه ، وبهم أيضا بدأ التدوين ليصبح محور الثقافة وأداتها[2].

---

[1] ١٨ : الأدب العربي في الجاهلية .

[2] ٢٧ ــ٢٨ : دراسة في مصادر الأدب .

المعلقات

المعلقات : قصائد مختارة لبعض الشعراء الجاهلين ، بلغت من الشهرة مبلغا جعلها تميز عن سائر الشعر الجاهلي ، وتعد من أجوده وأدقه معنى وأوسعه خيالا ، وأبرعه أسلوبا ، وأسمحه لفظا ، وأعمقه فكرة ، وأحسنه قافية ، وأصدقه تصويرا للحياة التي كان يحياها العرب في جاهليتهم [١]، ولتفوقها على غيرها من القصائد ، اصطلح على تسميتها بالمعلقات والمذهبات والسموط والمجمهرات ، ومما قيل فيها ، لكلف العرب بالشعر وتفضيلهم له عمدوا : " إلى سبع قصائد تخيرها من الشعر القديم ، فكتبتها بماء الذهب في القباطي المدرجة ، وعلقتها في أستار الكعبة فمنه يقال : مذهبة امرئ القيس ، ومذهبة زهير ...... والمذهبات السبع ، وقد يقال لها المعلقات "[٢].

واختــلف في عــدد المعلقــات أو الطوال ، وعدد أصحابها ، فبعضهم يجعلها سبعا ، وبعضهم ثمانيا ، وبعضهم عشرا والمشهور أنها ســبع وأن أصحابها هم امرؤ القيس ،وزهير، وطرفة، ولبيد، وعمرو بن كلثوم ، والحارث بن حلزة .

وإذا كان الرأي الأشهر أن عدد المعلقات سبع فإن بعض الرواة كــان يرى فيما يضيفه من القصائد ملامح التقدم وسمات الترجيح

---

[١] ٣٢ : الأدب العربي من الجاهلية والإسلام .

[٢] ٦/١١٩ : العقد الفريد .

عـــلى بعض ما اعتبر ، فيضيفها من نفسه وليس أدل على ذلك من اختـــيار قصيدة " ألم تغتمض عيناك " وادعاء أنها من المعلقات وهي إســـلامية أنشدت للنبي صلى الله عليه وسلم ، وهي لا ينطبق عليها خبر التعليق بحال [1].

الآراء المختلفة حول تسميتها بالمعلقات :

يرى بعض المتقدمين من أدباء العرب أن هذه القصائد التي جمعها "حماد الراوية" سميت بالمعلقات لأنها علقت على الكعبة تعظيما لأمرها وتنبـــيها على خطرها ، ودلالة على مكانتها من الفضل ومترلتها من الرفعة وجلالة الشأن ونفاسة القيمة .

ولكن هذا الرأي في تفسير كلمة (المعلقات) لم يسلم من النقد والاعتراض سواء من القدامى أو المحدثين .

فمـــن الذين يرون أن التعليق كان واقعا وحقيقة ابن عبد ربه صـــاحب "العقـــد الفريد" يقول إن " الشعر ديوان خاصة العرب ، والمنظوم من كلامها ، والمقيد لأيامها ، والشاهد على حكامها ، حتى لقـــد بلـــغ من كلف العرب به ، وتفضيلها له أن عمدت إلى سبع قصائد تخيرتها من الشعر القديم فكتبتها بماء الذهب ..... وعلقتها في أستار الكعبة " [2].

---

[1] ٣٠٣ : الأدب العربي بين الجاهلية والإسلام .

[2] ٣/١١٦ : العقد الفريد .

ومما ذهب إليه ابن عبد ربه يتبين لنا أن الاسم الأليق بها عنده " هــو المذهــبات لأنها كتبت بماء الذهب في القباطي ، وأن تسميتها بالمعلقات إنما انتزعت من تعليقها على الكعبة .

وابــن رشــيق يقــول في العمدة : " وكانت المعلقات تسمى المذهبات وذلك لأنها اختيرت من سائر الشعر فكتبت في القباطي بماء الذهب وعلقت على الكعبة ، فلذلك يقال : مذهبة فلان إذا كانت أجود شعره " [1]. وبذلك يكون ابن رشيق ممن أيد موضوع التعليق ، وإن كــان يشير إلى الرأي الآخر القائل بعدم التعليق ، يقول بعد الفقــرة الســابقة : " ذكر ذلك غير واحد من العلماء ، وقيل كان الملــك إذا اســتجيدت قصيدة لشاعر قال علقوا لنا هذه لتكون في خزانته " [2].

ويذهب ابن خلدون مذهب من قالوا بتعليق القصائد في أستار الكعــبة يقول : " إن العرب كانوا يعلقون أشعارهم بأركان البيت الحرام موضع حجهم وبيت إبراهيم ، كما فعل امرؤ القيس والنابغة وزهــير ،وعنترة ،وطرفة ،وعلقمة ،والأعشى ،وغيرهم من أصحاب المعلقــات السبع ، فإنه إنما يتوصل إلى تعليق الشعر بها من له قدرة

---

[1] ١/٦٩ : العمدة .

[2] ١/١٦١ : العمدة .

عـــلى ذلك بقومه وعصبيته ومكانه في "مضر" على ما قيل في سبب تسميتها بالمعلقات " [1].

فابن خلدون يرى أنها سميت بذلك لتعليقها بأركان البيت الحرام ، وإن كـــان يبدو من عبارته أن الذي علق أكثر من هذه السبعة ، ولعلـــه يـــرى أن هـــذه السبعة أنفس وأروع ما علق وإن كان ابن خلدون يربط تعليق القصيدة في الكعبة بما للشاعر من عصبية ومكانة ، فإن أغلب الظن أن التعليق كان يعتمد على قوة القصيدة ومكانة الشاعر الأدبية لا على حمية وعصبية .

ويـــرى البغدادي صاحب "خزانة الأدب" ، أنها سميت معلقات لتعليقها على الكعبة يقول : " كان العرب في جاهليتهم يقول الرجل مـــنهم الشعر فلا يعبأ به ولا ينشده أحد ، حتى يأتي مكة في موسم الحج فيعرضه على أندية قريش فإن استحسنوه روي ، وكان فخرا لقائلـــه ، وعلـــق عـــلى ركـــن من أركان الكعبة حتى ينظر إليه ، وإن لم يستحســـنوه طـــرح وذهب فيما يذهب " قال أبو عمرو بن العلاء (ت ١٥٤هـــ) ، وكانت العرب تجتمع في كل عام وكانت تعرض أشعارها على هذا الحي من قريش .

ويلتقي رأي ابن الكلبي بالآراء السابقة التي تقول بالتعليق وان كـــان يختلف معهم في أن القصائد كانت تعلق ثم تحدر ويعلق غيرها

---

[1] المقدمة : ٥١١ .

يقـــول : " أول شعر علق في الجاهلية شعر امرؤ القيس ، علق على ركن من أركان الكعبة حتى نظر إليه ثم أحدر فعلقت الشعراء ذلك بعده ، وكان ذلك فخرا للعرب في الجاهلية ، وعدوا من علق شعره سبعة نفر " . [١]

ومن المحدثين الذين وافقوا القائلين من القدامى بالتعليق المؤرخ الفرنسي (سيديو) ، ويرى أن المعلقات أنشدت في الأسواق وبعد اختـــيارها وقـــبولها علقت على الكعبة بعد أن كتبت بالذهب على نفيس القماش ليطلع عليها الذرية [٢].

كذلـــك يـــرى الدكتور ناصر الدين الأسد في كتابه (مصادر الشـــعر الجاهلي) ترجيح ما تواتر من خبر تعليق القصائد في أستار الكعبة ويناقش الرافضين لفكرة تعليقها مستعرضا آراءهم ، ثم يعقب قائلا : " وأما نحن فإننا لا نملك وسيلة قاطعة للإثبات أو النفي ، ولا نحب أن نعتسف الطريق ونقتحم كما يقتحم غيرنا ، وكل ما نستطيع أن نقولـــه إن الاعتراض الذي قدمه القدماء كاعتراض ابن النحاس ـــ ســـنذكره فـــيما بعد ـــ والذي قدمه المحدثون لا يثبت للتحقيق والتمحيص فإذا ما استطعنا أن ننفي هذا الاعتراض بقي القول الأول بكتابة المعلقات وتعليقها سواء في الكعبة أو خزانة الملك أو السيد ـــ

---

[١] ٧٤ : المعلقات سيرة وتاريخا .

[٢] ٣٠٦ : الأدب العربي بين الجاهلية والإسلام .

قـولا قائما ترجيحا لا يقينا إلى أن يتاح له اعتراض جديد ينفيه أو سند جديد يؤيده [١].

ثم يقـول : وهو بصدد ما ذكره ابن النحاس من أن الذي جمع السـبع الطوال هو حماد الراوية : " فإذا صح أن حماد هو الذي جمع ــ في ديوان واحد أو مجموعة واحدة ــ هذه القصائد السبع بعد أن كانـت مفـرقة ، أوجددها بعد أن كادت تبلى ، فإن ذلك لا يقوم حجة على بطلان ما أوردناه من أمر تعليقها [٢].

ويؤيـد ما ذهب إليه بما قاله معاوية بن أبي سفيان : " قصيدة "عمرو بن كلثوم" وقصيدة "الحارث بن حلزة" من مفاخر العرب ، كانتا معلقتين بالكعبة دهرا "[٣] .

ويقـول نجيب محمد البهبيتي في بحثه القيم عن " المعلقات سيرة وتاريخا " وهو كتاب استعرض في أثنائه باستقصاء تاريخي عميق آراء القدامـى والمحدثين الذين نفوا خبر التعليق ، وكذلك آراء من أثبتوه مناقشـا لهـا في حياد وانتهى إلى أن : خبر المعلقات منحدر إلينا في طـريق متصـلة الحلقات واضحة ، تبدأ من معاصري تعليقها على الكعبة ، ثم تتعاقب سلسلة رواتها ، على ما لم تتعاقب به سلسلة رواة

---

(١) ١٧٠ : مصادر الشعر الجاهلي .

(٢) ١٧٠ : السابق .

(٣) ١٦٢ / ٣ الخزانة .

خــبر واحد من الأخبار المنحدرة إلينا عن الجاهلية وللتعليق أسباب وثــيقة الاتصــال بالعقائد الجاهلية ، وهي صورة منتزعة من صورة الحياة الجاهلية بمادتها وعناصرها ومواضعاتها "[1] .

وأنكر بعض العلماء الباحثين والأدباء خبر التعليق وحجتهم في ذلك :

١ـ أن خبر التعليق وصل إلينا مبهما غامضا لم يبين كيفية التعليق ولا زمانه ، ولم يكشف عن الذين كتبوها أو الملوك الذين أمروا بتعليقها ، أو الحكام الذين حكموا لها بالتفوق والتقدم .

٢ـ وأن الكعبة قد هدمت ، وجدد بناؤها على عهد الرسول عليه السلام ولم يذكر شيء عن هذه المعلقات ولا عما أصابها .

وأن العرب ما كان لهم أن يدنسوا الكعبة بما كان يشيع في هذه القصــائد من فسوق وهجر وفحش ، وهم الذين يعظمونها ويحجون إليها .

٤ـ وأن الأشعار الجيدة التي أثرت عن العرب كثيرة فلماذا لم يؤثر خبر التعليق إلا لهذه القصائد ؟

٥ـ وأنهــا لو علقت لظلت معروفة لم يتطرق إليها اختلاف في عددها أو في رواية أبياتها .

---

[1] ٢١ : المعلقات سيرة وتاريخا . لمجيب محمد البهبيتي .

٦- أن العرب كانت أمة أمية لم تدون حتى تكتب وتعلق على الكعبة وهذا السبب الأخير إحدى أدلة الذين أنكروا التعليق من المحدثين .

ومن القدامى الذين أنكروا التعليق أبو جعفر النحاس يقول : " واختلفوا في جمع هذه القصائد السبع ، فقيل :إن العرب كان أكثرهم يجتمعون بعكاظ ، ويتناشدون الأشعار ، فإذا استحسن الملك القصيدة قال: علقوها وأثبتوها في خزانتي ، وأنا أقول : من قال: إنها علقت في الكعبة فلا يعلمه أحد من الرواة " ، وأصح ما يقال في هذا إن حماد الرواية لما رأى زهد الناس في الشعر جمع هذه السبع وحضهم عليها ، وقال لهم : هذه المشهورات . فسميت القصائد المشهورات لهذا " .[1]

فابن النحاس يرى أنها كتبت وعلقت وأن كان ينكر تعليقها على الكعبة ، ثم لا يذكر من هو الملك الذي كان يستحسن القصيدة ويأمر بتعليقها في خزانته ، ولعله النعمان بن المنذر الذي كان لديه ديوان فيه أشعار الفحول ، وما مدح به كما يقول ابن سلام .

وابن الأنباري ينكر خبر التعليق أيضا ،فيقول في(نزهة الألباء) نقلا عن ابن النحاس : " إن حمادا جمع السبع الطوال ، ثم تأتي بعد هذه العبارة أخرى منفصلة عنها وهي : " ولم يثبت ما ذكره الناس

---

[1] ٣٠٦ : طبقات فحول الشعراء .

من أنها كانت معلقة على الكعبة " ، وقد ناقش البهبيتي هذين الرأيين بالإضافة إلى الآراء الأخرى المشابهة في كتابه الذي أشرنا إليه قبلا [١]

ومن المحدثين الذين أنكروا التعليق:المستشرق الألماني (نولدكه) الــذي يرى أنها لم تعلق على الكعبة كما يقال ، وأن المعلقات معناها (المنتخبات) ، وإنما سماها جماعة بهذا الاسم تشبيها لها بالقلائد التي تعلق في النحور ، واستدل على ذلك بأن من أسمائها السموط ، ومن معاني السموط القلائد [٢].

ويــرى هــذا الرأي أيضا الأستاذ الفرنسي (كليمان هيلر) مؤلــف كتاب الأدب العربي [٣]، بينما يرى الشيخ أحمد السكندري أن سبب التسمية بالمعلقات [٤]: أن العرب لم تكن تكتب في (دفاف) وأنهــا لم تكتب قبل القرآن كتابا مدفقا (ضمامتاه) ، وإنما كانوا يكتــبون في رقــاع مستطيلة من الحرير أو الجلد أو الكاغد يوصل بعضها ببعض ثم تطوى على عود أو خشبة وتعلق في جدار الرواق أو الخــيمة بعيدة عن الأرض حرصا عليها من قرض عث أو فأر أو نحو ذلك من دواب الأرض ، قال وذلك تأويل قوله تعالى : " يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب " ، إذ يظهر أن السجل معناه الصحيفة

---

(١) ١٠٣ : المعلقات سيرة وتاريخا .

(٢) ٣٠٧ : الأدب العربي بين الجاهلية والإسلام .

(٣) ٣/١٨٨ : الأدب العربي .

(٤) ٧ : المعلقات سيرة وتاريخا .

أو الكاتب الذي كان يعلق الكتب أو يطويها ، لعله كان يستعمل مثل هذا العود في طي الكتاب وتعليقه .

ثم جاء الرافعي الذي أنكر نبأ التعليق بشدة ، وفتح الباب واسعا أمام طائفة جاءت بعده ، فتابعته وتشبثت بقضية التعليق فانطلقوا يتسابقون إليها ، فبعضهم ينكر التعليق لأن شراح هذه القصائد لم يسموها بالمعلقات ، ولم يشيروا من قريب أو بعيد إلى التعليق ثم إنهم دعوها بالسبع الطوال واكتفوا لها بهذا الاسم .

وراح الرافعي ينفي نفيا قاطعا كل ما جاء من الأخبار الخاصة بالمعلقات عند السابقين متكئا على أن كلمة المعلقات لم ترد عند شراحها جميعا ، وأن تلك القصائد عرفت (بالسبع الطوال)[1] ويقول: " ولم يرو أحد ممن يوثق بروايتهم وعلمهم أشار إلى هذا التعليق ، ولا سمي تلك القصائد بهذا الاسم كالجاحظ والمبرد وصاحب الجمهرة وصاحب الأغاني ، مع أن جميعهم أوردوا في كتبهم نتفا وأبياتا منها ، وقد ذكر أبو الفرج صاحب الأغاني المتوفى سنة ٣٥٦هـ ، أن عمرو بن كلثوم قام بقصيدته خطيبا بسوق عكاظ ، وقام بها في موسم مكة ، فلو كان خبر التعليق صحيحا لما ضره أن يقول فكتبها العرب وعلقتها على ركن من أركان الكعبة .

---

[1] ٦-٧ : المعلقات سيرة وتاريخا .

ومن العجيب أن يدعي الرافعي — كما يقول البهبيتي — أنه لم ير أحدا ممن يوثق بروايتهم وعلمهم أشار إلى هذا التعليق كيف هذا؟ وقد ذكرنا من قبل ما قاله ابن عبد ربه وابن رشيق وابن قتيبة والبغدادي وابن خلدون كذلك فيما أوردوه في مؤلفاتهم واثبتوا فيها خبر تعليق القصائد على أستار الكعبة ؟! .

كذلك ينفي الدكتور شوقي ضيف خبر التعليق قائلا : " أما ما يقال من أن المعلقات كانت مكتوبة ومعلقة في الكعبة فمن باب الأساطير ، وهو في حقيقته ليس أكثر من تفسير فسر به المتأخرون معنى كلمة المعلقات " وأيد رأيه بما أورده "ياقوت الحموي" في "معجم الأدباء" نقلا عن ابن النحاس قوله : " لم يثبت ما ذكره الناس من أنها كانت معلقة على الكعبة [1]. واستدل على رأيه بقوله : " وإذا كان القرآن الكريم على قداسته لم يجمع في مصحف واحد إلا بعد وفاة الرسول ، وبعد مشاورة بين أبي بكر رضى الله عنه والصحابة فذلك وحده كاف لبيان أن العرب لم تنشأ عندهم في الجاهلية فكرة جمع شعرهم أو أطراف منه في كتاب " [2].

على أن أهم دليلين اعتمدهما المحدثون لإنكار التعليق فقد أوردهما مؤلف (مصادر الشعر الجاهلي) وهما ، أن العرب لم يكونوا

---

[1] :١٤١: تاريخ الأدب العربي للرافعي .

[2] :١٤٢ : السابق .

في جاهليــــتهم أمة كاتبة تبلغ بها معرفتها بالكتابة أن تسجل شعرها وتكتــــبه ، والثاني أن الكعبة لها من الاحترام والقدسية ما لا يبيح أن تعلق فيها المدونات والمكتوبات . وقد ناقش الدليلين الدكتور ناصر الدين الأسد في كتابه سالف الذكر ، وقال ردا على الشق الأول : إن العرب في الجاهلية عرفت الكتابة معرفة قديمة واسعة واستخدمتها في جــــل شئونها ، وكتبت بعض شعرها وأخبارها وأنسابها ، ودونتها في صحف وكتب ودواوين ، فالقول بأمية الجاهلية فرض واهم يجب أن نسقط جميع ما رتب عليه من نتائج باطلة .

وأمــــا الشق الثاني من اعتراض المحدثين فقد تواتر عن أن عرب الجاهلــــية كــــانوا يعلقون وثائقهم وكتاباتهم ذات القيمة في الكعبة لقداســــتها في نفوســــهم ، وذلـــك إظهارا لعلو مكانة هذه الوثائق والكتابات ولبيان قيمتها وخطرها ، وأوضح مثال على أن تعليق هذه الكــــتابات كــــان أمرا مألوفا متعارفا عند العرب الجاهلية ما ذكره محمد بن حبيب عن حلف خزاعة لعبد المطلب ،قال : " ..... وكتبوا بينهم كتابا كتبه لهم أبو قيس بن عبد مناف بن زهرة ...... ثم علقوا الكــــتاب في الكعبة " [1]، كذلك لا يؤخر هذه الطوال عن تعليقها عندهم ما يبدو فيها من فحش وما يشيع من فجور لأخرها ذلك عن الشــــهرة وعاقهــــا عــــن الانتشار وخاصة عند أشرافهم وعقلائهم

[1] ١٧٠ ـــ ١٧١ : مصادر الشعر .

والمستوقرين منهم ، وليس بمعقول أن يدعي حماد الراوية أنها علقت ليلفت الناس إليها ويدلهم على مكانها من البيان ومنزلتها في البلاغة بمثل هذه الدعوى ، فإن ما تتسم به من إشراق وإبداع وسمو كفيل يجعل القلوب تعلق بها ، والأنظار تلتفت إليها [١].

وكما اختلف الباحثون والعلماء حول سبب التسمية بالمعلقات وفي تفسيرها ، كذلك اختلفوا في عدد المعلقات أو الطوال وعدد أصحابها ، كذلك في صحة نسبة القصائد لقائليها ، وادعى البعض أنها منحولة من وضع الرواة .

أما فيما يتصل بعدد المعلقات فإن القرشي يقول متحدثا عن أصحاب السمط أو السموط في مؤلفه (جمهرة أشعار العرب) مشيرا إلى عدد المعلقات وأصحابها : " والقول عندهم ما قال أبو عبيدة ، امرؤ القيس بن حجر بن عمرو ، وزهير بن أبي سلمى ، ونابغة بني ذبيان ، والأعشى البكري ، ولبيد بن ربيعة ، وطرفة بن العبد ، وعمرو بن كلثوم . قال المفضل : هؤلاء أصحاب السبعة الطوال (الأشعار) التي تسميها العرب (السموط) ، فمن زعم أن في السبعة شيئا لأحد غيرهم فقد أخطأ وخالف ما أجمع عليه أهل العلم والمعرفة ، وإن بعدهن سبعا ما هن بدونهن ، ولو كنت

---

[١] ٣٠٩ : الأدب العربي بين الجاهلية والإسلام .

ملحقا بهن سبعا لألحقتهن بالجمهرات " [1].

وفيما قاله المفضل وأصحابه ونقله عنه الخطاب القرشي إشارة إلى مخالفين لهم في الرأي الذي كانوا يقولون به ، يرى ذلك في قوله بعد أن عد (أصحاب السموط) " فمن زعم أن في السبعة شيئا لأحد غيرهم فقد أخطأ وخالف ما أجمع عليه أهل العلم والمعرفة " فهي إشارة إلى أن جماعة كانت تقول في المعلقات السبع قولا يخالف رأي المفضل ، ولعل في ذلك تنويها بالخبر القائل إن "حمادا" جعل من بين المعلقات السبع قصيدتي الحارث بن حلزة وعنترة ، وحماد كان يرى غير رأي المفضل ، وهذا ما أشار إليه التبريزي عند شرحه للقصائد العشر قائلا : " سألتني ــ أدام الله توفيقك ــ أن ألخص لك شرح القصائد السبع مع القصيدتين اللتين أضافهما إليها أبو جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل النحوي ، قصيدة النابغة الذبياني وقصيدة الأعشى اللامية " ، ولعل ما في كلام التبريزي يوضح لنا أن المعلقات السبع هي تلك التي جمعها "حماد الراوية" وهي لامرئ القيس وزهير بن أبي سلمى ،وطرفة ،ولبيد، وعمرو بن كلثوم، والحارث بن حلزة وعنترة ، وما زاد عليه فإضافات من الآخرين .

وعلى ما نقله القرشي عن أبي عبيدة تكون قصيدتا الحارث بن حلزة وعنترة خارج المعلقات ، وحلت محلها قصيدتا

---

[1] : ١/١٠٥ : الجمهرة .

السـنابغة والأعشـى وإن جعل الأولين بين المجمهرات التي هي على المستوى نفسه من (السموط) في المترلة والمكانة الأدبية .

وابن الكلبي يرى أن عدد المعلقات سبعة ، ولكن بتعديل طفيف حيث يجعـل الحارث بن حلزة وعنترة بين المعلقات ويستثني منهم السـنابغة والأعشـى يقول : " وأول من علق شعره في الكعبة أمرؤ القيس ، وبعده علقت الشعراء ، وعدد من علق شعره سبعة ثانيهم طرفة بن العبد ، ثالثهم زهير بن أبي سلمى ، رابعهم لبيد بن ربيعة ، خامسـهم عنـترة ، سادسهم الحارث بن حلزة ، سابعهم عمرو بن كلثوم التغلبي هذا هو المشهور " . [1]

ثم نـأتي لابـن عبد ربه وهو عالم أندلسي يقول في كتابه العقد الفريد مفصلا عدد المعلقات في رأيه :

" كـان الشـعر ديوان العرب خاصة ، والمنظوم من كلامها ، والمقـيد لأيامهـا والشاهد على أحكامها ، حتى لقد بلغ من شغف العرب به وتفضيلها له ، أن عمدت إلى سبع قصائد تخيرتها من الشعر القـديم فكتبـتها بماء الذهب في القباطي المدرجة وعلقتها بين أستار الكعـبة فمنه يقال : مذهبة امرئ القيس ، ومذهبة زهير والمذهبات سبع ويقال لها المعلقات " ثم يقول المعلقات :

لامرئ القيس : " قفا نبك من ذكرى حبيب ومترل " .

---

[1] ١ / ٦١ خزانة الأدب للبغدادي .

ولزهير : " أمن أم أوفى دمنة لم تكلم " .

ولعنترة : " يا دار عبلة بالجواء تكلمي " .

ولعمرو بن كلثوم : " ألا هبي بصحنك فاصبحينا " .

وللبيد : " عفت الديار محلها فمقامها " .

وللحارث بن حلزة : " آذنتنا ببـــينها أسماء " .

وابن عبد ربه يوافق ما ذهب إليه ابن الكلبي ، ويسقط النابغة والأعشى من القائمة ، ويجعل عنترة والحارث بن حلزة من بينها .

ويروي ابن النحاس أن عدد المعلقات سبع ، ويعينها في النهاية شـــرحه للمعلقات يقول : " فهذا آخر السبع المعلقات المشهورات على ما رأيت عليه أهل اللغة يذهبون ، منهم أبو الحسن بن كيسان " ثم يـــردف " وليس لنا أن نعترض عليهم في هذا فنقول في الشعر ما أجـــود مـــن هذا كما أنه ليس لنا أن نعترض على الألقاب ، وإنما تؤديهـــا على ما نقلت إلينا " ، والمعلقات التي يقصدها ابن النحاس هي : قصيدة امرئ القيس (معلقته) ومعلقة زهير وعمرو بن كلثوم وطـــرفة ولبـــيد والحارث وعنترة أما قصيدتا النابغة والأعشى فقد أضافهما إلى السبع وقام بشرحهما ابن النحاس كما أشرنا من قبل ، ويزيد الموضوع وضوحا عندما يقول : " غير أنا رأينا أكثر أهل اللغة يذهبون إلى أن أشعر الجاهلية امرؤ القيس وزهير والنابغة والأعشى ،

إلا أبا عبيدة فأنه قد قال : أشعر الجاهلية أمرؤ القيس وزهير والنابغة ، واخـــرج (الأعشـــى) ، فحدانا قول اكثر أهل اللغة على إملاء قصيدة النابغة وقصيدة الأعشى لتقديمهم إياها، وإن كانتا ليست من القصائد السبع عند أكثرهم " . [١]

أما ابن خلدون فحين يتحدث في مقدمته عن الوسائل التي يعبر الإنســـان بها عن نفسه ، ومن أهمها الشعر وهو عربي يذكر تقديس الشـــعر في الجاهلـــية ، ويشير إلى المعلقات قائلا : " وكان رؤساء العـــرب منافســـين فـــيه (الشعر) ، وكانوا يقفون بسوق عكاظ لإنشاده وعرض كل واحد منهم ديباجته على فحول الشعر ، وأهل البصـــر لتمييز قوله حتى انتهوا إلى المناغاة في تعليق أشعارهم بأركان البيت الحرام ، موضع حجهم وبيت إبراهيم ، كما فعل امرؤ القيس بـــن حجـــر والنابغة الذبياني وزهير بن أبي سلمى وعنترة بن شداد وطرفة بن العبد ،وعلقمة ابن عبده ، والأعشى وغيرهم من أصحاب المعلقات السبع " . [٢]

وفي عـــبارة ابـــن خلدون اتساع حيث تجاوز السبعة أصحاب المعلقات وذكر فيهم علقمة بن عبدة ، ولم يذكره أحد ممن سبق ابن خلـــدون من أصحاب المعلقات ، ولم يذكر فيهم عمرو بن كلثوم ،

---

[١] ٨٥ : المعلقات سيرة وتاريخا .

[١] ١١١ : السابق .

وواضـــح في كـــلام ابن خلدون أن اهتمامه ينصب على موضوع التعلـــيق لا على أصحاب المعلقات ، وإن كان قد أشار إليهم دون تفصيل [1].

وبعـــد أن ذكـــرنا طائفـــة من الآراء أبداها أصحابها في عدد المعلقـــات وناظمـــيها ، نشير هنا إلى ما تواتر من أخبار توضح هذه القصائد على المشهور المتداول :

قصيدة امرئ القيس وأولها :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل

بسقط اللوى بين الدخول فحومل

قصيدة زهير بن أبي سلمى :

أمن أم أوفى دمنـــة لم تكلـــم　　　بحومـــانـــة الـــدراج فالمتثلـــم

قصيدة طرفة بن العبد ومطلعها :

لخولة أطلال ببرقـــة ثهمـــد　　　تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد

طويلة عنترة وأولها :

هل غادر الشعراء من متردم　　　أم هل عرفت الدار بعـــد توهم

قصيدة عمرو بن كلثوم :

---

[1] ١١١ : المعلقات سيرة وتاريخا .

ألا هبي بصحنك فاصبحينـــا ولا تبقى خمـــور الأندرينـــا

قصيدة لبيد ومطلعها :

عفت الديار محلها فمقامهـــا بمنى تأبد غولهـــا فرجامهـــا

طويلة الحارث بن حلزة :

آذنتنـــا ببينهـــا أســـماء رب ثاو يمل منـــه الثـــواء

هؤلاء الشعراء كلهم جاهليون عدا لبيد فأنه من المخضرمين ، وبعـــض الأدبـــاء يجعله جاهليا ، وبعضهم يسقط من هؤلاء عنترة والحارث ، ويثبت الأعشى وقصيدته :

ما بكاء الكبـــير بالأطـــلال وسؤالي وما تـــرد ســـؤالي

والنابغة في قصيدته :

عوجو فحيوا لنعم دمنة الدار ماذا تحيون من نؤى وأحجار؟

ويجعـــل بعضهم منها طويلة الأعشى ، وهي مدحته للنبي عليه السلام :

ألم تغتمض عيناك ليلة أرمدا وبت كما بات السليم مسهدا

وطويلة النابغة :

يا دار مية بالعلياء فالسنـــد أقوت وطال عليها سالف الأمد

وبعضهم يجعل منها قصيدة عبيد بن الأبرص :

أقفر من أهــله ملــحوب فــالقطبــيات فالــذنــوب

وبعــض الرواة يرى أن المعلقات ثمان ، ويجعلها بعضهم عشرا ويعد منها قصيدة الأعشى " ودع هريرة " .

عــلى أن المختار أنها سبع ، ولعل منشأ الزيادة أن بعض الرواة كــان يرى فيما يضيفه من القصائد ملامح التقدم وسمات الترجيح على بعض ما اعتبر ، فيضيفها من نفسه ، وليس أدل على ذلك من اختــيار قصــيدة " ألم تغتمض عيناك " ، والادعاء بأنها من المعلقات وهي إسلامية أنشدت للنبي صلى الله عليه وسلم ، وهي مما لا ينطبق علــيها خبر التعليق بحال ، فلم يعرف أنها علقت على الكعبة أو قال ملك علقوا لنا هذه [1].

الانتحال

انــتحال الشــعر : هو أن يقال الشعر وينسب إلى آخر فيقول مــا لم يقلــه ، وقضــية انتحال الشعر بدأت بإنكار بعض الباحثين والأدبــاء صــحة نسبة القصائد المعلقة لقائليها وادعاء أولئك أنها مــنحولة وضــعها أمثال "حماد الراوية" و"خلف الأحمر" وينسبونها كذبا إلى العصر الجاهلي . ونقول بداية إن ذلك الشك لا محل له ولا يقــوم ســند من دليل مقنع أو برهان من نقل أو تاريخ ، أو تفكير

---

(1) ٣٠٣ وما بعدها : الأدب العربي بين الجاهلية والإسلام .

مــنطقي ســليم ، فقــد يستســيغ العقل أن تنحل أبيات قصيدة أو قصــيدتين لشــاعر ، إمــا أن تنحل مثل هذه القصائد كلها من شخص أو اثنين يتعمدان إلى النسخ على منوال تخالف فيه القصيدة (المعلقــة) الأخــرى لما بينها من فروق دقيقة تثبت أنها لا تصدر من شخص أو اثنين ثم تنسب إلى شعراء المعلقات مع ما بينهم من فروق في التجارب ، فأمر يحيله العقل ويأباه المنطق الصحيح .

أما وقد حدث الشك وقيل بالانتحال ، فإن كثيرين قد أسموها بآرائهم في قضية الانتحال من قدامى ومحدثين . على أن أكثر المحدثين إنمــا قــد بــنوا آراءهم فيه اعتمادا على ما قرءوه عند القدامى أو المستشــرقين مع فارق بين يجب أن لا نغفله ، وهو أن قدامى النقاد العــرب إنما أشاروا إلى آحاد الأبيات التي استوثقوا من نحلها بهدف الإبانــة عــن الصــحيح الكــثير ونسبته إلى قائليه ، بينما أسس المستشرقون منهجهم على أساس الشك في الكثرة الكاثرة من ذلك الشــعر بادعــاء انتحاله لينسحب متجاوزا المعلقات إلى كل الشعر العربي في الجاهلية .

ومــن حذا حذو المستشرقين من المحدثين قال برأيهم وروج له وتعصب في إثبات النحل وتعسف الحكم .

ولعلــه لا تطول بنا الحيرة ولا يلح بنا التساؤل حين ندرك أن هــذه القضية استرعت الأنظار ونفذت إليها عقول الباحثين ، فمن

هــؤلاء من نظر بعين العقل والإنصاف والفهم للنظرة الإنسانية وما يعــرض لها أحيانا من الغفلة والسهو أو المبالغة في الواقع أو الكذب علــيه وغــالى آخــرون مغالاة لا يقبلها عقل ولا يسوغها منطق ، وكانــت الثورة العارمة الصاخبة والجلبة الكبيرة المفزعة التي أثارها بعض المستشرقين من أمثال (نولدكه) و"بروكلمان" "ومرجليوث" و"بلاشــير" يلقون القول على عواهنه ويفرضون الرأي دون حجة تسنده اعتمادا على أن وراءهم ــ كالعادة ــ عقولا فارغة تؤمن ، ونفوســا تستطعم الذل متخمة بالهوان لا ترضى إلا بالإذعان ، ولا تصدق إلا تصديق التابع الذي يقتات الفتات التافه في دونية يهمش عقلــه ولا يملك من أمر نفسه شيئا إلا أن يقدس المتبوع الذي يملي ويحــركه دمية ، مع أن مجال البحث من بديهياته استقلال الشخصية والأمانة في عرض القضايا واستعلاء ما هو مقنع بالدليل والبرهان .

ونعــرض فــيما يلي جملة من الآراء أدلى أصحابها بدلوهم في "قضــية الانتحال" ثم نتبين وجه الصواب فيما نستعرضه تأييدا لرأي أو تفنيدا لآخر .

فمــن إشــارات القدامــى ما جاء في كتاب (طبقات فحول الشعراء) لابن سلام الجمحي ، حيث دون كثيرا من ملاحظات أهل العلم والدراية في رواية الشعر القديم من أساتذة المدرسة البصرية التي ينتسب إليها مضيفا إلى ذلك كثيرا من ملاحظاته الشخصية .

وقد أشار غيره مرارا إلى ما في الشعر الجاهلي من تزيد وحاولوا جاهدين أن ينفوا عنه الزيف وما وضعه الواضعون متخذين إلى ذلك مقاييس كثيرة ، وبلغ من حرصهم في هذا الباب أن أهمل ثقاتهم كل ما روى عن المتهمين أمثال "حماد وخلف" .

وكان الأصمعي خاصة لهم بالمرصاد ، كما كان المفضل الضبي مـــن قبله ، وتتابع الرواة الثقات بعدهما يحققون ويمحصون التراث حتى يطرحوا المنحول عن صحيحه والمدخول عن أصيله [1].

وقد رد ابن سلام مشكلة الوضع والانتحال إلى عوامل منها : عـــامل القبائل التي كانت تتزيد في شعرها لتتزيد في مناقبها ، وعامل الـــرواة الوضـــاعين يقول : " لما راجعت العرب رواية الشعر وذكر أيامهـــا ومآثـــرها استقل بعض العشائر شعر شعرائهم وما ذهب من ذكر وقائعهم .

وكان قوم قلت وقائعهم وأشعارهم وأرادوا أن يلحقوا بمن له الوقائع والأشعار ، فقالوا على ألسنة شعرائهم ، ثم كانت الرواة فقد زادوا في الأشعار [2] .

وقد أشار ابن سلام إلى ما زادته قريش في أشعار الشعراء فهي

---

[1] ١٦٤ : تاريخ الأدب العربي .

[2] ٣٩ : وما بعدها طبقات فحول الشعراء .

تضيف إلى شعرائها منحولات عليهم ، وقد أضافت كثيرا إلى شعر حسان [1]، ويذكر كذلك أن من أبناء الشعراء وأحفادهم من كان يقوم بذلك مثل "داود بن متمم بن نويرة" فقد استنشده أبو عبيدة شعر أبيه متمم ، ولاحظ أنه لما نقد شعر أبيه جعل يزيد في الأشعار ويصنعها ، وإذا كلام دون كلام متمم ، وإذا هو يحتوي على كلامه فيذكر المواضع التي ذكرها متمم والوقائع التي شهدها ، فلما توالى ذلك علم أبو عبيدة ومن كانوا معه إنه يفتعله " [2].

وأما عن الرواة الذين تزيدوا في الشعر بالانتحال فيشير ابن سلام إلى طائفتين منهم كانتا ترويان منتحلا كثيرا وتنسبانه إلى الجاهليين : طائفة كانت تحسن نظم الشعر وصوغه ، وتضيف ما تنظمه وتصوغه إلى الجاهليين مثل "حماد" ، وطائفة لم تكن تحسن النظم ولا الاحتذاء على أمثلة الشعر الجاهلي ، ولكنها كانت تحمل كل غثاء منه وكل زيف ، وهم رواة الأخبار والسير والقصص من مثل ابن اسحق راوي السيرة النبوية ، إذ كانت تصنع له الأشعار ويدخلها في سيرته دون تحرز أو تحفظ منطقا بالشعر العربي من لم ينطقوه من قوم عاد وثمود والعماليق وطسم وجديس [3] .

---

[1] ١٧٩ ـ ٢٠٤ ، طبقات الشعراء .

[2] ٤٠ : ابن سلام وأنظر ١٦٤ : العصر الجاهلي .

[3] ١٦٥ : تاريخ الأدب العربي العصر الجاهلي .

ويرفض ابن سلام والأصمعي وأضرابهما رواية الطائفتين جميعا فـلم يبقوا شيئا مما يرويه حماد ولا أشباهه إلا أن تأتيهم من مصادر وثـيقة ، وكذلك لم يبقوا شيئا مما يرويه ابن اسحق ولا لغيره شعرا ولأن لا يكون لهم شعرا أحسن من أن يكون ذلك لهم " [1]

ويقول أيضا : " وليس يشكل على أهل العلم زيادة الرواة ولا مـا وضعوا ولا ما وضع المولدون " مما حمله رواة القصص والأخبار من شعر غث " لا خير فيه ولا حجة في عربيته :، ولا أدب يستفاد ولا معنى يستخرج ولا مثل يضرب ولا مديح رائع ولا هجاء مقذع ولا فخر معجب ولا نسيب مستطرف " [2].

ومـن نمـاذج الشـعر المنـتحل والمدعى ما جاء في طبقات الشعراء[3] قال أبو عبيدة : كان قراد بن حنش من شعراء غطفان ، وكـان جـيد الشعر قليله ، وكان شعراء غطفان تغير على شعره فتأخذه وتدعيه ، منهم زهير بن أبي سلمى ادعى هذه الأبيات [4] :

إن الـرزية لا رزيـة مثلهـا ... ما تبتغي غطفان يوم أضلت

إن الركاب لتبتغـي ذا مـرة ... بجنوب نخل إذا الشهور أحلت

ولنعم حشو الدرع أنت لنا إذا ... نهلت من القلق الرماح وعلت

---

(١) : ١٦٥ : السابق .

(٢) ٥: طبقات الشعراء ، ١٦٥ ـــ ١٦٦ : العصر الجاهلي .

(٣) : ٥٦٨ ـــ ٥٦٩ : طبقات الشعراء .

(٤) ٥٦٨ ـــ ٥٦٩ : طبقات الشعراء .

ويروي أن النابغة الجعدي دخل على الحسن بن علي فودعه فقال له الحسن : أنشدنا من بعض شعرك فأنشد :

الحمد لله لا شريك له   من لم يقلها فنفسه ظلما

فقـــال له . يا أبا ليلى ، ما كنا نروي هذه الأبيات إلا لأمية بن أبي الصلت . قال : يا ابن رسول الله ، والله إني لأول الناس قالها وإن السروق من سرق أمية شعره (١) .

كذلـــك تنبه علماء الطبقة الأولى والطبقة الثانية إلى المنحول والموضوع من الشعر وأشاروا إلى ذلك في كتبهم (٢) .

يذكر أبو عمرو بن العلاء أن ذا الإصبع العدواني قال يرثي قومه :

وليس المرء في شيء   من الإبرام والنقض
إذا يفعل شيئا خـــا   لـــه يقضي وما يقضي
جديد العيش ملبوس   وقد يوشك أن ينضي

ثم بـــين أنه لا يصح من أبيات ذي الأصبع الضادية هذه إلا الأبيات التي أنشدها وأن سائرها منحول (٣) .

وأبو عمرو الشيباني يرفض أن يكون البيت التالي لعنترة :

هل غادر الشعراء من متردم   أم هل عرفت الدار بعد توهم

---

(١) :١٠٦ ـــ ١٠٧ : السابق .
(٢) :٣٢٥ ـــ ٣٢٦ :مصادر الشعر .
(٣) : ٣/٩٦ : الأغاني .

أمـــا الأصمعي فمعرفته بالمنحول وخبرته به فيظهرهما قوله : " أقمـــت بالمدينة زمانا ما رأيت بها قصيدة صحيحة إلا مصحفة أو مصـــنوعة " ، وقـــال : " إن كثيرا من شعر امرئ القيس لصعاليك كانوا معه " [١] .

وكـــان الأصـــمعي يرى أن أبياتا من قصيدة زهير الميمية : " أمـــن أم أوفى دمـــنة لم تكلم " ليست له ، وإنما هي لصرمة بن أبي أنس الأنصاري [٢] وكان كذلك يشك في بيت عنترة : (هل غادر الشعراء من متردم) .

ويدفع أن يكون له ، ويرى أن أول القصيدة[٣] :

يا دار عبلة بالجواء تكلمي وعمي صباحا دار عبلة واسلمي

ويـــورد أبو عبيدة في كتابه "الخيل" نصوصا كثيرة منها ، أنه ذكر أبياتا مطلعها :

الخير ما طلعت شمس وما غربت معلق بنواصي الخيل مطلوب

ثم علـــق قائلا : إن هذا الشعر قد يحمل على امرئ القيس ، وامـــرؤ القـــيس لم يقله ولكنه لرجل من الأنصار[٤] ، أما أبو حاتم السجستاني فقد أورد أبياتا نسبها إلى عمرو بـــــن ثعلبة ثم ختمهـــا

---

[١]: ٤١٣ ـــ ٤١٤ : المزهر ، ٣٤ : الموشح .

[٢]: ٤٢ : المعمرين .

[٣]: ٩/٢٢٢ : الأغاني .

[٤]: ١٤ : الخيل ، ٣٢٩ : مصادر الشعر .

بالبيت[1] :

عمرك هل تدرين أن الفتى　　　　شبابــه ثوب عليه معــار

ثم قـــال : زعم عطاء بن مصعب الملط أن خلفا الأحمر وضع هذا البيت الأخير . وللجاحظ في كتابه الحيوان نماذج كثيرة أوضح بهـــا مـــا كان يحدث من وضع ونحل وادعاء من خلال نظرة دقيقة ومقاييس فائقة في الموازنة بين الشعراء وأساليبهم ومناهجهم في نظم الشعر يقول : قال غيلان بن سلمة[2] :

في الآل يخفضهـــا ويرفعها　　　　ربـــع كأن متونه السحل

عقلا ورقمـــا ثم أردفـــه　　　　كلل على ألوانها الخمـــل

كدم الرعاف على مآزرها　　　　وكـــأنهن صنوامرا إجـــل

ثم قـــال هذا الشعر عندنا للمسيب بن علس . ويقول فيما أنشد منسوبا لأوس بن حجر :

فانفـــض كالدرى يتبعـــه　　　　نقـــع يثـــور تخالـــه طنبـــا

فهذا الشعر ليس يرويه لأوس إلا من لا يفصل بين شعر أوس ابن حجر وشريح بن أوس ، وقد طعنت الرواة في هذا الشعر الذي أضفتموه إلى يشر بن أبي خازم من قوله :

والعير يرهقها الحمار وجحشها　　ينقض خلفهما انقضاض الكوكب

---

[1] : ٣٤ ــ ٣٥ : كتاب المعمرين من العرب .

[2] : ٦/٣٣٥ : الحيوان .

فزعموا أنه ليس من عادتهم أن يصفوا عدو الحمار بانقضاض الكوكب ولا بدن الحمار ببدن الكوكب ، وقالوا : في شعر "بشر" مصنوع كثير مما قد احتمله كثير من الرواة على أنه من صحيح شعره .

ما سبق نماذج مما أشار إليه القدامى من منحول الأبيات وموضوعها ، وقد نبهوا إليه وذكروا في مؤلفاتهم ما رأوه كذلك ، وهو يوضح منهجهم المتبع وأسلوبهم في التمييز بين الصحيح في النسبة والمنحول منه بغية طرح الدخيل عن الأصيل والغث من الثمين .

حتى كان العصر الحديث الذي تناول فيه طائفة من النقاد والباحثين موضوع الانتحال في الشعر الجاهلي فاكثروا اللفظ فيه واختلقوا الأدلة ، وركبوا الشطط ، واستهدوا الهوى في طلب البهرج ، وبدأت القضية تنسحب على الساحة منذ أثارها المستشرق (نولدكه) سنة ١٨٦٤م ، وتلاه "آلورد" حين نشر دواوين الشعراء الستة الجاهليين : امرئ القيس، والنابغة ،وزهير، وطرفة وعلقمة (لم يذكر علقمة في اكثر المراجع بين شعراء المعلقات) وعنترة ، فتشكك في صحة الشعر الجاهلي عامة ، منتهيا إلى أن عددا قليلا من قصائد هؤلاء الشعراء يمكن التسليم بصحته ، وتابعه في شكه كثير ممن درسوا الشعر الجاهلي من الغربيين أمثال : "موير" وباسيه وبروكلمان، "ومرجليوث" والأخير هو صاحب المعول

الفـــاعل في غـــرس الرأي الرافض لحقيقة الشعر الجاهلي ، وبالمعول نفسه يهدم ذلك التراث الناصع رافضا أن تكون الرواية الشفهية هي الـــتي حفظـــته ، وإنما وسيلته الكتابة ، ويعود يرفض الكتابة وتعلم العرب لها في الجاهلية ليخلص من ذلك مؤكدا إلى أن الشعر الجاهلي قـــد نظـــم في مـــرحلة زمنية تالية للقرآن الكريم ، ويسوق حججه المزعومة طاعنا في الرواة ، وفي طريقة الحفاظ على ذلك الشعر ، ثم يدلـــف إلى اللغة نفسها ليجعل منها وسيلة للطعن في الشعر الجاهلي حيث لم يظهر فيه أثر للهجات العربية المختلفة ــ حسب رأيه ــ ثم كـــيف يـــتاح لبدو غير متحضرين أن ينظموا هذا الشعر ، بينما لم ينظمه من تحضروا من أهل هذه المسالك .

فرد عليه طائفة من المستشرقين أمثاله ودحضوا أدلته وردوها عليه [1] وهؤلاء المستشرقون معذورون لأنهم مهما تخصصوا وحاولوا التعمق في أدب العرب ، فإن وسائلهم إلى فهمه قاصرة ، وإدراكهم لـــه أقل فاعلية ، وطرائقهم إليه غير مستقيمة ، فاللسان العربي الآن تعصى عليه العربية الفصيحة والضعف اللغوي ظاهرة تنسحب على الجمـــيع ومن باب أولى أن يكون اللسان الأعجمي أطوع في تحريف الكـــلم عن مواضعه ، فكيف لمن لا يملك أعنة اللغة ولا يفقه أدواتها أن يـــتعمق أســـرارها ويسبر غورها ويتعرف إلى بلاغتها وإعجازها وســـحرها ، واللغـــة في درجاتهـــا العليا إحساس بها ينبع من تذوق

---

[1] ١٦٦ ــ ١٦٧ : العصر الجاهلي .

معطياتها قبل أن تكون حروفا أو مفردات مجردة ترسم على الورق أو تحفظ في بطون الكتب .

ولف نفر من الباحثين والأدباء العرب لف المستشرقين ومالوا ميلهم ، وكانوا قد تدثروا بعباءتهم فخرجوا من تحتها وأنكروا هذا الشعر جملة ، متمترسين خلف ما أثاره أولئك من غبار حوله ، وممن تابع هؤلاء في عناد وإصرار بل واندفاع وإسراف الدكتور طه حسين في كتابه "الشعر الجاهلي" وكتابه "الأدب الجاهلي" ، حيث رأى أن " هناك عوامل دعت إلى انتحال الشعر واختلاف القصائد ، وهذا أمر طبيعي — كما يقول — إذ أن العرب تحضرت بعد بداوة واستقرت بعد اضطراب ، وامتد سلطانها إلى غيرها من الأمم فبسطت عليها ظلها ، ومدت نفوذها ، وهي في هذا تشبه الأمة اليونانية والأمة الرومانية ، تحضرت لما تحضر اليونان والرومان بعد بداوة وتأثرت كما تأثر اليونان والرومان لظروف سياسية مختلفة ، وانتهى بها تكوينها السياسي إلى مثل ما انتهى التكوين السياسي لليونان والرومان ، ثم تخلص من ذلك التشابه في الحيوات المختلفة إلى إثبات التشابه في انتحال الشعر قائلا : " فلن تكون الأمة العربية أول أمة انتحل فيها الشعر انتحالا وحمل على قدمائها كذبا وزورا ، وإنما انتحل الشعر في الأمة اليونانية والرومانية من قبل ، وحمل على القدماء من شعرائها وانخدع به الناس وأمنوا له ، ونشأ عن هذا الانخداع والإيمان سنة أدبية توارثها الناس مطمئنين إليها حتى كان

العصر الحديث ، وحتى استطاع النقاد من أصحاب التاريخ والأدب واللغة والفلسفة أن يردوا الأشياء إلى أصولها ما أستطاعوا إلى ذلك سبيلا[١] .

والذين يرون انتحال الشعر يرجعونه إلى عدة عوامل ، وكما يشير إليها طه حسين واضعا نصب أذنيه ملاحظات القدماء أن مبعث حياة الجاهليين الدينية والعقلية والسياسية والاقتصادية ، كما أنه لا يصـــور لغتهم وما كان فيها من اختلاف اللهجات وتباينها بلهجتها عن اللغة الحميرية . إلى جانب العوامل التالية :

العـــامل السياســـي : ويتمثل فيما كان بين الأنصار أهل المديـــنة الذين نصروا الرسول عليه السلام وعزروه ، وبين أهل مكة الذيـــن آذوه وأخـــرجوه وحـــاربوه من خصومة أدت إلى الوضع والاخـــتلاق ، واشتداد الإحن بين أهل الكفر والإيمان — في رأيه — أحـــيا العصـــبية التي دفعت كل قبيلة إلى أن تعود إلى جاهليتها تعتز بقديمها ، وتنشر مفاخره وتردد أمجاده .

وكانـــت في حاجـــة إلى الشعر ، تقدمه وقودا لهذه العصبية المضطرمة فاستكثرت من الشعر وقالت منه القصائد الطوال ونحلتها شعراءها القدماء[٢] .

---

[١] ١١٩ : الأدب الجاهلي طه حسين .

[١] :-١٣٨ : السابق .

العامل الديني :

كذلك يرى الدكتور طه حسين أن العامل الديني كان له أثر قوي في انتحال الشعر وإضافته إلى الجاهليين ، إذ كان القصاص يلجأون إليه لتفسير ما يجدونه مكتوبا في القرآن من أخبار الأمم القديمة البائدة كعاد وثمود ومن إليهم ، فالرواة يضيفون إليهم شعرا كثيرا ، وقد أثبت ابن سلام في طبقات الشعراء ناقدا ومحللا أن هذا الشعر وما يشبهه مما يضاف إلى تبع وحمير موضوع منتحل وضعه ابن اسحق ومن إليه من أصحاب القصص .

ومن ذلك أيضا شعر الشواهد الذي أخترعه الرواة حين عمد الدارسون إلى دراسة القرآن الكريم لغويا لإثبات صحة ألفاظه ودلالتها على معانيه ، فقد حرصوا على أن يستشهدوا على كل كلمة من كلمات القرآن بشيء من شعر العرب يثبت أن هذه الكلمة عربية لا سبيل إلى الشك في عربيتها .

القصص :[1]

فقد وجد الفن القصصي وازدهر في عصر غير قصير من عصور الأدب العربي الراقية ، ازدهر أيام بني أمية وصدرا من أيام بني العباس ، حتى إذا كثر التدوين وانتشرت الكتب ، واستطاع الناس أن يلهوا بالقراءة دون أن يتكلفوا الانتقال إلى مجلس القصاص

---

[1] : ٢٠٧ ـ ٢١٠ : الأدب العربي بين الجاهلية والإسلام .

ضـــعف أمر هذا الفن ، وأخذ يفقد صفته الأدبية الراقية شيئا فشيئا حـــتى ابـــتذل وانصـــرف عنه الناس ، ولقد كان قصاص المسلمين يتـــحدثون إلى الناس في مساجد الأمصار فيذكرون لهم قديم العرب والعجـــم ومـــا يتصـــل بالنبوات ، ويمضون معهم في تفسير القرآن والحديـــث ورواية السير والمغازي والفتوح إلى حيث يستطيع الخيال أن يذهـــب بهـــم إلى حيث يلزمهم العلم والصدق أن يقفوا ، وكان الناس كلفين بهؤلاء القصاص مشغوفين بما يلقون إليهم من حديث ، ومـــا أسرع ما فطن الخلفاء والأمراء بقيمة هذه الأداة الجديدة من الوجهـــة السياسية والدينية فاصطنعوها وسيطروا عليها ، واستغلوها استغلالا شديدا ، وأصبح القصص أداة سياسية كالشعر [1].

وكان هذا القصص الذي سيطر على الحياة في العصر الأموي في أمـــس الحاجـــة إلى شعر يزينه من حين إلى حين ، ومن هنا عمد القصـــاص إلى وضع الشعر لتزدان به قصصهم من ناحية وليسيغها القراء والسامعون من ناحية أخرى ، ومن ذلك أخبار المعمرين الذين مدت لهم الحياة إلى أبعد مما ألف الناس .

وقد رويت حول هؤلاء المعمرين أخبار وأشعار قبلها العلماء الـــثقاة في القـــرن الثالث للهجرة كأبي حاتم السجستاني وابن سلام نفسه ، وهو يروي في كتاب الطبقات هذا الشعر المتكلف السخيف

---

[1]: ١٦٠ : الأدب الجاهلي .

الـــذي يضـــاف إلى أحـــد هـــؤلاء المعمـــرين ، وهـــو المستوغر بن ربيعة بن كعب سعد الذي عمر طويلا حتى قال :

ولقد سئمت من الحياة وطولهـــا وازددت من عدد السنين مئينا
مائة أتت من بعدها مئتـــان لي وازددت من عدد الشهور سنينا
هل ما بقى إلا كما قد فاتنـــا يوم يكـــر وليلـــة تحـــدونـــا

ويروي ابن سلام شعرا آخر ليس أقل من هذا الشعر سخفا ولا تكلفـــا ولا انتحالا أضيف إلى دريد بن زيد بن فهد حين حضره الموت :

اليـــوم يبـــنى لدريـــد بيتـــه لو كان للدهر بلى أبليتـــه
أو كـــان قرني واحدا كفيتـــه يارب نهب صالح حويتـــه
ورب غيـــل حســـن لويتـــه ومعضـــم مخضب ثنيتـــه

تلك الدوافع هي من أهم أسباب الوضع ، إن لم تكن أهمها كما أشار إليها الباحثون ، ثم ينتهي طه حسين من دراسته إلى : " أن الكـــثرة المطلقة مما نسميه أدبا جاهليا ليست من الجاهلية في شي ، و إنمـــا هـــي منـــتحلة بعد ظهور الإسلام ، فهي إسلامية تمثل حياة المســـلمين و مـــيولهم و أهواءهم اكثر مما تتحمل حياة الجاهليين ، و أكـــاد لا أشك في آن ما بقي من الأدب الجاهلي الصحيح قليل جدا لا يمثل شيئا ، ولا يدل على شي ، ولا ينبغي الاعتماد عليه في استخراج الصورة الأدبية الصحيحة لهذا العصر الجاهلي " [1] .

---

[1]: ٢٧٠ : في الأدب الجاهلي.

وقــد جــرد نفــر من الباحثين الغيورين على أدب العرب و المعاصــرين لطه حسين أقلامهم للرد عليه ، ونتج عن هذه الثورة علــيه عدد من المؤلفات منها : " نقض كتاب في الشعر الجاهلي " لمحمد الخضر حسين و " النقد التحليلي لكتاب في الأدب الجاهلي " لمحمــد أحمــد الغمراوي ، "و الشباب الراصد " لمحمد لطفي جمعة ، و" نقد كتاب الشعر الجاهلي " لمحمد فريد وجدي ، و" محاضرات في بــيان الأخطــاء العلمية التاريخية التي اشتمل عليها كتاب في الشعر الجاهلي" لمحمد الخضري .

وتحت وطأة هذه الردود و التفنيد لآرائه لم يلبث طه حسين أن عــاد عن بعض آرائه و أحكامه ورجع عنها في كتابه في "الأدب الجاهلي" في أثناء استعراضه لشعر مضر ، فهو لا يستبعد أن يكون هــناك شعراء مضريون وشعر مضري ، وإن استدرك قائلا : " لكننا لا نشك أيضا في أن هذا الشعر قد ذهب وضاعت كثرته ، ولم يبق لــنا منه إلا شيء قليل جدا لا يكاد يمثل شيئا ، وهذا المقدار الذي بقــى لــنا مــن شعر مضر قد اضطرب وكثر فيه الخلط والتكلف والــنحل ، حــتى أصــبح من العسير جدا إن لم يكن من المستحيل تخليصه وتصفيته " . [1]

ثم ينتهي إلى أن الباحث في هذا الشعر يجب أن لا يكتفي في الحكــم بالســند ومن يحمله من الرواة أو بالقرابة والسهولة ، وإنما

---

(1) : ٢٧٠ : في الأدب الجاهلي.

ينبغي أن يحكم فيه مقياسا مركبا من خصائص فنية يشترك فيها طائفة مـــن الشعراء بحيث يكونون مدرسة كمدرسة "أوس بن حجر" التي تتألف منه ومن زهير ،وابنه كعب ،والحطيئة ، فإن لهذه المدرسة من الخصائص الفنية المشتركة ما يؤكد صحة شعرها وسلامته من الوضع والانـــتحال ، وبـــذا يرجع طه حسين عن سابق رفضه لكل الشعر الجاهلي ويسلم بصحة بعض جوانبه ودواوينه[١] .

ويحســـن بنا أن نختم هذا الطرح بسرد رأيين معتدلين في هذه القضية نميل إليهما يقول الدكتور شوقي ضيف : " والحق أن الشعر الجاهلي فيه موضوع كثير ، غير أن ذلك لم يكن غائبا عن القدماء ، فقـــد عرضـــوه على نقد شديد ، تناولوا به رواته من جهة وصيغه وألفاظـــه من جهة ثانية ، أو بعبارة أخرى عرضوه على نقد داخلي وخارجي دقيق ، ومعنى ذلك أنهم أحاطوه بسياج محكم من التحري والتثبـــت ، فكان ينبغي أن لا يبالغ المحدثون من أمثال "مرجيلوث" و"طـــه حسين" في الشك فيه مبالغة تنتهي إلي رفضه وإنما نشك حقا فيما يشك فيه القدماء ونرفضه ، أما ما وثقوه ورواه أثباتهم من مثل أبي عمرو بن العلاء ، والمفضل والضبي والأصمعي ، وأبي زيد فحرى أن نقبله ما داموا قد أجمعوا على صحته " [٢].

---

[١]: ١٧٥ : العصر الجاهلي .

[٢]: ١٧٥ : العصر الجاهلي .

ويقول عبد الحميد المسلوت : " وعلى كل حال نستطيع أن نقول إن الشعر العربي قد دخله الوضع وتسرب إليه الانتحال لكثير من الدوافع والأغراض التي يتوخاها الواضعون ، ولكن هذا لا يدفعنا أبدا إلى أن نضع هذا التراث كله موضع الشك والارتياب ، وأن ندعي أنه لا يمثل الناحية الدينية ولا ينم عن الحياة العقلية أو السياسية أو الاقتصادية ، وأن نجعل من وحدة لهجته دليلا بينا على زيفه وكذبه كما يدعي المسرفون .

" أما إنه لا يمثل الحياة الدينية والسياسية والاقتصادية فيكفي في الرد على هذا الزعم إلقاء نظرة عاجلة على ديوان العرب ، لنرى في أشعارهم صورة الصحراء بما فيها من جفاف وقحط أو عواطف ورمال وكثبان ، وما يبدو فيها من بعر الآرام ومراتع الظباء وغير ذلك مما ينسجم مع بيئتهم ويلتئم مع طبيعتهم ، وفي كتاب الأصنام لابن الكلبي أشعار كثيرة تصور الوثنية التي كانت شائعة فيهم ومتغلغلة بينهم .

" وأما أن الشعر بلغة واحدة فما هو معروف عن الباحثين أن اللغة عند العرب صارت إلى وحدة لسانية قبل الإسلام بفترة طويلة وأن الشعراء كانوا ينشدون في المحافل والأسواق قصائدهم بلغة واحدة يستمع إليها الناس ، ويحكم عليهم حكام الشعر ونقدته ، فليس لتلك اللهجات إذ ذاك وضع في الوجود ، ولا مكان في منطق الناس ، وليست هناك فروق بين لغة الشماليين ولغة الجنوبيين ، فقد

انقرضت[1] الحميرية التي كان يقول عنها أبو عمرو بن العلاء : " ما لسـان حمـير بلساننا ولا عربيتهم بعربيتنا " ، ولم يكن لها وجود في عهـد أبي عمـرو ولا سمع إلا أخبارها ، فهذه اللهجات جميعها قد ذابت في لغة واحدة نزل بها القرآن الكريم ، يفهمه الجميع وينطقون لغـته ، ويـتحاكمون إلـيها في أشعارهم ينظمون بها ، ويعبرون في وعائهـا وهـذه الوحـدة في لغة الشعر دليل على صحته لا وضعه وانـتحاله ، وقد وصل إلينا عن طريق الرواية الممحصة الموثوقة من رواة ثقـاة أثـبات ، عدا ذلك الذي أشاروا إليه في مؤلفاتهم نصا ونبهوا إليه .

شروح المعلقات :

دعا الاهتمام بهذه القصائد العلماء على اختلاف تخصصاتهم إلى تناولها بالشرح والبسط في عصور مختلفة ففي القرن الثاني الهجري قام بشرحها أبو بكر البطليوسي (ت١٩٤هـ) ، وفي القرن الثالث الهجري شرحها النحوي أبو جعفر بن النحاس المتوفى سنة ٢٣٨هـ ، وفي القـرن الرابع أبو علي التعالبي (ت ٣٥٦هـ) ، وفي القرن الخـامس أبو زكريا بن الخطيب التبريزي (ت ٥٠٢هـ) كذلك شرحها الدميري صاحب حياة الحيوان ، والزوزني (ت ٤٨١هـ) وغير أولئك كثير ممن تناولها بالشرح مفردة أو مجموعة .

---

[1] : ٢١٦ : الأدب العربي بين الجاهلية والإسلام .

وتمتاز هذه القصائد بقوة السبك وتلاحم النسيج ، وجودة الصوغ ، وحسن العبارة ولطف المعنى وسمو الأسلوب ، وتصويرها الرائع لحياة العرب الاجتماعية بكل ما فيها ، وما كان يخامرها من أحداث ويتخللها من وقائع ، كما أطال أصحاب المعلقات فيها عن غيرها من القصائد التي عرفت لهم أو لغيرهم حيث تتراوح عدد أبياتها من قصيدة إلى أخرى بين أربعة وستين بيتا إلى مائة وخمسة عشر بيتا لم تعرف لغيرها هذه الإطالة ، مع تعدد أغراضها ، وتنوع مناحيها ، واشتمالها على كثير من المعاني التي قل أن تحتشد في غيرها من القصائد ، وذلك حتى تضم إلى سجل القصائد الخالدات التي تعلق . ثم إنها كذلك نالت استحسان أهل الفصاحة ونقاد الشعر الذين يعلمون جيده من رديئه وصحيحه من فاسده ، ويحتكمون إلى مقاييس الجودة التي ارتضوها لأشعارهم والمعايير النقدية التي تعارفوا عليها بحكم عصرهم ، حتى أفردت بالتعليق دون غيرها ، حيث علقوها ، أو كتبوها بماء الذهب تقديرا لها واعترافا بتفوقها .

أنواع الشعر :

يقسم النقاد الشعر إلى ثلاثة أنواع رئيسة : قصصي وغنائي وتمثيلي وأساس هذه القسمة هو الصلة بين الشاعر وموضوع الشعر فالقصص شعر موضوعي ، والغناء شعر ذاتي ، والتمثيلي شعر موضوعي في طريقة ذاتية ، وقسمه بعضهم إلى خمسة أقسام مضيفا إلى هذه الثلاثة "الشعر التعليمي" الذي يمجد الفضائل الدينية

والخلقية ويدعو إليها كمذهب أبي العتاهية ، ثم الشعر الهجائي الذي يهاجم الرذائل أو الأخطاء الاجتماعية وينفر منها ، وهو غير السباب الشخصـــي المعروف في الأدب العربي ، يقول الشايب : وعندي أنه مــن المستطاع رد هذين القسمين إلى الشعر الغنائي إذا لوحظ أنهما يصـــوران شعور الفرد : وهو حبه الخير وبغضه الشر أو غيرته على الشعب أو الحياة العامة أن تشوه بالنقائض .

والشعر القصصي : فن روائي موضوعي يتناول الشاعر فيه الأحداث التاريخية أو الخرافية للأمة فينظمها ملاحم طويلة تنشد أو توقــع عــلى نحو (الرباب) ، ولعله أسبق الأنواع إلى الوجود لأن القصاص يشغلون أولا بتسجيل المظاهر العاطفة التي تجري في الحياة ، وبعــد عهد يلتفتون إلى أنفسهم فيصورون عواطفها الخاصة بالشعر الغـــنائي أي أن ملاحظة العواطف تسبق تحليلها ومن هنا كان أقدم شعر بين الجماعات يغلب أن يكون قصصا [1].

أمـــا الشـــعر الغنائي : فهو التعبير المباشر عن العواطف الشخصـــية يجد الفرد فيه متنفسا لأحزانه أو أشجانه وصوتا لآماله وآلامـــه يصـــدر فيه الشاعر عن طبعه وينقل عن قلبه ، ويعبر عن شـــعوره ، ويصف فيه ما يحس من خواطر ، وما يجيش في نفسه من خوالج ، يحب ويبغض ويفرح ويحزن ، ويرضى ويغضب فيفيض قلبه

---

[1] ٣١١ وما بعدها : أصول النقد الأدبي أحمد الشايب ط٨ سنة ١٩٧٣ : النهضة .

بما يجد ، وينطق لسانه بما يشعر في أسلوب مؤثر يوقظ المشاعر ويحرك الإحساس ، ولهذا يعد أصفى وأدق صورة للشعر من حيث أوزانه الكثيرة وقوته التأثيرية ، وألوانه المختلفة تبعا لاختلاف الشعر وبدائعه الخيالية ، وفنونه المتجلية في الفخر والحماسة والنسيب والوصف وغيرها .

أما التمثيلي : فلعله أسمى وأشق الأنواع جميعا ، لأنه يجمع بين ما في الشعر القصصي والغنائي فهو من ناحية يشبه القصص في السرد والتتابع ، ومن ناحية أخرى كالغناء لأنه يؤدي غرضه على ألسنة الممثلين ويكون تعبيرا مباشرا عن شخصياهم المختلفة ، والشعر التمثيلي يهدف إلى سرد واقعة أو حادثة أو حكاية مسلسلة من الأحداث لا ينطق فيها الشاعر بلسانه ، وإنما ينطق بلسان الأبطال ، وهو حوار عملي يصور شخصيات مختلفة ويخضع لوحدة القصة وخطتها العامة ، فيجمع بين خاصتي القصص الموضوعية والغناء الذاتية .

والغنائي عند بعض الباحثين أسبق في الوجود من النوعين الآخرين لأن الشعر أصله الغناء ، والإنسان إنما يشعر بنفسه قبل أن يشعر بغيره ، ويتغنى بعواطفه قبل أن يتغنى بعواطف سواه .

ولما كان الشعر مادته الخيال ، والخيال غذاؤه الحس ، والعربي لا يرى من المناظر غير وجوه البادية ، ولا يسمع من الأقاصيص إلا البطولة والحرب ، ولا يعرف من الجمال إلا جمال

المرأة ، أبدع في وصف ما شاهده من حيوان وسهل وجبل وتفنن ما شاء له الحب في التشبيب والغزل [١].

ولأن الشعر الغنائي أدب ذاتي يصف الإحساس ويصور الوجدان قال النقاد والباحثون إن نشأة الشعر العربي كانت ملازمة للغناء ، وساقوا على ذلك دلائل ترجح هذه الصلة والملازمة ، يروي صاحب الأغاني أن المهلهل شرب خمرا مرة مع جماعة من بكر عندما كان أسيرا عند عمرو بن مالك البكري ، فلما أخذ منه الشراب تغنى فيما كان يقوله من الشعر ، وينوح به على أخيه كليب ، ومعنى ذلك أن الشعر الجاهلي ارتبط بالغناء عند أقدم الشعراء . كما يروي أن علقمة الفحل كان يغني شعره وكذلك السليك [٢] بن السلكة ، كما يروي أن الأعشى كان يغني شعره على الآلة الموسيقية المعروفة باسم الصنج ، ومن أجل ذلك سمي صناجة العرب [٣] ويقول حسان موضحا اقتران الشعر بالغناء :

تغن بالشعر إما كنت قائله — إن الغناء لهذا الشعر مضمار

إذن كان الغناء أساس تعلم الشعر عندهم ، ولعلهم من أجل ذلك عبروا عن إلقائه بالإنشاد ، ومنه الحداء الذي كانوا يحدون بـه

---

[١] : ٣١ : تاريخ الأدب العربي : الزيات .

[٢] : ١٣٤ / ١٨ : الأغاني .

[٣] : ١٠٩ / ٩ : السابق .

في أسفارهم وراء إبلهم ، وكان غناء شعبيا عاما [١].

وربما استمدوا من هذا قولهم أنشد الشاعر القصيدة ، والإنشاد ضرب من الغناء .

ويقول بروكلمان : " إنه من المحتمل جدا أن القصائد الجاهلية كان يقصد بها إلى أن تغني مقترنة . بمصاحبة موسيقية "[٢].

أما صاحب كتاب تاريخ الموسيقى العربية فيقول : " ولا ريب في أن الشاعر كان في الأغلب الأعم موسيقيا مثله شاعرا ، وإن يكن واضحا أنه كان أحيانا يصطحب مغنيا ليغني أشعاره مثلما كان يستخدم راوية لروايتها ، ولقد بقيت هذه الفكرة إلى العهود الإسلامية فنجد شاعرا مثل "أعشى همدان" يصطحب موسيقيا مثل أحمد النصيبي " . [٣]

وكان الحداء الذي ارتبط بالرجز غناء شعبيا لازم رحلاتهم وأسفارهم وأعمالهم كحفر الآبار ومنخ الماء منها ، ومبارزة الأقران واستصراخ في العشائر ، وكان يكثر خلف الإبل حثالها على السير الطويل في الصحراء مؤانسة لراكبيها وسائقيها ، والمتأمل لوزن الرجز يجده في تقطيعه وتفاعليه يشبه مساواة حركات الإبل في اهتزازها ومسافات سيرها ونقرات حوافرها ودقات أخفاقها .

---

[١] : ٢٠ : تاريخ الموسيقى العربية فامر .

[٢] ١٣٩ : ١٤٢ دراسات في أدب ونصوص العصر الجاهلي .

[٣] ٢٣٨ : الأدب العربي بين الجاهلية والإسلام .

وكانــت القصــيدة العربية منذ نشأتها الأولى مهيأة للغناء ، وكان الشاعر الجاهلي عندما ينشد القصيدة العربية كان يعدها للغناء ويوفر لها اللفظ الملائم بينه وبين غيره في نسق صوتي معين ، ويوفر لها الــوزن والقافــية والخــيال ومن التقسيم والتصريع لكي يصل إلى الموســيقى الــتي يتطلبها من الغناء ، فالتصريع في القصيدة وكذلك التزام القافية من أهم العوامل التي تؤدي إلى النغم الموسيقي .

ويعــد الناقد الإنجليزي (كورتيرل) القافية في الشعر طريقة ووسيلة طبيعية من طرق التعبير الموسيقي عند كثير من الأمم .

ويــرى الزيات في كتابه تاريخ الأدب العربي مثل ما سبق : " فالشــعر العربي غنائي محض ، لا يعني الشاعر فيه إلا تصوير نفسه والتعــبير عن شعوره وحسه ، والعواطف تتشابه في أكثر القلوب ، ويكــاد التعبير عنها يتفق في أكثر الألسنة ، ومن ثم نشأ فيه التكرار وتوارد الخواطر "[1] .

ويقــول أحمــد الشــايب في كتابه أصول النقد الأدبي : " والغالــب عــلى الشعر العربي هو الغناء ، وذلك الفن الذي يصور العواطف الشخصية ويعتمد على الخيال التفسيري "[2] .

ولذلك يمكننا أن نصف الشعر الجاهلي بأنه شعر غنائي ليس فقــط لأنه ارتبط بالغناء والموسيقى ، ولكن لأنه ذاتي يصور نفسية

---

[1] : ٣١ : تاريخ الأدب العربي .

[2] : ٣١٣ : أصول النقد الأدبي .

صـــاحبه ويعبر عن مشاعره وأحاسيسه وعواطفه وأهوائه ، وهو في ذلـــك يمـــاثل الشعر الغنائي عند الغربيين ، وقد سماه الغربيون شعرا غنائيا لأنه كان يصاحبه عند اليونان عزف على القيثارة [١].

ويقـــول المســـلوت مشيرا إلى سبب غنائية الشعر العربي : " ولعل السر في اعتبار هذا اللون ـــ ما قيل من شعر في الحروب ـــ من الشعر الغنائي ، أن منشأه في الأصل الرغبة في التغني بما يعتلج في الصـــدر من هم أو يطوف بالنفس من رغائب ، ثم كان للعرب من حداء الإبل ليستخفها الطرب ، ويأخذ منها النغم ، فتهتز وتنشط ، وحافـــز أي حافـــز على الغناء ، ومن هنا كانوا يطلقون على إلقاء الشعر إنشادا ، وكان كثير من الشعراء القدماء يتغنون بشعرهم .

ولقد قيل: إن هوميروس صاحب الإلياذة لم يكن يلقي أشعاره إلقـــاء ، بل كان يتغنى بما يحفظه من قصص الأبطال ، ولقد قيل: إن كلمة شعر العربية مأخوذة من كلمة (شير) العبرية بمعنى الترتيلة أو التســـبيحة ، وفي أخذهـــم السجع من هديل الحمامة ، والرجز من إيقاع سير الناقة [٢].

أما الشعر القصصي والتمثيلي :" فلـــيس هناك من يشك في خلو الشعر العربي القديم من القصص والتمثيل ، فليس للجاهلية

---

[١]: ١٣٩ : دراسات في أدب ونصوص العصر الجاهلي .

[٢]: ٢٣٩ : السابق .

إلياذة ولا شاهنامة ، لكن مادة القصص توافرت للأقدمين من عرب الجاهلية لكثرة أيامهم الداخلية والخارجية ، وتوالى أسفارهم وشيوع الأســاطير والخــرافات بيــنهم ، ولكن الشعر القصصي لم يوجد ، وكذلك التمثيل لم يتوافر للعرب عناصره وأسبابه الدينية والفنية [١].

كذلك خلا الشعر العربي من الشعر القصصي والتمثيلي لأن مزاولــتهما تقتضي الروية والفكر ، والعرب أهل بديهة وارتجال ، وتطلــب الإلمــام بطبائع الناس وقد شغلوا بأنفسهم عن النظر فيمن عداهــم ، وتفتقر إلى التحليل والتطويل ، وهم أشد الناس اختصارا للقــول وأقلهم تعمقا في البحث ، وقد قل تعرضهم للأشعار البعيدة والأخطــار الشــديدة ، وحرمتهم طبيعة أرضهم وبساطة دينهم ، واعــتقادهم بوحدانية إلههم ، كثرة الأساطير وهي من أغزر ينابيع الشــعر القصصــي ، فزخرت بحور الشعر العربي بالفخر والحماسة والمــدح والهجــاء والــرثاء والعتاب والغزل والوصف والاعتذار والحكمــة ، وخــلا مع اتساعه ، وتشعب أغراضه وكثرة حروب العــرب وأيــامهم من الملاحم المطولة [٢]. مع كثرة حروب العرب وأيــامهم ، فقد كان لهم من الوقائع الحربية ما لو نظم لكان ملحمة مــن أوفى الملاحــم وأطولها ، وقد عللوا ذلك بضيق الخيال العربي ولكــن يظهر أن السبب أن الملحمة نوع من أنواع التاريخ الأدبي ،

---

(١): ٣١٣ : أصول النقد الأدبي .

(٢) : ٣٢ : تاريخ الأدب العربي .

أي تـــاريخ في قالب شعري ، وتدوين التاريخ وما يتطلبه من تحليل للأشـــخاص وربـــط الحوادث درجة لا تكون إلا مع قدر صالح من الحضارة .

وللأسباب التالية :

١ــ قـــيود الوزن والقافية في الشعر العربي لا تساعد على الإطالة وإنشاء الملاحم الطويلة .

٢ــ الشـــعر القصصي والتمثيلي يحتاجان إلى تدوين وكتابة لأنهمـــا لون من ألوان التقدم والحضارة ، والعربي في الجاهلية لم يكن يعـــرف هـــذه الوسائل ــ إلا القليل ــ وكان بعد العصر الجاهلي محتذيا للقدامى في مناهجهم الأدبية وألوان شعرهم الفنية .

إضـــافة إلى ما سبق اتفق كثير من الباحثين والنقاد على خلو الشـــعر العربي من القصصي والتمثيلي . والشعر العربي لا يعيبه أن ليس فيه هذان اللونان ، لأن اللون الغنائي قد ضرب بسهم في كل غرض ، وتحدث عن خفي العواطف ودقيق المشاعر ووصف الحرب وأبطالهـــا . ومـــع ذلـــك فإن هناك من الباحثين من يرى أن الشعر الجاهـــلي قد عرف مثيلا للشعر القصصي يقول سليمان البستاني : " لا سبيل للزعم بوجود ملاحم لعرب الجاهلية على نحو ما يراد منها بعـــرف الإفرنج ، ولكن للجاهليين نوعا آخر من الشعر القصصي ، مما يعز وجوده في سائر اللغات ، وذلك في الملاحم القصيرة المقولة في حـــوادث مخصوصة ، فجميع شعراء الجاهلية وبعض المخضرمين قد

ســـلكوا هذا المسلك وأجادوا فيه ، ولو تصفحت كتاب الأغاني ومفضـــليات الضبي وأمثالهما من كتب الأدب والشعر لرأيتها ملأى بهذه المنظومات الغراء "[١] .

ويقول طه حسين : " خصوم القديم وأنصار الحديث يزعمون أن الأدب العـــربي كـــان حسنا في عصره وأصبح الآن غير ملائم ، ذلـــك لأن هناك فنونا من الأدب لم يعرفها الأدب العربي ، فالشعر العربي فقير بالنسبة للشعر الأجنبي فليس فيه شعر قصصي ولا تمثيلي كمـــا كان عند اليونان ، وإذن فلا بد من العدول عن الأدب القديم إلى الأدب الحديـــث ، هـــذا غريب ، فلست واثقا كل الثقة من أن الأدب العـــربي يخلو من القصص ، وأخشى أن يكون من يجحدون وجـــود الأدب القصصـــي عند العرب إنما جحدوه لأنهم لم يحققوا بالضبط معنى الأدب القصصي ، فالذين يقرأون الشعر الجاهلي أو ما صـــح مـــنه والذين يقرأون الشعر الأموي كشعر جرير والفرزدق والأخطـــل يلاحظون أن مزايا كثيرة من خصائص الشعر القصصي موجودة في الشعر العربي ، فأهم ما يمتاز به هذا الشعر القصصي أن شخصية الشاعر تفنى ، وأن هذا الشعر يكون مرآة لحياة الجماعة ، وأنـــا اســـتطيع أن أؤكد لكم أنا لا نعرف شيئا يصور الأمة أصدق تصوير ، ويضطرنا أن نلمسها بأيدينا كالشعر العربي ، ثم يردف قائلا : إذا قرأتم قصيدة من شعر جرير أو الفرزدق أو الأخطل فأنتم ترون

---

[١]: مقدمة الإلياذة . سليمان البستاني .

العـــرب في البادية ، وتسمعونهم يتحدثون ، وتحسون حياتهم ، كما تحسون أنفسكم ولا تكادون تلمسون شخصية الشعراء في أشعارهم فإذا لم توجد عندنا إلياذة ولا أوديسة فليس من شك في أن ما أدته الإلـــياذة أو الأوديســـة قد أداه لنا الشعر القديم من تصوير للحياة الاجتماعية وتصوير حياة الأبطال ، ثم من الذي يستطيع أن ينكر أن في أدبنا العربي القصصي جمال ليس أقل من جمال الإلياذة والأوديسة وليس ذنب الأدب العربي ألا يقرأه الناس ولا يعرفوه "[1] .

---

[1]: ١٥ : من حديث الشعر والنثر ، د/ طه حسين .

الفصل الثالث

(فنون الشعر الجاهلى)

فنون الشعر الجاهلى

تمـــهيد :

إن أدق ما يوضح لنا موضوعات الشعر الجاهلى هو ذلك الذى نجده فى مؤلفات السابقين ممن كانوا قريبي العهد به فى مدوناتهم الأولى ، فمن خلال استقرائهم لنماذج الشعر وتبصر مراميها ومعرفة أهدافها ، واستكناه أسرارها ، وجدوا أن للشعر أسسا وأركانا ، يقول ابن رشيق فى العمدة : " قال بعض العلماء : بنى الشعر على أربعة أركان وهى المدح والهجاء والنسيب والرثاء . وقال أبو هلال العسكرى : وإنما كانت أقسام الشعر فى الجاهلية خمسة : المدح والهجاء والوصف والتشبيب والمراثى ، حتى زاد النابغة قسما سادسا وهو الاعتذار فأحسن فيه "[1] .

ولعل من الملاحظ فيما أورده ابن رشيق نقلا عن بعض العلماء أن الشعر مبنى على أربعة أركان ، وتأثر هؤلاء بما شاع من معارف وعلوم فى عصرهم لأن ذلك التقسيم أقرب ما يكون إلى أبواب الفقه والنحو والبلاغة وغيرها ، ومع أن الأركان السابقة قائمة على أو مستوعبة للموضوعات الرئيسية للشعر فى عمومه ، إلا أن هناك من يفرع ويستنبط موضوعات أخر للشعر بالنظر إلى

---

[1] ٩١ / ١ : ديوان المعانى .

الحالات النفسية التى تنتاب الإنسان فقالوا : " قواعد الشعر أربعة : الرغبة والرهبة والطرب والغضب ، فمع الرغبة يكون المدح والشكر ومع الرهبة يكون الاعتذار والاستعطاف ، ومع الطرب يكون الشوق ورقة النسيب ، ومع الغضب يكون الهجاء والتوعد والعتاب الموجع " [1].

وإذا كان الشعر مبعثه نفس الشاعر ، وعاطفته منبع قوته وتأثيره فى المتلقى رهن بمدى تجاوب الشاعر مع تجربته وانفعاله وتفاعله ، وإذا كان الشعراء يتفاوتون فيما بينهم استعدادا أو تميؤا وموهبة ومزاجا ، فإن ما يتأتى الشاعر أن يبدع فيه لا يتأتى لآخر وهذا ما فطن إليه السابقون وأشاروا إليه ، قال ابن قتيبة :" الشعراء بالطبع مختلفون ، فمنهم من يسهل عليه المديح ويتعذر عليه الهجاء ، ومنهم من تسهل عليه المراثى ويتعذر الغزل ، وقيل للعجاج : إنك لا تحسن الهجاء ، فقال : إن لنا أحلاما تمنعنا من أن نظلم وأحسابا تمنعنا من أن نظلم ، وهذا ذو الرمة أحسن الناس تشبيبا وأجودهم تشبيها وأوصفهم لرمل وهاجرة وفلاة وماء وقراد وحية ، فإذا صار إلى المديح والهجاء خانه الطبع ، وذلك الذى أخره عن الفحول فقالوا فى شعره أبعار غزلان ونفط عروس .

---

[1] ٢٤٩ : الأدب العربي بين الجاهلية والإسلام .

وكان الفرزدق زير نساء وصاحب غزل ، وكان مع ذلك لا يجيد التشبيب ، وكان جرير عزهاة عن النساء عفيفا ، وكان مع ذلك أحسن تشبيبا ، وكان الفرزدق يقول " ما أحوجه مع عفته إلى صلابة شعرى ، وما أحوجنى إلى رقة شعره لما ترون " [١].

وإذا كان الشاعر الجاهلى ـــ ومن ورائه قبيلته ـــ قد جعلوا الشعر همهم ، وأولوه كبير اعتنائهم ، وصبوا فيه مشاعرهم ، واتخذوه فنهم الأدبي الأول ، إذا كانوا قد صنعوا ذلك ، فإن الدارسين حين يدرسونه ، يصنفون قصائده فى موضوعات كبرى حسب الهدف من القصيدة ، وما تحتويه فى داخلها من أهم محتوياتها الموضوعية وأطلقوا على هذا التقسيم اسم : أغراض الشعر [٢].

وقد حاول الأدباء تبويب الشعر العربي وتقسيمه إلى أقسام تجمع متفرقه وتلم شعسه ، ولكنهم اختلفوا فى ذلك على مدى العصور ، فأبو تمام فى الحماسة يقسم الشعر إلى عشرة أبواب هى : الحماسة والرثاء والأدب والنسيب والهجاء والمديح والوصف ثم باب السير فباب الملح ثم باب ذم النساء ، ويجعل القسم الأول والأكبر من كتابه (باب الحماسة) ، على أن الثلاثة الأخيرة منها ليست بذات خطر ، ويمكن إدماجها فى غيرها أو إهمالها ، ويبقى المعول عليه

---

[١] ٢٦ : الشعر والشعراء .

[٢] ٢٠ : الأدب العربي فى الجاهلية .

من هذه الأقسام هى السبعة الأولى التى ظلت الأبواب الرئيسة للشعر العربي ، وقد حاول البارودى فى العصر الحديث حين ألف مختاراته قسمها إلى سبعة أقسام هى : الأدب والمدح (وأدمج فيه الفخر والحماسة ، لأن الذى يفتخر أو يتحمس يمدح قومه أو نفسه وأعماله وجهوده) والرثاء والوصف والنسيب والهجاء والزهد ، وكما نرى فهو تقسيم قريب من تقسيم أبى تمام ، أما البحترى فحين جمع مختارات من الشعر العربي رأى أن الأبواب السبعة لا تستوعب كل الشعر العربي فقسم كتابه إلى مائة وسبعين بابا محاولا أن يحصر الموضوعات التي طرقها الشعراء على أن هذه المحاولة قد زادت التقسيم إيهاما وغموضا وتعقيدا ، فالأبواب الواسعة يمكن أن يندرج تحتها كثير من الأشعار المتقاربة فى المنهاج والهدف ومرونة الأقسام تساعد على الاستيعاب والحصر .

أما الموضوعات الضيقة فتمنع أن يدخل فيها أشعار أخرى مهما اشتد الشبه وتماثلت السمات بينها ، وليس فى هذا التقسيم فائدة إلا لمن أراد البحث عن بعض ما قيل فى موضوع خاص كالمطالبة بالثأر أو ركوب الموت خشية العار ، أو الامتناع عن الصلح ، فهذا كله قد نجده فى باب الحماسة من كتاب أبى تمام ، ولكنه ليس مقسما إلى هذه الأقسام المحدودة [1].

---

[1] ٢٥٠ : الأدب العربي بين الجاهلية والإسلام .

وما ذكرناه آنفا يوافق ما ذهب إليه الدكتور / شوقي ضيف فى محاولة تقسيم الشعر العربي جاهليا وغير جاهلى إلى موضوعات تطابق فيما ذهب إليه الكلام السابق قائلا : لعل أقدم من حاولوا ذلك هو أبو تمام المتوفى سنة ٢٣٢هـ ، حين ألف ديوان الحماسة فقد نظم فى عشرة موضوعات تفصيلها كما سبق .

ووزع قدامة فى كتابه نقد الشعر هذا الفن على ستة موضوعات ، وحاول بعقله المنطقى أن يرد الشعر إلى بابين أو موضوعين هما : المدح والهجاء ، فالنسيب مديح وكذلك المراثى ، ومضى يعين المعانى التى يدور حولها المديح ، وهى فى رأيه الفضائل النفسية ، ونجد نفس المحاولة فى تضييق موضوعات الشعر واضحة فى كتاب نقد النثر ، فهو مديح وهجاء وحكمة ولهو ، ويدخل فى المديح المراثى والافتخار والشكر واللطف فى المسألة ، ويدخل فى الهجاء الذم والعتاب والاستبطاء والتأنيب ، كما يدخل فى الحكمة الأمثال والزهد والمواعظ ، أما اللهو فيدخل فيه الغزل والطرد وصفة الخمر والمجون [1].

وإلحاقا لما سبق أن ذكرناه من رأى لابن رشيق نوضح أنه جعل موضوعات الشعر فى كتابه العمدة تسعة : وهى النسيب والمديح والافتخار والرثاء والاقتضاء والاستنجاز والعتاب والوعيد

---

[1] ١٩٥ : العصر الجاهلى .

والإنذار والهجاء والاعتذار ، ومن السهل أن يرد موضوع الاقتضاء والاستنجاز إلى الـمديح والوعيد ، والإنذار إلى الهجاء ، وأن يضم العتاب إلى الاعتذار ، وأيضا فإنه نسى موضوع الوصف .

ويعلق شوقي ضيف على تقسيم أبي هلال العسكري قائلا : وهو تقسيم جيد غير أنه نسى باب "الحماسة "،وهو أكثر موضوعات الشعر دورانا على لسانهم .

على أنه من الصعب إيجاد ترتيب تاريخي لموضوعات الشعر بمعنى تحديد أي موضوعات الشعر ظهر أولا ؟ ، وكيف نشأت وتطورت ، خاصة إذا عرفنا أن الشعر العربي كان مبعثه استجابة لأحاسيس النفوس من حب وبغض ، والتعبير عن رغباتها من إذاعة المكارم ونشر المحامد ، وتصوير عاطفة آلامها ، فقد حبيب أو موت عزيز ، أو اغتراب خل وفي ، ومن هنا تنوعت أغراضه ، وتشعبت فنونه وتناول الغزل والمدح والهجاء والفخر والرثاء والوصف والحماسة والاعتذار ، ولكل مذهب وفن لغته التي تناسبه وأسلوبه الذي هو الصق بـه [1] .

على أن الحكم لموضوع من موضوعات الشعر بالأسبقية في الظهور قبل غيره يفتقد المنطق ويعزوه الدليل ، لأن الشاعر هو قبل

---

[1] ١٥٩ ـ ١٦٠ : العصر الجاهلي .

كل شئ محور النص الشعرى بموضوعاته وكما أن العاطفة لها دورها الفاعل فى نقل التجربة إلى حيز اللغة المعبر به عنها ، فإن العقل له دوره فى بناء النص نفسه ، ولذلك فإن الشاعر إذا تغزل فى موقف قولا ، فقد سبق ذلك الوصف إلى عقله فكرا ، وإن مدح شخصا فذلك لأنه عرف معنى الهجاء فى الوقت نفسه ، وهكذا . هذا بالنسبة لشاعر تنوعت عنده التجارب ، فما بالنا بأكثر من شاعر يختلف بينهم دواعى الشعر ومثيراته ، وظروفه ومتطلباته ، فبينما عن لهذا أن يمدح ، كان الداعى للآخر لأن يصف أو يهجو أقوى ، مع اتفاق الزمن وائتلاف التاريخ ، وللدكتور شوقي ضيف رأى سبق إليه فى موضوع أغراض الشعر يمكن مراجعته فى كتابه العصر الجاهلى من سلسة تاريخ الأدب العربي [1].

وعلى كل حال فإن ما بين أيدينا من دواوين الشعر ومأثورات الجاهليين كما فى مصادرها تدلنا على أن موضوعات الشعر الجاهلى خاصة والشعر العربي بوجه عام ، لها سماتها ولكل موضوع أسلوبه ، فالغزل يحتاج إلى رقة اللفظ وعذوبته ، والفخر يستدعى الجلبة وقوة الأسلوب وضخامة المعنى ، وهكذا حتى وجدنا أن فنون الشعر كلها ظاهرة متحققة بأروع أسلوب وأجلى بيان فيما يلى من موضوعات :ــ

---

[1] يراجع ، ١٦٠ وما بعدها العصر الجاهلى .

الحماسة والفخر :

حمس :اشتد وصلب فى الدين والقتال ، والحماسة : الشجاعة والحماسة فى الشعر التغنى بالصفات التى تنبئ عن القوة ، وتدل على الشجاعة والاستهانة بالصعب من الأمور والعسير من المخاطر ويكون الشاعر فيه صوت القبيلة الذى يعلن عنها تلك الصفات ويسجلها على أبرع ما يكون التسجيل ، وجماع المعانى التى يتطرق إليها الشاعر فى هذا الموضوع هى تلك المعانى التى تأخذ بكل ما هو حميد واستنطاق المآثر وإن كان ادعاءا يذكر مزايا قبيلته ونفسه وقدراته وصفاته وخلائقه وحسن تعامله مع الناس ، وقد يتجاوز ذلك إلى ذكر صبواته وأعمال فتوته ومغامراته مع النساء ونحو ذلك من خوض غمار الحروب وذم الجبن والخور والفرار .

وقد أكثر الشعراء العرب من تناول هذه المعانى والإلحاح على هذا الموضوع ، لأن الشجاعة والإقدام وركوب الأهوال وإيثار الموت والأخذ بالثأر من الخلائق الطبيعية المركوزة فى أعماق نفوسهم إذ كانت حياة البداوة والتنافس بين القبائل والحروب التى لا تنقطع تستدعى ذلك أشد الاستدعاء [1].

---

[1] ٣٤٨ ـــ ٢٥١ : الأدب العربي بين الجاهلية والإسلام .

وقد كثر هذا الشعر حتى ما نكاد نرى شاعرا جاهليا ليس له افتخار ، وازدادت كثرته فى شعر الفرسان من أمثال مهلهل بن ربيعة وعنترة العبسى ، وزعماء الصعاليك مثل عروة بن الورد وتأبط شرا والشنفرى ، وغيرهم ، كما زاد فى شعر الشعراء الفتيان من أمثال طرفة بن العبد والحادرة العبسى وقيس بن الخطيم الأوسى وغير هؤلاء كثيرون .

على أن سائلا يمكن أن يسأل عن سر الجمع بين الحماسة والفخر فى موضوع شعرى واحد فى حين أن كلا منهما يمكن أن يقوم بنفسه موضوعا مستقلا بذاته وقد قرن بعض الدارسين بينهما فى حين أن آخرين تناولوا كلا على حدة نقول : إن الحماسة تمهيد وتأسيس للفخر ، والفخر مبنى على الحماسة ولذا كثيرا ما يمزج الشاعر بينهما حتى لا نكاد نلمس فرقا فى المعنى بينهما فى القصيدة الواحدة ولذا ذكرناهما معا ، لأن الحماسة هو الشعر الذى يذكر فيه أحاديث الحرب افتخارا بمواقف الأبطال فيها أو وصفا لوقائعها وآلامها ، أو كانت الأحاديث عنها داعية للحث عليها والثبات فيها أو الإغراء بها أو نحو ذلك مما يتصل بأسبابها ، ويدفع إلى إثارتها لا إلى النفرة منها ، ولأن الإنسان العربي فى جاهليته عاش حياته مستعدا للحرب متهيئا لها ، عاديا على غيره أو معديا عليه ، كثر حديثه عن الحرب ومواقفه فيها وتعييره غيره بالنكوص عنها أو الفرار منها ،

وعمرت بهذا الشعر دواوين الشعراء[1] الجاهليين ، يقول بروكلمان: " ولكن الحرب كانت فى بعض الأحيان تكاد تستأثر بكل تفكير البدو ، ولذلك لعبت دورا من أهم الأدوار فى أشعارهم ، ولم يكن عرضا أن سميت أقدم مختارات الشعر العربي بالحماسة نظرا إلى أول أبوابها وأغزرها مادة ، وهو باب التعبير عن ضروب الشجاعة المختلفة ، وكان العرب يفرغون حمية الشجاعة وثوراتها فى أبيات من الشعر قبل القتال وفى أثناء مراحله المحتدمة كسائر الأجيال المساوية لهم فى مرتبة الحضارة ، وبعض الكتب الشعبية تقدم حشدا من أمثال هذه المقطوعات الشعرية التى كانت تقال فى استفتاح القتال أو مصاحبته كما فى كتاب " صفين "لابن مزاحم [2].

ومن ثم رأينا هذا اللون من الشعر يحتل المكان الأول في مختارات أبي تمام المتوفى سنة ٢٣١هـ ، حتى سميت باسم الحماسة وكذلك فعل البحترى المتوفى سنة ٢٨٤هـ فى مختاراته ، وابن الشجرى المتوفى سنة ٤٥٢هـ وغيرهم كثير ممن جمع شعرا وسمى ما جمع بالحماسة وقد أشرنا إلى ذلك حين تحدثنا عن مصادر الشعر .

والفخر : تمدح بكرم الخلال وطيب الشمائل ، ومباهاة الشاعر بنفسه أو قبيلته ، وهو كذلك من أخص صفات العرب ومن

---

[1] ٢٣ : الأدب العربي فى الجاهلية .

[2] ٤٩ / ١ : تاريخ الأدب العربي . بروكلمان .

أوسع الأبواب فى شعرهم ، حتى إن بعض قصائدهم الطوال قيل فى هذا الغرض كمعلقة عمرو بن كلثوم أو مجمهرة أمية بن أبى الصلت وكانوا يفخرون بالشجاعة والإقدام والنجدة وإغاثة الملهوف وحماية الجار والكرم ، ونحو ذلك مما كانوا يمتدحون به ، ولكنهم كانوا لا يبالغون فى الفخر ولا يسرفون فى التمدح [١].

وفى الحماسة والفخر يقول الفند الزمانى[٢] في حرب البسوس :

صفحنا عن بنى ذهـــــل ... وقلنا القوم إخـــــوان [٣]
عسى الأيام أن يرجعـــــــ ... ــــن قوما كالذى كانوا
فلما صرح الشـــــــــر ... فأمسى وهو عريــــان [٤]

---

[١] ٢٥٢ ـــ ٢٥٣ : الأدب العربي .

[٢] الشاعر هو : شهل بن شيبان بن ربيعة بن زمان الحنفى ، منسوب إلى جده وهو شاعر جاهلى ، كان أحد فرسان ربيعة المشهورين المعدودين ، شهد حرب بكر وتغلب وقد قارب المائة سنة ، وهذه الأبيات من قصيدة قالها فى حرب البسوس التى كانت بينهما ، وذلك أن بكر بن وائل بعثوا إلى بنى حنيفة فى حرب البسوس يستنصرونهم فأيدوهم به وبقومه بنى زمان وعدادهم فى بنى حنيفة (٨:ديوان الحماسة بشرح مختصر لابن زكريا التبريزى ط ١٩١٦م).

[٣] صفحنا : أعرضنا ، وقوله عن بنى ذهل يروى عن بنى هند ، وهى هند بنت مر بن أد أخت تميم . يقول أعرضنا عن هؤلاء القوم المتحاربين لأن بينهم رحما وقرابة ، فعسى أن تردهم الأيام إلى ما كانوا عليه من قبل من تواد وتوافق .

[٤] صرح : انكشف ، وقوله عريان ضربه مثلا لظهور الشر ووضوحه ، ويروى فأضحى وهى أحسن لأن الشيئ فى الضحى أظهر وأبين .

ولم يبق سوى العـــــدوا ن دناهم كما دانـــــوا [١]

مشينا مشيـــــــة الليث غدا والليث غضبـــــان [٢]

بضرب فيه توهـــــــين وتخضيع وإقـــــــران [٣]

وطعن كفم الــــــزق غدا والزق مـــــــلآن [٤]

وبعض الحلم عند الجهـــــل للذلة إذعـــــان [٥]

وفى الشر نجـــــاه حين لا ينجيك إحســـــان [٦]

وقال تأبط شرا [٧]:

إذا المرء لم يحتل وقد جد جده أضاع وقاسى أمره وهو مدبر [١]

---

[١] العــدوان : الظلم الصريح ، والدين : الجزاء ، يقول : لما أبو أن يدعوا الظلم ولم يبق إلا أن نقاتلهم كما قاتلونا جازيناهم بفعلهم القبيح كما ابتدؤنا به .

[٢] غدا : ابتكر ، والغضب هنا كناية عن الجوع لأنه يصحبه ـــ يقول مشينا مشية الأسد ابتكر وهو جائع .

[٣] التوهين : التضعيف . والتخضيع : التذليل ، والإقران معناه الاسترخاء .

[٤] إذا : بمعنى سال ـــ وهذا غاية فى التشبيه .

[٥] الإذعان :الإنقياد ، اعتذر فى هذا البيت عن تركهم التحلم مع الأقرباء أنه يفضى إلى الذل .

[٦] قولــه : " وفى الشر " أى فى دفع الشر ، ويجوز أن يكون وفى عمل الشر أى وفى الإساءة مخلص إذا لم يخلصك الإحسان (شرح التبريزى للحماسة) .

[٧] اسمه ثابت وكنيته أبو زهير ، وهو من بنى فهم وفهم وعدوان أخوان وكان أحد العدائــين ، وإنما لقب بهذا اللقب لأنه تأبط سكينا ذات يوم وخرج فسئلت عنه أمه ، فقالت لا أدرى إنه تأبط شرا وخرج ، وقيل غير ذلك .

ولكن أخو الحزم الذى ليس نازلا به الخطب إلا وهو للقصد مبصر[٢]

فذاك قريع الدهر ما عاش حول إذا سد منه منخر حاش منخر[٣]

أقول للحيان وقد صفرت لهم وطابى ويومى ضيق الحجر معور[٤]

هما خطتا إما إسار ومنـــــة وإما دم والقتل بالحر أجدر[٥]

---

(١) الحيلة : الحذق فى تدبير الأمور والجد والاجتهاد ، والثانية للتأكيد يريد أن الإنسان إذا نزل به ما يكره ولم يحتل فى خلاصه منه وضاع أمره وقاسى منه ما يقاسي.

(٢) الخطب : الكرب ، والقصد : الرشد ؛ يقول إن صاحب الحزم هو الذى يستعد للأمر قبل نزوله ، كما قيل : قبل الرماء تملأ الكنائن .

(٣) قريع الدهر : المجرب للأمور ، والحول : البصير بتحويل الأمور ، وقولـه إذا سد منه منخر ... إلخ مثل للخلاص من الشدة .

(٤) لحيان : بطن من هذيل ، وصفرت : خلت ، والوطاب جمع وطب : سقاء اللبن وقولـه ضيق الحجر : مثل لضيق المنفذ ، والمعور : المنكشف العورة ، أى أنه يقول لهم ، وهو فى هذه الحالة ، ومقول القول الآتى فى البيت بعده وهو قولـه : هما خطتا إلى آخر البيت .

(٥) خطتا : مثنى خطة ، وهى الأمر والقصة وبينهما بقولـه : إما إسار ، أى أسر ومنة ، وإما دم أى قتل وحذف النون من خطتان لطول الكلام ـ والمعنى ليس لى إلا واحد من أمرين على زعمكم إما استئسار والتزام منتكم إن أردتم العفو وإما قتل وهو بالحر اجدر أى أحق مما يكسبه الذل وجملة القتل ...إلخ اعتراضيه .

وأخرى أصادى النفس عنها وإنها ... لمورد حزم إن فعلت وتصدر [١]

فرشت لها صدرى فزل عن الصفا ... به جؤجؤ عبل ومتن مخصر [٢]

فخالط سهل الأرض لم يكدح الصفا ... به كدحة والموت خزيان ينظر [٣]

فأبت إلى فهم وما كدت آئبا ... وكم مثلها فارقتها وهى تصفر [٤]

يحكى تأبط شرا فى هذه الأبيات مفتخرا موقفا تعرض له كاد يموت فيه لولا أنه احتال وفكر فى انقاذ حياته من طالبيه ، وكان بنو لحيان من هذيل أخذوا عليه طريق جبل وجدوه فيه يجنى عسلا ،

---

[١] أصاداه: إدارة الرأس فى تدبير الشيئ ، ويقول : وههنا خطة أخرى أدير رأيى فيها ، وإنما هى الموضع الذى يرده الحزم ويصدر عنه إن فعلت وبينها فى البيت بعده .

[٢] فرشــت : بسطت ، بين هذا كيفية مزاولته لنفسه . والجؤجؤ : العبل الصدر الضخم ، وأراد بمتن مخصر : ظهر دقيق ، والمعنى : أنه فرش لأجل هذه الخطة صدره علي الصفا ، وذلك حين صب وطابه .

[٣] الخلط : أصله تداخل أجزاء الشيئ بعضها فى بعض ، وأراد به هنا الوصول ، ولم يكدح : أى لم يؤثر . وخزيان من الخزاية وهى الاستحياء وينظر بتحسير يقول : أســهلت ولم يؤثر الصفا فى صدرى أثرا ولا حدثا ، والموت كان قد طمع فى فلما رآنى تخلصت بقى مستحيا ينظر ويتحسر .

[٤] فابت : أى رجعت ، وفهم اسم قبيلة ، والضمير فى (مثلها) يعود إلى هذيل وتصفر : من الصفير ، كناية عن تأسفها على خلاصه منها ، يقول : رجعت إلى فهــم ومــا كدت أرجع إليها لمشارفتى على التلف ، وكم مثلها فارقتها وهى تتأسف .

ولم يكن له طريق غيره فأقبلوا عليه وقالوا : استأسر أو نقتلك ، فكره أن يستأسر ، وصب ما معه من العسل على الصخر ووضع نفسه عليه حتى انتهى إلى الأرض من غير طريقهم فصار بينه وبينهم ثلاثة أيام ، ونجا منهم ، فحكى القصة فى هذه الأبيات ، والملاحظ أن تأبط شرا قد نحا منحى مبتكرا فى التعبير عن المقدرة على حسن التصرف وتفتق عقله عن الحيلة التى أنقذ نفسه بها .

وقال عمرو بن كلثوم مفتخرا بأيام قومه وغاراتهم المشهورة :

أبا هند فلا تعجل علينا	وانظرنا نخبرك اليقينا [1]
بأنا نورد الرايات بيضا	ونصدرهن حمرا قد روينا [2]
وأيام لنا غر طوال	عصينا الملك فيها أن ندينا [3]
وسيد معشر قد توجوه	بتاج الملك يحمى المحجرينا [4]
تركنا الخيل عالقة عليه	مقلدة أعنتها صفونا [5]
متى ننقل إلى قوم رحانا	يكونوا فى اللقاء لها طحينا

---

[1] انظرنا : امهلنا .

[2] روينا : أى من دماء أعدائنا .

[3] أى ونخبرك بأيام حرب لنا .

[4] المحجريون : اللاجئون .

[5] أى قتلناه ونزلنا لأخذ سلبه ، فبقيت خيولنا واقفة عليه صافنة ، والصافن : القائم أو الذى يرفع إحدى قوائمه لعبا .

وقد علم القبائل من معـــد إذا قبب بأبطحهـا بنيـــنا

بأنا الحاكمون بما أردنـــا وأنا النازلون بحيث شينـــا

ونشرب إن وردنا الماء صفوا ويشرب غيرنا كدرا وطيـــنا

إذا بلغ الفطام لنا رضيـــع تخر له الجبابر ساجــــدينا

الأبيات السابقة من معلقة عمرو بن كلثوم وهى من القليل الذى بقى من شعره الذى لم يصلنا من فى ثنايا مصادر الشعر الجاهلى إلا هذه ، وبعض أبيات قصيرة فى الفخر بقومه ، وقد انشغل برياسة القبيلة وزعامتها وتصريف شئونها ، فهو سيد تغلب وقائدها فى حربها وكانت قبيلته تعيش فى جزيرة الفرات ، وعرفت بالعزة والصرامة ، ولعل تلك المعانى تظهر بجلاء فى الأبيات التى ذكرها له . وقصتها أن أبا الأسود عمرو بن كلثوم بن مالك بن عتاب ، نشأ والحروب تشتعل حوله بين بكر وتغلب ، ومن بينها حرب البسوس التى اشتعلت نيرانها أربعين سنة كما تذكر المراجع ، تزيدها الأحقاد والمفاخرات اشتعالا حتى وئدت نارها بصلح بين القبيلتين على يد ملك الحيرة المنذر ، ولما تولى عمرو بن هند الحيرة حذا حذو أبيه . وقيل إن عمرو قال يوما لندمائه " هل تعلمون أحدا من العرب تأنف من خدمة أمى ؟ قالوا : " لا نعلمها إلآ ليلى أم عمرو بن كلثوم ، لأن أباها مهلهل ربيعه ، وعمها كليب وائل أعز العرب ، وبعلها كلثوم بن عتاب فارس العرب ، وابنها عمرو بن كلثوم سيد قومه "

فأرسل عمرو بن هند إلى عمرو بن كلثوم يطلب زيارته وزيارة أمه لأمه ففعل ، وكان عمرو بن هند قد أوعز إلى أمه أن تنحى الخدم وتستخدم ليلى ، فقالت هند : يا ليلى ناوليني ذلك الطبق " فقالت : لتقم صاحبة الحاجة إلى حاجتها ، فأعادت عليها فصاحت ليلى : "واذلاه يا لتغلب " فسمعها عمرو بن كلثوم فثار الدم فى وجهه فقام إلى سيف لعمرو بن هند معلق ، وضرب به رأس عمرو بن هند حتى قتله وسار وقومه إلى الجزيرة وفى هذا بعض معلقته .

والأبيات تبنئ بالاعتداد بالنفس والقبيلة وعزته وعزة قومه وقوتهم ومكانتهم بين القبائل ، وصارت القصيدة بيانا مفعما يسجل المآثر ، ويبقى مع الزمن ، وقد أثرت فى نفوس تغلب فخرا بها ، واتخذوها أنشودتهم .

ومن النماذج التى تمتزج فيها الحماسة مع الفخر ويختلط به قول وداك بن ثميل المازنى فى يوم لهم على شيبان :

رويد بنى شيبان بعض وعيدكم ... تلاقوا غدا خيلى على سفوان

تلاقوا جيادا لا تحيد عن الوغى ... إذا ما غدت فى المأزق المتدانى

عليها الكماة الغر من آل مازن ... ليوث طعان عند كل طعان

مقاديم وصالون فى الروع خطوهم ... بكل رقيق الشفرتين يمـانى

إذا استنجدوا لم يسألوا من دعاهم ... لأية حرب أم بأى مكـان

ويقول عمرو بن الاطنابة مفتخراً بخلال كريمة وصفات معتادة منه ومن قومه ، يتمثل بعضها فى صيانة الجار والحفاظ على الشرف والكرم والجود ، وحنو الغنى على الفقير ، والإقدام فى الحروب دون خشية من الموت :

إنى من القوم الذين إذا افتــدوا ... بدأوا بحق الله ثم النائـــــل

المانعين من الخنا جـــــارهم ... والحاشدين على طعام النـــازل

والخالطين فقيرهم بغنيهـــــم ... والباذلين عطاءهم للسائــــل

والقاتلين لدى الوغى أقـــرانهم ... إن المنية من دراء الوائـــــل

وقد كان حاتم الطائى يفتخر بأنه سيد ماله ينفقه فى فك الأسرى وإغاثة المحتاجين [1] : ـــ

إذا كان بعض المال ربا لأهلــه ... فإنى بحمد الله مالى معبـــــد

وهو يقسم أنه يؤثر الضيفان على نفسه وهو جائع اتقاء الذم وإنه ليستحى أن يأكل وحده ، فهو يوقد النار ليهتدى بها الأضياف:

أما الذى لا يعلم الســـــر غيره ... ويحيى العظام البيض وهى رميم

لقد كنت اختار القرى طاوى الحشا ... محافظـــــة مـــن أن يقال لئيم

وإنى لأستحى يمينى وبينهـــــــا ... وبين فمي داجـــى الظلام بهيم

---

[1] ٢٥٤ : الأدب العربي بين الجاهلية والإسلام .

ويقول طرفة بن العبد مفتخرا بالاعتداد بنفسه وصفاته وفلسفته فى الحياة فهو فتى الفتيان الكريم الذى لا يبخل بالعطاء ، صاحب الرأى والمشورة ، ذو النسب الرفيع يعز ويشرف من انتسب إليه :

إذا القوم قالوا من فتى خلت أننى
عنيت فـــــلم أكسل ولم أتبلد

ولست بحلال التلاع مخافـــة ... ولكـــن متى يسترف القوم أرفد

وإن تبغنى فى حلقة القوم تـــلقنى ... وإن تقتضينى فى الحوانيت تصطد

متى تأتنى أصبحك كأسا رويـــة ... وإن كنت عنها غانيا فاغن وازدد

وإن يلتق الحى الجميع تـــلاقنى ... إلى ذروة البيت الرفيع المصمـــد

ويقول عنترة فى معلقته مستعرضا شجاعته وبأسه فى الحروب وقوته وخبرته بها ومخافة العدو ملاقاته ، وحذقة لفنون القتال ومهارته فى استخدام أدواته ، وقد قرن كل ذلك بعفته وغنى نفسه من التكالب على المغانم فور هزيمة العدو وقهره : —

هلا سألت الخيل يا ابنة مـــالك ... إن كنت جاهلة بمـــا لم تعلمى

يخبرك من شهد الوقيعـــة أننى ... أغشى الوغى وأعف عن المغنم

ومدجج كره الكماة نـــزاله ... لا ممعن هربا ولا مستسلـــم

جادت له كفى بعاجـــل طعنة ... بمثقف صدق الكعوب مقـــوم

فشككت بالرمح الأصم ثيابــه ليس الكريم على القنا بمحــرم

ويلاحظ بوجه عام أن الشعراء يستمدون مفاخرهم من المظاهر البدوية الصادقة دون تكلف للمغالاة أو إمعان فى المبالغة ، أو جنوح عن المعقول ، وإن كنا لا نعدم فى بعض النماذج وعند بعض الشعراء أنماطا من المبالغة والمغالاة للتعبير عن الذات وتضخيمها ، وإثباتا للتفوق على الآخرين وإمعانا فى وصف الشاعر نفسه بالتفرد يقول عنترة : ـــ

وأنا المنية فى المــواطن كلهـــا والطعن منى سابق الآجـــال

لكنها مبالغات قريبة ونادرة فى عموم الشعر الجاهلى ، وذلك لأنها تنافى الصدق الذى نلمسه عند الشعراء فى التعبير عن حياتهم وبيئتهم البدوية البعيدتين عن التعقيد .

وهكذا يظل الشاعر الجاهلى معبرا عن الأمجاد ومجسدا لمعانى الفتوة والغلبة والفوز ، طالع دواوين الشعراء ومصادر الشعر الجاهلى سنجد مثلا فى المفضليات قصيدة ربيعة بن مقروم يذكر فيها أمجاد قبيلته فى أيام (بزاخة والنسار وطخفة الكلاب وذات السليم) وكذلك قصائد بشر بن أبى خازم الأسدى فى المفضليات أيضا فسنجده يفصل الحديث عن حروب قومه مع بنى عامر فى يوم النسار ومعهم ومع أحلافهم من تميم فى يوم الجفار وما أنزلوا بهم من خسائر فى الرجال ، وتعرض لانتصاراتهم على كثير من القبائل مثل جرم

والرباب وجذام وبنى سليم وبنى كلاب وبنى أشجع ومرة بن ذبيان ، ولم يكونوا يقفون عند ذلك بل كانوا يقذفون الأعراض[١] لإلحاق أقسى أنواع الإيذاء النفسى بالأعداء واستنـــزال أقصى المخازى بهم

ومن اللافت للنظر أن الشاعر الجاهلى لم تقتصر صفة الشجاعة على نفسه أو قبيلته فقط ، ولكنه كان ينصف أعداءه ويسجل لهم ما يتمتعون به من شجاعة وما يميزهم من حنكة بالحروب ، فعمرو بن كلثوم فى معلقته التى ذكرنا فيها أبياتا سبقت سجل فيها الاعتراف بشجاعة خصومه فمع أنه رفَع قبيلته "تغلب" على كل من حولها فى نجد شرقيها وغربيها ، فكل من حدثته نفسه منهم بقتالها كان مصيره الهلاك والدمار ، إلآ أنه يعترف بشجاعة الأعداء ، فالسيوف فى أيديهم وأيدى أعدائهم كأنها مخاريق بأيدى لاعبين ، وهم يقتلون منهم ، كما يقتل من قومه ، فثيابهم جميعا ملطخة بالدماء ، وليس عمرو وحده الذى يصف خصومه بالشجاعة فهناك كثيرون اشتهروا بهذا الإنصاف وتسمى القصائد المنصفة ، وفى الأصمعيات أمثلة منها طريفة من مثل قول المفضل النكرى يصف موقعة بين عشيرته من بنى بكرة بن عبد القيس وعشيرة عمرو ابن عوف[٢] يقول [٣]: —

---

(١) ٢٠١ : العصر الجاهلى .

(٢) ٢٠٥ : السابق . (٣) ٢٣٣ : الأصمعيات

كأن هزيزنا يـــوم التقينـــــا ... هزيز اباءة فيها حـــــــريق[1]

وكم من سيد منا ومنهــــــم ... بذى الطرفاء منطقـــــه شهيق[2]

فأشبعنا السباع واشبعوهـــــا ... فراحت كلها تتق يفـــــوق[3]

فأبكينا نساءهم وأبكـــــوا ... نساء ما يسوغ لهن ريـــــق[4]

يجاوبن النياح بكل فجـــــر ... فقد صحلت من النوح الحلوق[5]

وتزخر المفضليات والأصمعيات بهذا اللون من الشعر ، وهو ليس فقط شعر قوة وبطولة فحسب ؛ فقد تغنوا فيه بكريم الشيم وكل ما اتخذوه مثلا رفيعا لهم فى حياتهم وسلوكهم من كرم ووفاء ، فعلى نحو ما صوروا فيه بطولة وشجاعة نادرة صوروا كثيرا من الفضائل الحميدة .

---

(١) الهزيز : الصوت ، أباءة ; أجمة الغاب.

(٢) الطرفاء : موضع المعركة .

(٣) تتق : ممتلىء ، يفوق : يأخذه البهر .

(٤) ما يسوغ : ما يستطعم .

(٥) صحلت : بحت .

الفتوة والصعلكة

الفتوة والصعلكة من موضوعات الشعر الجاهلى " يتصل بالحماسة "والفخر"، ذلك النوع من الشعر الذى كان يقوله طائفة خاصة من الشعراء امتازوا بالشجاعة والحمية فى قلوبهم والقوة والفتوة فى أجسامهم ، ولكنهم كانوا فقراء ضاقوا بالحرمان ، وتبرموا بالفقر فاضمروا الثورة على الأغنياء والانتصاف للفقراء ، وراحوا يغنمون عنوة ما حرموه ، ووجدوا أن السعادة أن يثأروا لأنفسهم وللفقراء من أمثالهم من ذوى الجدة واليسار ، وقد وحد بينهم الحرمان ، وألف بينهم المبدأ ، فعطف بعضهم على بعض ، وتقاسموا ما كانوا يغنمون وأوى بعضهم الصعاليك العاجزين عما قدروا عليه من السلب والنهب كعروة بن الورد الذى يقول فيه عبد الملك بن مروان من زعم أن حاتما أسمح الناس فقد ظلم عروة بن الورد ، وقد عرف هؤلاء بالشعراء العدائين أو اللصوص ، لما كانوا يمتازون به من سرعة الحركة والخفة وحدة النظر ونزق العدو ، والخبرة بدروب الصحراء ، ومن أشهرهم فى الجاهلية : عروة بن الورد ، وكان يلقب بعروة الصعاليك لأنه كان يجمعهم ويقوم بأمرهم إذا أخفقوا فى غزواتهم ، ولم يكن لهم معاش ولا مغزى[1] ، ومنهم تأبط شرا والشنفرى وسليك بن السلكة ، وكانوا يفخرون

---

[1] ٣/٧٣ : الأغانى .

بالصعلكة لأنها شيمة الشجعان والأقوياء ويتغنون بالأنفة والكرم والمحبة وشدة البأس وقوة الشكيمة ، وعدم الخوف من التهديد والوعيد ، كما كانوا يباهون بمغامراتهم وبصبرهم على الشدة ، واحتمالهم الجوع وإيثارهم له على أن يكون لأحد منة عليهم ، والظاهر أنهم كانوا لا يهجمون إلا على البخلاء فقط من الأغنياء ، وكان أدبهم أو أكثره مقطوعات لا قصائد ، ولعل مرد ذلك إلى حياتهم المتحولة واختلاسها ، ومعاداة الاستقرار ومخاصمته ، والخفة والسرعة فى أمورهم ، لم يألفوا التمهل والتروى ، فجاء شعرهم صورة من حياتهم ، كما يتميز أدبهم بوحدة الموضوع ، فليس فيه غزل ، ولا بكاء أطلال أو نحو ذلك ، وشعرهم على العموم يصور ضربا من ضروب الحياة العربية ، ويسجل أعمالهم ونفسياتهم ، فهو صدى للواقع وصورة للحقيقة ، ولذا نعدم فيه الغزل ــ كما ذكرنا ــ وكيف يتغزل من يقضى نهاره يترقب وليله يترصد ولا يستقر فى مقام [1].

يقول عروة الصعاليك مصورا منهجه خاصة ومنهج الصعاليك عموما :ــ

إذا المرء لم يبعث سواما ولم يرح عليه ولم تعطف عليه أقاربه

فللموت خير للفتى من حياته فقيرا ومن مولى تدب عقاربه

---

[1] ٧٣ / ٣ : الأغانى ، وانظر ٢٥٧ : الأدب العربي بين الجاهلية والإسلام .

وسائلة أين الرحيـــل ؟ وسائـــل   ومن يسال الصعلوك أين مذاهبـــه
فلا أترك الاخوان ما عشت للردى   كما أنه لا يترك المـــاء شاربـــه

ويقول فى المغامرة : ـــ

ومن يك مثلى ذا عيال ومقتـــرا   من المال يطرح نفسه كل مطرح
ليبلغ عذرا أو يصيب رغيبـــــه   ومبلغ نفسى عذرها مثل منجح

ويفتخر بنفسه وكرمه قائلا :ـــ

وأنى امرؤ عافى إنائى شركـــــة   وأنت امرؤ عافى إنائك واحـــــد
أتهزأ منى أن سمنت وأن تـــرى   بجسمى شحوب الحق والحق جاهد
أقسم جسمى فى جســـوم كثيرة   وأحسو قراح الماء والماء بـــــارد

ويقـــول "يوســـف خليف" موضحا طبيعة حياة الصعاليك وأســـلوبهم فـــيها وأهـــم المعانى التى تطرقوا إليها فى أشعارهم على وســـائلهم فى الكـــر والفر:"من الطبيعى ـــ ما دامت حياة صعاليك العـــرب قـــد إتخذت شعارها الغزو والإغارة للسلب والنهب ـــ أن يكـــون أكـــبر مـــا يعنى به شعراؤهم أحاديث مغامراتهم ، لأن هذه المغامرات هى (الحرفة) التى قامت عليها حياتهم ، والأسلوب الذى انـــتهجوه فيها لتحقيق غاياتهم ، وهم يتحدثون عن هذه المغامرات حديث المؤمن بقيمتها فى حيـــاته ، المعجب بها الفخور ببطولته فيهاـــ ـــ أو بمقدرته على النجاة من أظفارها ، وقد ضاقت فى وجهه سبـــــل

النجاة " .

وهم يصفون كل ما يحدث فى هذه المغامرات ، منذ أن تأخذ جماعة الصعاليك فى وضع خطتها إلى أن تنتهى الغارة ، ويعود فتيان الصعاليك بأسلابهم بعد أن نفذوا خطتهم وحققوا أهدافهم ، وهم يصفون فى أثناء ذلك الطريق الذى سلكوه .

ويتحدثون عن رفاق الغارة ودور كل واحد فيها وكيف نفذوا خطتهم ، وكيف كانت آثارها فى أعدائهم ، وكيف انتهت الغارة وعاد فتيان الصعاليك إلى قواعدهم سالمين بعد أن قتلوا وسلبوا ونهبوا [١].

كما تحدثوا عن تربصهم بأعدائهم ، وترصدهم لضحاياهم وارتقائهم الفرصة الملائمة لمهاجمتهم فوق المرتفعات العالية التى يشرفون منها على الطريق ، بحيث يرون الناس ولا يرونهم والتى كانوا يسمونها (المراقب) .

وتتكرر فى شعر الصعاليك هذه الأحاديث ، والمرقبة التى يتربص فوقها الشاعر الصعلوك دائما منيعة أبية على سواه ، يقول الشنفرى راسما لوحة رائعة لمرقبة منيعة عالية يعجز دونها الصياد

---

[١] ١٨٢ : الشعراء الصعاليك فى العصر الجاهلى د/ يوسف خليف.

الماهر الخفيف الذى يخرج بكلابه المضراة للصيد[1] :ـــ

ومرقبة عيطاء يقصر دونهـــــا ... أخو الضروة الرجل الخفيف المشفف

نميت إلى أعلى ذراها وقددنـــا ... من الليل ملتف الحديقة أســدف

فبت على حد الزراعين محدبـــا ... كما يتطوى الأرقش المتقصـــف

قليل جهازى غير نعلين أسحقت ... صدورهما مخصورة لا يخصـــف

وملحفة درس وجرد مـــلاءة ... إذا أنهجت من جانب لا تكفـــف

وأمـــا تأبط شرا فالمرقبة عنده ذات صورة طريفة ، إنها مرقبة تعلـــو سائر المراقب ـــ إلى جانب هذا ـــ معقدة ذات تجاعيد كأنها عجوز شمطاء عليها ثياب بالية ، ولكنه ـــ مع ذلك ـــ ما إن ينتصف الليل حتى ينهض إليها ليبدأ فى تنفيذ خطته :ـــ

---

(1) ، ١٤٠ ـــ ١٤١ / ٢١ : الأغانى . العيطاء : العالية المرتفعة أو الأبية الممتنعة . أخو الضروة : للصياد معه كلاب ضراها الصيد ، الرجل بسكون الجيم وفتح الـــراء . المشفف : البخيل . الأسدف المظلم . محدبا : من أحدب إذا انحنى . أســحقت : بليـــت . الملحفة : ما يلبس فوق الثياب من دثار البرد ونحوه ، الدرس بكسر الدال : الثوب الخلق ومثله الجرد بفتح الجيم : أنهجت : ظهرت وظلمت . كفف الثوب : خاط حاشيته .

ومرقبة يا أم عمرو طمـــــرة ... مذبذبة فوق المراقب عيطـــــل[1]

نهضت إليها من جثوم كأنـــــها ... عجوز عليها هدمل ذات خيعل

كذلـــك تحدث الشعراء الصعاليك عن التربص تحدثوا عن الـــتوعد والتهديد حتى يقول تأبط شرا متوعدا ومهددا بمن لا يقنع بغيرهـــم أعـــداء يستحقون الغزو ، وهم خثعم وبجيلة وثماله وهذيل وهويـــرد الفضل فى هذا كله إلى قدميه اللتين أودع الله فيهما عذابا وشرا يصبهما عليهم [2]: —

أرى قدمى وقعهمـــــا خفيف ... كتحليل الظليم حذا رئالــــــه

أرى بهما عذابا كل يـــــــوم ... لخثعم أو بجيلة أو ثمالـــــــه

وشرا كان صب على هــــذيـــل ... إذا علقت حبالهم حبالـــــــه

وتأبط شرا هو الذى يصف نفسه قائلا :

قليل غرار النوم أكبر همـــــــه ... دم الثأر أو يلقى كميا مسقعـــا

يبيت بمغنى الوحش حتى ألفـــنه ... ويصبح لا يحمى لها الدهر مرتعا

وأين فتى لا صيد وحش يهمـــه ... فلو صافحت إنسا لصافحته معا

---

[1] الطمرة : المرتفعة ، العيطل : الطويلة ، الهدمل : الثوب الخلق ، الخيعل : ثوب من ثياب النساء كالقميص ، أو هو قميص لا كمين له .

[2] ٢١٨ / ١٨ : الأغانى . التحليل : العدو . الرئال : جمع رأل وهو ولد النعام . حذا : حاذى .

وتحدث الشعراء الصعاليك عن أسلحتهم ، فهى القوة الثالثة التى يعتمدون عليها فى مغامراتهم إلى جانب قوة قلوبهم وقوة أرجلهم تلـــك القـــوى الثلاث التى تقوم عليها حياة الصعلوك ، وقد جمعها تأبط شرا فى رثائه للشنفرى حيث يقول [١]:ـــ

فلا يبعدن الشنفرى وسلاحه الـــ   حديد وشد خطـــــوه متواتـــــر

وســــلاحهم يتمثل فى : السيف والرمح والقوس والسهام أو أسلحة الدفاع الدرع والترس والمغفر والفرس عند غير الرجلين [٢].

وأكـــثر الشـــعراء الصعاليك من الحديث عن رفاقهم الذين يرافقونهم فيها ودور كل واحد منهم يقول فى بائيته عن الرفاق الذين خرج معهم ليغزوا (العوص) أولئك الرفاق الثمانية الذين يعتز بهم ويملأ الإعجاب بهم نفسه :ـــ

خرجنا فلم نعهد وقلت وصـــاتنا   ثمانية مـــــا بعدنـــــــا متعتب

سراحين فتيان كأن وجوههـــــم   مصابيح أو لون من المـــاء مذهب

نمر برهو الماء صفحا وقـــد طوت   ثمائلنا والـــــــزاد ظـــن مغيب

ثلاثا على الأقدام حتى سمـــــا بنا   على العوص شعشاع من القوم محرب[٣]

---

(١) ١٣٧ / ٢١ : الأغانى . الشد : الجرى .

(٢) ١٩٥ : الشعراء الصعاليك فى العصر الجاهلى .

(٣) الرهو : مستنقع الماء ، الثمائل : جمع : ثميلة وهى سقاء الماء . الشعشاع : الطويل الخفيف . المحرب : الشديد الحرب الشجاع .

ويوضـــح عمرو بن براقة الهمدانى أن من صفات الصعاليك أنهـــم لا يـــنامون إلا قلـــيلا ، وذلك لأنهم جمعوا إلى القلب الذكى الشـــجاع والأنفة ورفض الضيم عدة الغلبة والانتصار سيف صارم حازم مع القنا ليعيش معززا مكرما أو يموت حين يأتى أجله :ـــ

ألم تعلمى أن الصعاليك نوْمهـــم   قليل إذا نـــام الخلى المسالـــم

متى تجمع القلب الذكى وصارما   وأنفا حميـــــا تجتنبك المظالـــم

متى تطلب المال المقنع بالقنـــا   تعش ما جدا أو تخترمك المخـــارم

وذكـــر الشـــعراء الصـــعاليك إلى جانب ما سبق مغامراتهم وانتصـــاراتهم وســـرعة عدوهم وفوزهم على أعدائهم ، ثم فرارهم وهربهم دون أن يجدوا فى هذه الأحاديث غضاضة أو أمرا يدعو إلى الخجل والمداراة يقول "أبو خراش" مدافعا عن فراره الذى لا ينم عن جـــبن ، بل يدل على الحكمة وحسن التقدير للأمور ، فهو شجاع ولكن أحيانا قتاله لا يجديه شيئا إلا أن يورده موارد الهلاك والأجدر به عندئذ أن يفر استبقاء لحياته :ـــ

فإن تزعمى أنى جبنت فـــإننى   أفر وأرمى مرة كـــــــل ذلك

أقاتل حتى لا أرى لى مقاتـــلا   وأنجو إذا ما خفت بعض المهالك

وفى ســـرعة العـــدو يصرح تأبط شرا نفسه بأنه يسبق الخيل عدوا على قدميه ، ويكسو طلائعها المتقدمة الغبار الثائر من عدوه :

يفــوت الجيـــاد بتقـــريبـــه ويكسو هواديها القسطـــلا [١]

ويقـــص تأبط شرا كيف أنجاه عدوه من عدوه على الرغم مما أرسلوه خلفه من خيل سريعة :ـــ

ليلة صاحوا وأغروا بى سراعهم بالعيكتين لدى معدى بن بـــراق

كأنما حثحثوا حصا قوادمـــه أو أم خشف بذى شث وطبـــاق

لا شيئ أسرع منى ليس ذا عذر وذا جناح بجنب الريد خفـــاق [٢]

حتى نجوت ولما ينزعوا ســلبى بواله من قبيض الشد غيـــداق [٣]

وقـــد عبر الأحمير السعدى فى الإسلام عن المبدأ الذى يعتنقه الصعاليك فقال : ـــ

وإنى لأستحيى مـــن الله أن أرى أجـــرر حبلا ليس فيـــه بعير

وأن اسأل النـــذل البخيل بعيره وبعران ربى فى البـــــلاد كثير

---

[١] ١٧٦ : الشعر والشعراء . التقريب : ضرب من العدو . القسطل : الغبار .

[٢] ٧ ـــ ١١ : المفضـــليات . حصا قوادمه : يريد به الظليم ، والأحص : الذى تـــناثر ريشه وتكسر ، والقوادم : من ريش الجناح ما ولى الرأس ، وام خشف يـــريد بهـــا الظبية ، والشث والطباق : من بنت السراة ، وإنما خصهما لأنهما ينضـــمران عـــا يراعاتهما من الحيوان ويشدان لحمه . وذا عذر يعنى به فرسا ، والعـــذر : مـــا أقبل من شعر الناصية على الوجه . الريد : أعلى الجبل . وإنما خص جارح الجبل لأنه أسرع طيرانا من جارح السهل .

[٣] الواله : الذاهب العقل ، والقبيض : السريع ، والغيداق : الكثير الواسع .

عوى الذئب فاستأنست بالذئب إذ عوى

وصوت إنسان فكدت أطير

المـــــدح :_

هـــو الثـــناء على إنسان بذكر فضائله وتعداد خلاله الكريمة وخصاله العظيمة ، ولم يكن لذلك فى أول الجاهلية مظهر خاص يجنى من ورائه المرء مغنما ، أو يستدر هبة ، أو يجتلب به أخلاف الرزق ، وإنما كان فى بدء أمره إحساسا بفضيلة ، أو شعورا بيد يدفع الإنسان إلى أن يمـــدح ويذكر " مآثر الرجال متحدثا عن الصفات المستحبة والأفعال المستحسنة فيهم وسائر ما يعتز به فى بيئة الجاهليين ، ويعلى مـــن أقدارهم بين القبائل [١] " كما يتناول المديح بالذكر والتسجيل مناقـــب القـــبائل وساداتها ، " وكانوا كثيرا ما يمدحون القبيلة التى يجـــدون منها كرم الجوار متحدثين عن عزتها وإبائها وشجاعة أبنائها ومـــا فـــيهم من فتك بأعدائهم ، وإكرام لضيوفهم ، ورعاية لحقوق جيرانهم ، وكان بعض السادة تمتد مآثارهم إلى من حولهم من القبائل فكـــان يتصدى لهم شعراؤها يمدحونهم لمكرماتهم التى أدوها . كأن يفكوا أسيرا أو يجيروا مطاردا [٢].

---

[١] ٢٦١ : الأدب العربي بين الجاهلية والإسلام .

[٢] ٢٠ : الأدب العربي فى الجاهلية .

ووظـف بعـض الشعراء المدح في حل مشكلات قبائلهم ،
فكانوا يقصدون به زعماء يرجونهم فى نجدة ، أو يعيثونهم فى حرب ،
ويـرحلون به إلى الملوك من الحيرة أو غسان يسعون فى فك أسراهم
أو الاعتذار عن أخطاء قبائلهم [١].

وإلى أواخـر العصر الجاهلى يتخذ الشعراء المديح وسيلة إلى
الكسـب ، يقدمون على السادة المبرزين وملوك المناذرة والغساسنة
يمدحونهـم ، ولما عرف الشعراء طريق العطايا والهبات ، أكثروا من
المديـح ن وبالغوا فى التزلف ، وانقطعوا للملوك ورءوس القبائل ،
يـثيرون فيهم كامن الغرور ، ويوقظون هاجع الكبرياء والعظمة بما
يضفون عليهم من صفات ، ويسبغون من نعوت ينالون بها جوائزهم
وعطايـاهم الجزيلة ، وأخذوا في ذلك يراجعون أشعارهم ويجودونها
ويـنعون بهـا عـناية بالغة حتى تحقق لهم ما يريدون من التأثير فى
ممدوحـيهم ، حـتى سمـوا بعبيد الشعر ، ومن هؤلاء النابغة وزهير
الأعشى والحطيئة . أما زهير فاختص بأشراف قومه ، واختص حسان
الغساسـنة بمدحـه ، أمـا النابغة فخص النعمان بن المنذر بمدائحه
وتصـادف أن وقـع بعض قومه أسرى فى أيدى الغساسنة ، فأقبل
علـيهم يمدحهم ويتشفع فيهم ، مما كان سببا فى غضب النعمان بن
المـنذر علـيه ، وسرعان ما أخذ يقدم له اعتذارات هى من أروع

---

(١) ٢١٠ : العصر الجاهلى .

مادحه الجاهليون [١] ولعلقمة بن عبدة فى الغساسنة مفضلية بديعة نظمها فى الحارث الأصغر يتشفع لأخيه وقد وقع فى الأسر [٢].

وأهم المعانى التى كان يدور حولها المديح هى كرم الخلال والشجاعة والكرم ، والعفة والنجدة والبأس والعدد ونحو ذلك من الشمائل التى كانت من دأبهم ، والتى كانوا يفاخرون بها ، وقالوا إن أمدح بيت قالته العرب قول النابغة :ــ

ألم تــر أن الله أعطاك ســـورة ترى كل ملك دونها يتذبـــذب

كأنك شمس والملوك كـــواكب إذا طلعت لم يبد منهن كـــوكب

وقيل إن أمدح بيت هو ما قاله الشاعر :ــ

ألستم خير من ركب المطايـــا وأنـــدى العالمين بطـــون راح

وقيل فى غيرهما ما قيل فيهما .

ولقـــد شـــاع المـــدح وكثر بعد تبذل الشعراء واتخاذه أداة للارتزاق ومهنة للتكسب ، واتسع نطاقه وكثر كثرة مفرطة إذ رحل بـــه الشعراء إلى الملوك والأشراف يمتارون به ، ويرجعون إلى أهليهم بين الحقائب على ظهور الإبل المثقلة تنوء بحملها من العطايا والهبات والمكافآت .

---

(١) ٢٤٠ : العصر الجاهلى .

(٢) ٢٩٠ : وما بعدها المفضليات .

والتفاف الشعراء حول المناذرة خاصة معروف ، فقد ماج بلاطهم بهم منذ عمرو بن هند الذى قصده كثيرون ، إما لنيل جزيل عطائه أوفك أسير وقع بين يديه ، كما كان النعمان بن المنذر مثابة للشعراء ومقصدا ، ومن بديع ما نظم فيه قول حجر بن خالد [1]:ـــ

سمعت بفعل الفاعلين فلم أجـــد كفعل أبي قابوس حرفا ونائـــلا

يساق الغمام الغر من كل بلـدة إليك فأضحى حول بيتك نـازلا

فإن أنت تهلك يهلك الباع والندى وتضحى قلوص الحمد جرباء حائلا

فلا ملك ما يبلغنك سعيـــه ولا سوقة ما يمدحنك باطــــلا

وانتهى هــذا الفن من فنون شعرهم إلى الأعشى ، فصبح حــرفة خالصة للنيل والتكسب ، إذ لم يترك ملكا ولا سيدا مشهورا فى أنحاء الجزيرة إلاّ قصده ومدحه وفخم شأنه معرضا بالسؤال [2].

وإن كــان ذلــك التكسب بالشعر قد أذرى بقيمة الشعراء أنفسهم وأقدارهم ، إلا أن ذلك قد عاد على الشعراء بالجودة وعلى مكانته بالابتذال .

ولقد مدح زهير بن أبي سلمى الحارث بن عوف وهرم بن سنان المريين حين أصلحــا بين عبس وذبيان فى حرب دامت بينهما سنين

---

(١) ٨٥ / ٣ : الحيوان .

(٢) ٢١١ : العصر الجاهلي .

عددا وتحملا ديات القتلى من مالهما الخاص مدحهما بقوله :ـــ

وأقسمت بالبيت الذى طاف حوله ... رجال بنوه من قريش وجرهم

يمينا لنعم السيدين وجـــــدتما ... على كل حال من سحيل ومبرم

تداركتما عبسا وذبيان بعدمـــــا ... تفانوا ودقوا بينهم عطر منشم

وقد قلتما إن ندرك السلم واسعا ... بمال ومعروف من الأمر نسلم

فأصبحتما منها على خير مـــوطن ... بعيدين فيها من عقوق ومـــأثم

عظيمين فى عليا معـــد وغيرهـــا ... ومن يستبح كنزا من المجد يعظم

وله أيضا فى حصن بن حذيفة الفزارى :ـــ

وأبيض فياض يداه غمامــــــــة ... على معتفيه ما تغب فواضلـــه [1]

بكرت عليه غدوة فــــــرايته ... قعودا لديه بالصريم عواذلـــــــه

يفدينه طورا وطورا يلمنـــــــه ... وأعيا فما يدرين أين مخاتلـــــــه

فأقصرن منه عن كريم مـــــــرزأ ... عزوم على الأمر الذى هو فاعله

أخى ثقة لا تتلف الخمر مالـــــه ... ولكنه قد يتلف المال نائلـــــه

---

[1] بـــداه غمامة : تمطر يداه بالإعطاء . فياض : سخى . المعتفون : الذين يأتونه . فواضله : عطاؤه . الصريم : جمع صريمة وهى القطعة من الرمل . عواذله : أى اللذين يعزلنه على إنفاق المال . مخاتله : لا يدرين أين الأمر الذى يختلنه فيه : أى : يخدعنه . أقصرن : أى كففن وأعرضن . مرزأ : يصاب منه الخير ويرزأ أناله . ماله .

تراه إذا ما جئته متهلــــلا   كأنك تعطيه الذى أنت سائلــه

وقال المسبب بن علس يمدح مالك بن سلمة الخير :ـــ

كفاه مخلفـــة ومتلفـــة   وعطاؤه متخرق جـــزل [1]

يهـــب الجيـــاد كأنها عسب   جرد إطار نسيلها البقـــل

للضيف والجار الغريب وللطفـــ   ـــل التريك كـــأنــه رأل

ولقد تناولنى بنائلـــــــه   وأصابنى من مـــالـــه سجل

ويقول الحطيئة فى مدح آل شماس :ـــ

فإن الشقى من تعادى صدورهم   وذا الحد من لانوا إليه ومن ودوا

يسوسون أحلاما بعيدا أنـــاتها   وإن غضبوا جاء الحفيظة والجـــد

اولئك قوم إن بنوا أحسنوا البنـــا   وإن عاهدوا اوفوا وأن عقدوا شدوا

مطاعين فى الهيجا مكاشيف للدجى   بنى لهم آباؤهم وبنى الجـــد

والشـــاعر الجاهـــلى فى مدحـــه غالبا يؤثر الصدق ويتحرى الصـــواب ويتوخى الصفات الحقيقية فى ممدوحه ويسجل له الفضائل الـــتى يتحـــلى بها فى الواقع فى بساطة وصدق ، متأثرا فى كل ذلك بحـــياته التى لا تعرف التعقيد ، وبيئته التى لم تتلوث بأكاذيب المدينة وعقدهـــا ، وإلـــتواءاتها الـــتى تحمل على النفاق وتغرى بالكذب ،

---

(١) ٢٦٣ : الأدب العربي بين الجاهلية والإسلام .

والموادعة فى الفحش ، والمماشاة فى الصغار ، والسكوت على الخنا فيدفع ذلك إلى المبالغة والإغراق وعملقة الأقزام واستنسار البغاث ، أليس يصدق ذلك عندما نطالع ما قيل من مدح فى عصور المدينة والحضارة التى تلت ؟ يقول الشاعر :ـــ

وأخفت أهل الشرك حتى إنـــه   لتخافك النطف التى لم تخلـــق

أو قول على بن جبلة فى بعض الأمراء :ـــ

أنت الذى تنـزل الأيام منـزلهـا   وتنقل الدهر من حال إلى حـال

وما مددت مدى طرف إلى أحـد   إلا قضيت بأرزاق وآجـــال

عندما نقرأ ذلك ومثله نعرف الفرق البين بين الفطرة السليمة الواضحة وبين الصنعة والتكلف مماراة ونفاقا ، حتى إنه ليخيل للقارئ أن بين كلمات الأبيات وجملها من ذلك القبيل سخرية واستهزاء وذما بالممدوح . يقول المسلوت : " وقد يقول قائل ممن لا يلحقون النظرة ولا يتعمقون الأشياء ، ولا يتحرون الموازين الصحيحة والمعايير المستقيمة للنقد ، وهل يستحق المدح أن يكون رسالة من رسالات الشعر أو هدفا من أهداف الفن ؟ وهو فى جملة أمره لا يعدو أن يكون ضراعة أديب لنيل عطاء أو تملق شاعر لاستدرار ألوان المنح والجداء ، حتى أثر عن الحطيئة أنه كان يقول عن الأعشى : إنه أشعر الشعراء لولا أن الضراعة أفسدته كما أفسدت جرولا (يعنى نفسه) ولم أر بعدا فى الفهم ، ولا إيغالا فى

الخطـأ ولا لغــوا ذاهــبا ولا لغطا كاذبا كهذا الذى يتشدقون به ويــرددونه دون أن يدركــوا عواقبه ، فما المدح إلا جيشان نفس حساسة بتقدير الممدوح ، أو بما يعود عليها من هذا الممدوح ، فهى تترصــد خلائقه ، أو تتصيد مكارمه ، أو تتغنى بما نتوسمه من سمات النــبل وصــفات الشهامة ، وتصوغ ذلك فنا يتغنى بالناس وينشده المجــتمع ، وقد لا يكون ذلك لما فيه من صدق أم يحتويه من مطابقة ولكن لما ينضره من روعة الفن الآسر وجمال الصوغ الناضر ، ولعله من أجل ذلك دعا فريق من النقاد إلى أن نلتمس (الفن للفن) [1].

ويقول العقاد [2] مفندا آراء الذين ذهبوا إلى رفض موضوع المديح فى الشعر العربي بحجة أنه لا فائدة منه وهو شخصى صرف لا يمت إلى الأدب الاجتماعى بصلة : " آخر هذه الدعوات التى تعجل بهــا المتعجلون ، ودسها معهم الدساسون ، أن الأدب العربي القديم أدب عتــيق لا يصــلح للبقاء لأنه كان أدبا شخصيا ، ولم يكن أدبا اجتماعيا يخدم الأمم ، ويمثل حياتها لها أو لمن يقرأ تاريخها من بعدها، ثم يقــول : أى موضوع يبدو أنه من مواضيع الشخصيات ألصق بها من موضوع المديح أو موضوع الغزل والرثاء ، وقد يبدو للمتعجل أن قصــيدة المدح كلام لا يعنى أحدا غير الممدوح والشاعر المادح ،

---

(١) ٢٦٣ ــ ٢٦٤ : الأدب العربي بين الجاهلية والإسلام .

(٢) ١٢٨ : أشتات مجتمعات فى اللغة والأدب .

ولا فائدة فيها لأحد يعرف ذلك غير كاتب المدح ، وكاسب العطاء
ولـــيس أظهر من هذا الوهم عند أقرب نظرة ، فإن قصيدة المدح لو
كانـــت كذلك لما استحقت من الممدوح نفسه أن يبذل فيها درهما
واحـــدا ودع المئات والألوف مما يذكره الرواة فى أحاديث الجوائز
والهـــبات ، فلولا أن المجتمع يستفيد شيئا من القصيدة ويحفظها لهذه
الغاية لما احتفى بها الممدوح ولا جاشت بها ملكة التعبير فى الشاعر ،
إن المجتمع يستفيد من القصيدة أنها تحيى فيه أخلاقا لا قوام له بغيرها
فى قيادته وسياسته ومعاملاته المتبادلة بين أفراده ، وتلك هى أخلاق
الشـــجاعة والـــرأى والحزم والكرم والمروءة والحياء وشمائل النبل
والفداء ولم يخطئ أبو تمام حين قال :

لولا خلال سنها الشعراء ما درى   بناة العلا من أين تؤتى المكارم

الهجـــــاء :

وهو ضد المدح ، ويكون بسلب المرء ما يعتز به من فضيلة أو
رميه بما ينفر منه من رذيلة بمنظور البيئة والعصر الذى يعيشه المهجو
وهـــو والمـــدح من الصفات الطبيعية والغرائز المركوزة فى النفس ،
فالإنسان قد يرضى فينطق بالثناء والمدح ، وقد يسخط فتهدر طبيعته
بما يرجع ويؤلم :ـــ

فعين الرضا عن كل عيب كليلة   ولكن عين السخط تبدى المساويا

ولقد عبر عن ذلك الزبرقان أبلغ تعبير حين مدح وهجا فى آن واحد ، وقال لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) : رضيت فقلت أحسن ما علمت ، وغضبت فقلت أسوا ما علمت ، وكان الهجاء فى الجاهلية بسلب الفضائل والرمى بضعف الهمة وفتور العزيمة وتخاذل المروءة كما قال الحطيئة فى هجاء الزبرقان بن بدر :

دع المكارم لا ترحـــل لبغيتهـــا وإقعد فإنك أنت الطاعم الكاسى

ولذلك قال حسان حين طلب إليه أن يحكم فى هذه القصيدة لم يهجــه ولكن سلح عليه ، وهكذا كان وقع الهجاء شديدا ومؤلما عـــلى الفرد أو القبيلة ، ولأنه كان يستنـــزل من المكانة ويغض من القيمة ، ويخمل الذكر ، كانوا يخافون من الشعراء الهجائيين ويخشون الهجـــاء " ويتطيرون منه ويتشاءمون ويحاولون التخلص من أذاه ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ، وإذا أغارت قبيلة على أخرى ونهبوا إبلا مـــنها بيـــنها إبـــل شاعر ، وتعرض لهم يتوعدهم بالهجاء اضطروا اضطرارا إلى ردها أو على الأقل يردون ماله هو وإبله " [1].

ويروى أن الحارث بن ورقاء الأسدى أغار على عشيرة زهير واســـتاق فيما استاق إبلا له وغلاما فنظم زهير أبياتا يتوعده بالهجاء المقذع يقول :

---

[1] ١٩٧ : العصر الجاهلى .

ليأتينك مني منطق قـــذع باق كما دنس القبطية الـودك

ففزع الحارث ورد عليه ما سلبه .

وتحول الشعراء يصبون أهاجيهم ولعناهم على خصومهم وعشائرهم فلم يسلم منها أحد من أشرافهم ، وبمقدار ما كان فى القبيلة من شرف وأشراف كان هجاؤها عندهم ، إذ كانوا لا يزالون يتعرضون لها ولأشرافها بأقبح الهجاء وأقذعه [١]، مما يجعل الرجل يبكى من ذلك ، قيل إن الأعشى هجا علقمة بن علاثة بقوله :

تبيتون فى المشتى ملاء بطونكم وجاراتكم غـرثى يبتن خمائصا

فلما سمع علقمة هذا البيت بكى وقال : أنحن نفعل ذلك بجاراتنا ؟؟! يقول بروكلمان :" فمن قبل أن ينحدر الهجاء إلى شعر السخرية والاستهزاء كان فى يد الشاعر سحرا يقصد به تعطيل قوى الخصم بتأثير سحرى ، ومن ثم كان الشاعر إذا هيأ لإطلاق مثل ذلك اللعن يلبس زيا خاصا شبيها بزى الكاهن ومن هنا كان أيضا تسميته بالشاعر أى العالم ، لا بمعنى أنه كان عالما بخصائص فن أو صناعة معينة بل بمعنى أنه كان شاعرا " [٢].

وذار هجاؤهم على كل ما يناقض مثلهم التى اعتزوا بها

---

[١] ١٦٩ : العصر الجاهلى .

[٢] ٢٦٦ : الأدب العربي بين الجاهلية والإسلام .

وحرصوا عليها وتمسكوا بها هذه المثل التى تعنى فضائلهم من الشجاعة والكرم وحماية الجار والوفاء والنجدة وطلب الثأر ، وما أن يدخل الشاعر طى الهجاء فإذا هو يخلص القبيلة وأشرافها من كل هذه الفضائل وما يتصل بها ، فهى لا تكرم الجار ولا تحميه وهى تفر من الحروب وتقعد عن الأخذ بثأرها ، ولا يكتفى الشعراء الهجاءون بذلك بل يتعرضون لمخازى القبيلة فى حروبها وأيامها التى ولت على أدبارها فيها منهزمة تجرجر أذيال الخيبة [1].

كذلك هجا الشعراء بالطعن فى الأنساب متعرضين للأمهات يقول الجميح الأسدى فى هجاء بنى عامر وقد غدروا بأسدى وقتلوه فقال يعيرهم بما غدروا :

سائل معدا من الفوارس لا ... أوفوا بجيرانهم ولا غنموا

فدى لسلمى ثوباى إذ دنس الـ ... ـقوم وإذ يدسمون ما دسموا

أنتم بنو المرأة التى زعم الـ ... ـناس عليها فى الغي ما زعموا

ومهما يكن من شئ فإن الشعراء الهجائين كانوا يقتصدون فى الإقذاع ولا يسرفون فى السب والمثالب ، بل إنهم كانوا يكتفون أحيانا بالتهكم والتشكيك فى فضل المهجو أو نسبه كما قال زهير :

---

(1) ٢٠١ : العصر الجاهلى .

وما أدرى وسوف إخال أدرى أقوم آل حصن أم نساء ؟

أو بالتعريض بمدح الغير كما يقول محرز الضبى :

فهلا سعيتم سعى عصبة مازن وهل كفلائى فى الوفاء سواء ؟

ويقول عبد قيس بن خفاف البرجمى[1] فى النعمان بن المنذر زاعما أنه ليس من سليل المناذرة ، وإنما هو من سليل صائغ بالحيرة :

لعن الله ثم ثنى بلعن ابن ذا الصائغ الظلوم الجهولا

يجمع الجيش ذا الألوف ويغزو ثم لا يرزأ العدو فتيلا

وكان النعمان كثير الوقائع فى قبائل العرب وخاصة عبد القيس .

ثم يخرج المتكسبون بالشعر عن ذلك إلى الإفحاش كالحطيئة وهو من المخضرمين يقول العقاد : "ربما سلم الناقد المتعجل بدور المدح فى المحافظة على قوام المجتمع ، ولم يسهل عليه أن يسلم بمثل ذلك لشعر الهجاء فإنه أقرب إلى سقط القول من شعر المديح باستحقاق أو بغير استحقاق ، إلا أن الناقد المتعمق فى دراسة المجتمعات قد يحكم على شعر الهجاء حكمه الأخلاقى كما يشاء ، ولكنه لا يستطيع أن يهمله فى استدلال على المجتمع وأخلاق خاصته وعامته، وأخلاق شعرائه وأدبائه ووظيفة الأدب والثقافة المعترف بها

---

(1) الحيوان : ٤ / ٣٧٩ .

بين جملة أبنائه ، فمن شعر الهجاء تعرف الصفات التى تحقر صاحبها بين أبناء عصره ، ومن الاعتدال فى الذم أو المبالغة فى الفحش ، تعرف كيف كان المجتمع سليما يكفى فيه القليل من اللوم للمساس بمنزلة الملوم ، أو نعرف كيف كان المجتمع موبوءا ملوثا بالعيوب لا يهان فيه المهجو بما دون الإفحاش البالغ فى اتهامه بالرذائل والشبهات ، فلا يكفى فيه اللوم القليل لإسقاط الرجل الرفيع فى أنظار عامة قوية ، بل لابد من الهبوط بذلك الرجل إلى الحضيض ليزدريه من يوقره ويرعاه ، وقد نعرف من الهجاء هل يهان الرجل لانصافه بالرذائل المنسوبة إليه أو يهان لاجتراء الشاعر عليه واستخفافه بسطوته وقدرته على الانتقام والتنكيل بأعدائه ، وبعبارة أخرى إن استبداد الحكم أهم عند هذا المجتمع من صفاته الصحيحة أو المكذوبة فى معايير الأخلاق " [1].

ولم يكن جمهور هجائهم يفرد بالقصائد ، بل كانوا يسوقونه غالبا فى تضاعيف حماستهم وإشادتهم بأمجادهم وانتصاراتهم الحربية ، وفى أثناء ذلك يصوب سهام الهجاء إلى نحور أعدائهم فى حماس شديد وحقد بالغ على الخصوم .

ومن أمثلة الهجاء قول قريط بن أنيف العنبرى يهجو قومه معرضا بمدح أعدائهم :

---

[1] ٢٦٦ ـ ٢٦٧ : الأدب العربي بين الجاهلية والإسلام .

لو كنت من مازن لم تستبح إبلـــى　　بنو اللقيطة من ذهل بن شيبانــا

إذا لقام بنصـــرى معشـــر خشن　　عند الحفيظة أن ذو لوثة لانــــا

قوم إذا الشر أبدى ناجذيه لـــهم　　طاروا إليه زرافات ووحدانــــا

لا يسألون أخاهم حين يندبهـــم　　فى النائبات على ما قال برهانــا

لكن قومى وإن كانوا ذوى عدد　　ليسوا من الشر فى شئ وإن هانا

يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرة　　ومن إساءة أهل السوء إحسانــا

كـــأن ربك لـــم يخلق لخشيتــه　　سواهمو من جميع الناس إنسانــــا

فليت لى بهم قوما إذا ركبـــوا　　شنوا الإغارة فرسانــا وركبانــــا

ويهجو النابغة الذبيانى زرعة بن عمرو بن خويلد بقوله :

نبئت زرعة والسفاهة كاسمهـــا　　يهدى إلى غرائب الأشعـــــار

فخلفت يا زرع بن عمـــرو أننى　　مما يشق على العـــدو ضــــرارى

أرأيت يوم عكـــاظ حيـــن لقيتنى　　تحت العجاج فما شققت غبـــارى

أنـــا اقتسمنا خطتينـــا بيننـــــا　　فحملت برة واحتملت فجـــــار

فلتأتينك قصائـــــد وليدفعـــــن　　جيشا إليك قــــوادم الأكـــوار

رهط ابن كور محقبي أدراعهـــم　　فيهم ورهط ربيعة بن حـــــذار

الرثـــــاء :

هو بكاء الميت والتفجع عليه ، وإظهار اللوعة لفراقه والحزن لموتـــه ، وعد خلاله الكريمة التى يروع الناس فقدها والاشادة بمناقبه وشمائله [١] ، ويكاد يتصل هذا الموضوع اتصالا مباشرا بالحماسة [٢] فقد كان الشعراء الجاهليون يرثون أبطالهم فى قصائد حماسية يريدون بها أن يثيروا قبائلهم لتأخذ ثأرها [٣] فكانوا يمجدون خلالهم ويصفون مناقبهم التى فقدها القبيلة فيمن ماتوا أو قتلوا حتى تنشط إلى حرب من قتلوهم ، وكان يشرك الرجال فى ذلك النساء فقد كن ما يزلن يـــنحن على القتيل حتى تثأر القبيلة ، وإن كان هذا النوع من الرثاء يتصف بالتهويل وتجسيد المصيبة وما ألم من خطب فادح بالقبيلة فما ذلك إلا لدفعها وإغرائها وتحريضها للثأر .

أمـــا من يموت لانتهاء أجله طبيعيا فكان يرثى بنمط آخر من الشعر لا يعرف المبالغة ولا التهويل ، متصورين الأرض تميد والسماء تـــرمى بالشـــهب ، وإنما كانوا يبكون فى الميت الشجاعة والنجدة والكرم والوفاء فى أسلوب متزن وحزن غير مبالغ فيه .

---

(١) ٢٦٨ : السابق .

(٢) ٢٠٧ : العصر الجاهلى .

(٣) ١٠٩ : المفضليات .

وكــان مــن عاداتهم ـــ كما يقول ابن رشيق : أن يضربوا الأمــثال بالملوك الأعزة والأمم السالفة ، والوعول الممتنعة فى الجبال والأســود الخادرة فى الغياض ونحو ذلك ، وشاركت النساء بشعرها فى الــرثاء ، لــرقة تكوينهن وصدق مشاعرهن ، فبرزن فيه . وقد أرســلت جلــيلة امرأة كليب والخنساء وعاتكة بنت زيد وغيرهم الدمــوع الحرى الغزيرة فى قصائدهن ، وكن يودعن تلك القصائد كل مظاهر التفجع والحزن والثكل بمن فقدن .

ويذكــر الــرواة أن الخنساء كانت تخرج إلى عكاظ لتندب أخويهــا صخرا ومعاوية ، وكانت هند بنت عتبة أم معاوية تحكيها نائحة أباها ، وكان من عادة نساء العصر الثكالى أن يحلقن شعورهن ويلطخن خدودهن بأيديهن وبالنيعال والجلود [1].

وكــانوا أحــيانا يستهلون قصائد الرثاء بالغزل انسياقا مع طبيعــتهم فى بناء القصيدة ، كما فعل دريد بن الصمة فى رثاء أخيه عبد الله حيث يقول :

أرث جديد الحبل من أم معبد   بعاقبة أم أخلفت كل موعــد

وقول أبى ذؤيب الهذلى فى رثاء صديق :

---

[1] ٢١٠ / ٤ : الأغانى ، ٢٠٧ : العصر الجاهلى .

هل الدهر إلا ليلة ونهارهـــا وإلا طلوع الشمس ثم غيارهـــا
أبى الله إلا أم عمـــرو وأصبحت تحرق نارى بالشكاة ونارهـــا

وقـــام بالقســـط الأكبر من ندب الميت وبكائه النساء اللائى يعقدن مأتما من العويل والبكاء وسابقتهن التى لا تنازع — كما سبق — هـــى الخنساء ، فقد قتل أخوها معاوية فى بعض المعارك ، وارتفع نشـــيجها وبكاؤهـــا عليه ، وقتل أيضا أخوها صخر فاتسع الجرح والباعث لوعة شديدة فأنشأت قصيدتها الشهيرة :

قذى بعينك أم بالعين عـــوار أم ذرفت إذ خلت من أهلها الدار
كأن عينى لذكراه إذا خطرت فيض يسيل على الخدين مدرار
فالعين تبكى على صخر وحق لها ودونه من جديد الأرض أستار
تبكى خناس وما تنفك ما عمرت لها عليه رنين وهى مقتار
بكاء والهة ضلت اليفتها لها حنينان إصغار وإكبار

وقصيدة دريد بن الصمة فى رثاء أخيه تجمع أكثر المعانى التى تداولها شعراء الجاهلية فى زمانهم يقول :

دعانى أخى والخيل بينى وبينـــه فلما دعانى لم يجدنى بقعـــــدد
أخ أرضعتنى أمه من لبانهـــا تبدى صفاء بيننا لـــم يجـــدد
فجئت إليه والرماح تنوشـــه كوقع الصياصى فى النسيج الممدد
فنادوا فقالوا أردت الخيل فارسا فقلت أعبد الله ذلكـــم الردى

فإن يك عبد الله خلى مكانــــه فما كان وقافا ولا طائش فى غد
قليل التشكى فى المصيبات ذاكر من اليوم أعقاب الأحاديث فى غد
تراه خميص البطن والزاد حاضر عتيد ونعدو فى القميص المقدد
وإن مسه الإقواء والجهــد زاده سماحــــا وإتلافا لما كان فى اليد
صبا ما صبا حتى علا الشيب رأسه فلما عــــلاه قال للباطل أبعد
وطيب نفسى أننى لم أقــل لــــه كذبت ولم أبخل بما ملكت يـــدى

وينقسم الرثاء إلى ثلاثة أنواع : رثاء وندب (نياحة) وتأبين (العزاء) ، وإذا كان الرثاء إنما هو تطور عن تعويذات كانت تقال للميــت وعــلى قبره حتى يطمئن فى لحده ، فإن الندب ضرب من (التـعديد) كالذى نعرفه فى مصر ، تقوم فيه النائحة بتعداد مآثر وأمجــاد الميــت فى صوت ممطوط ونغم حزين مؤثر يستجدى عويل الأخــريات ونحيبهن فترتفع الأصوات فى جلبة تترجم عن مدى ما يستشعرونه من ألم الفقد وحسرة الفراق لمكانة الفقيد عندهن .

واكثر ما كان التأبين لمن يموت منهم فى ميادين الحرب ، وقد يضمنون هذا التأبين هجاء لاذعا لخصومهم وفخرا بعشيرتهم ومآثرها وأيامهــا ، ولعل من الطريف أن بعض الشعراء كان إذا أحس داعى المــوت ندب نفسه ، ووصف ما يصنعه به أهله بعد الموت كما فى

القطعة التى تنسب للممزق العبدى أو ليزيد بن الخذاق يصور فيها المصير الذى ينتظره يقول فيها [1]:

هل للفتى من بنات الدهر من راق ... أم هل له من حمام الموت من راق
قد رجلوني وما رجلت من شعث ... وألبسوني ثيابا غير أخلاق
وأرسلوا فتية من خيرهم حسبا ... ليستروا في صريح الترب أطباقي

أما التأبين فهو لون من ألوان الرثاء يضم صورة من العزاء مع الدعوة إلى الصبر على الشدائد ، فالموت كأس دائرة على الجميع.

وتطور التأبين إلى ما نراه اليوم في جلسة يعقدها الأقارب والمعارف والأصدقاء بعد مدة من رحيل الميت ، تلقى فيها خطب ، الإشادة بالميت وأعماله ، وذكر خصاله الحميدة وآثاره الباقية والترحم عليه .

ومن قصائد الرثاء التي يقال : إن لا نظير لمطلعها في هذا العصر قصيدة " أوس بن حجر " يرثي فيها " فضالة بن كلدة " :

أيتها النفس أجملي جزعا ... إن الذى تحذرين قد وقعا
إن الذى جمع السماحة والنجدة ... والحزم والقوى جمعا
الألمعى الذى يظن بك الظـ ... ـن كأن قد رأى وقد سمعا
ليبكك الشرب والمدامة والفتـ ... ـيان طرا وطامع طمعا

---

[1] ٢٠٨ ــ ٢٠٩ : العصر الجاهلى .

وذات هدم عار نواشرهـــــا   تصمـــت بالماء تولبا جدعا

والحي إذ حاذروا الصباح وإذ   خافوا مغيرا وسائرا تلعا [١]

وهذا اللون من الرثاء هو الذى يصدق فيه الحس والمشاعر ، ويوصف الراثى بالرزانة فى مواقف الدمع .

عـــلى أن قصائد الرثاء العربية تميزت باتجاهات أربعة ، وقد يغلـــب بعض هذه الاتجاهات على بعض القصائد دون سواها ، وقد تشتمل القصيدة على أكثر من واحد منها وهـــى :ـــ

١ـــ الـــبكاء والـــتفجع والحزن واللوعة والألم اللاذع الذى يتسنى القلب ويظلم النفس من وراء الفقد ، فهو رثاء صادق ينبعث عن عاطفة ملتاعة ، وفؤاد حزين وقلب موجع ، وهذه المراثى عادة ممـــا يفجره الحزن والكمد على لسان والد فقد ولده ، أو أخ مات أخـــوه وهكـــذا ، ومن هنا تميزت بالقوة الدافقة والحرارة الملتهبة ، والشـــعور القـــاتم ، الذى ينتقل إلى نفوس السامعين فيملؤها لوعة وأســـى ، ولقد قيل لبعض العرب : ما بال أفضل أشعاركم الرثاء ، فقـــال : لأنا نقولها وقلوبنا موجعة ، فهى صادرة عن عاطفة صادقة لا تكلـــف فيها ولا تصنع ، ومن هذا اللون ما قاله أبو ذؤيب الهذلى فى رثاء بنيه :ـــ

---

[١] ٢٧٠ : الأدب العربي بين الجاهلية والإسلام .

أمن المنون وريبه تتوجع ... والدهر ليس بمعتب من يجزع

وأبيات متمم بن نويرة فى رثاء أخيه مالك :ــ

لقد لامني عند القبور على البكا ... صديقي لتذراف الدموع السوافك

يقول أتبكــــي كل قبر رأيته ... لقبر ثوى بين اللـــوى فالدكادك

فقلت له إن الشجا يبعث الشجا ... فدعنى فهـــذا كله قبر مالــك

٢ــ التأبـيــن : مــدح الشخص بعد وفاته ، والثناء عليه بتعداد صفاته الحميدة ، وهو نوع من المدح لولا أن يساق فى صورة حزيـنة آســفة يقترن دائما بالماضى يتوسل إليه بالفعل (كان) أو أشــباهه ، أو يفهم من السياق فقد الصاحب وموت من كان يتسم بتلك الصفات كما فى قصيدة أبي تمام :ــ

كذا فليجل الخطب وليفدح الأمر ... فليس لعين لم يفض مأؤها عذر

على أن لبعض الشعراء قصائد إذا قرأت بعض أبياتها لا تستطيع أن تحكم هل هى فى المدح أو الرثاء[1]،كما فى قول الشاعر:

فتى قد قد السيف لا متضائــل ... ولا رهل لباته وأباجله [2]

وإذا جد عند الجد أرضاك جده ... وذو باطل إن شئت أرضاك باطله

يسرك مظلوما ويرضيك ظالمــا ... وكل الذى حملته فهو حامله

---

(١) ٢٧٢ : الأدب العربي بين الجاهلية والإسلام .

(٢) الأبجل : عرق غليظ فى الرجل أو اليد بإزاء الأكحل .

إذا نزل الأضياف كان عذورا　　على الحى حتى تستقبل مراجله [1]

فلــولا الأبيات التى قبلها والتى تشير فيها إلى وفاة المرثى لما شـــك القارئ فى أنها مديح ، وهذا النوع من الرثاء يكون عادة فى العظمـــاء الذين لا تربطهم بالشاعر قرابة ، أو فى أحد أقرباء أمير أو عظــيم أراد الشاعر أن يمدحه ، ولهذا غلب فيها التأبين أى الإشادة بذكـــر الفقــيد على البكاء ، وقد تشتمل القصيدة الواحدة على الـــتأبين والـــبكاء معـــا ، وقد تكون لإحدى الناحيتين الغلبة على الأخرى.

٣ــ العـــزاء : وهـــو لون من ألوان الشعر تغلب فيه التعزية على البكاء والحزن ، ومن النادر أن تكون المرثية مجرد تعزية ، فلابد أن تصحبها صفات الفقيد والتوجع عليه والتألم لفقده ، وللمتنبى فى هذا :

عزاءك سيف الدولة المقتدى به　　فإنك نصل والشدائد للنصل

ولم أر أعصى منك للحزن عبرة　　وأثبت عقلا والقلوب بلا عقل

٤ــ التأسى والاعتبار والتحدث عن الموت والحياة وفلسفة الفناء والبقاء ويسمى هذا النوع المراثى الحكيمة ، وهى شائعة فـــى

---

[1] عذور : الواسع الجوف والسيئ الخلق الشديد النفس ، وتستقل المراجل : أى تحمل .

الشعر العربي من قديم الزمان يقول أبو ذؤيب :ـــ

وإذا المنية أنشبت أظفارها ألفيت كل تميمة لا تنفع

وقولـــه :ـــ

والنفس راغبة إذا رغبتها وإذا ترد إلى قليل تقنع

وقد قويت هذه الظاهرة واشتدت وتعلق بها الشعراء وخاصة فى العصر العباسى ، حتى رأينا أبا الطيب يبدأ قصيدته بإشارة عامة إلى أحداث الدهـــر وزوال[1] الأيام يقول :ـــ

نعد المشرفيـــــة والعوالى وتقتلنا المنون بلا قتـــــال

وفى أخرى يقول :ـــ

لابد للإنسان من ضجعـــة لا تقلب المضجع عن جنبه

ينسى بها ما كان من عجبه وما أذاق الموت من كربـــه

نحن بنو الموتى فما بالنـــــا نعاف ما لابد من شربـــــه

وعلى هذا النحو ألم الشاعر الجاهلى بجوانب الرثاء الثلاثة من الــندب والــتأبين والعزاء ، وكان رثاؤه غالبا يتعلق بأفراد ، وقلما يـــتعلق بمجموعـــة مـــن الفرســـان ، ومـــن هذا القليل قصيدة فى الأصمعيات لأبى دؤاد الإيادى يرثى فيها من أودى من شباب قبيلته

---

[1] ٢٧٢ ـــ ٢٧٤ : الأدب العربي .

وكهولهم يقول فى مطلع الرثاء [1]:-

لا أعد الإقتار عدما ولكن   فقد من رزئته الإعدام

ويستمر يبكي فيهم الرءوس العظام وسجاياهم من التأني والرفق الكرم وطيب الأرومة وشجاعة الأسود ، وما يمازج فرط حدثهم من أحلام وعقول راجحة يقول :-

سلط الدهر والمنون عليهم   فلهم فى صدى المقابر هام
فعلى إثرهم تساقط نفسي   حسرات وذكرهم لى سقام

ولم يخل الشعر الجاهلى من ظواهر فى رثاء الممالك والأمم السابقة ، وإن يكن ذلك قليلا فيه ، لكن مجرد وجوده يدل على عراقة هذا الموضوع فى الأدب العربي[2] ومنه قال الأسود بن يعفر النهشلي[3] :-

ماذا أؤمل بعد آل محرق   تركوا منازلهم وبعد إياد
أهل الخورنق والسدير وبارق   والقصر ذى الشرفات من سنداد
أرضا تخيرها لدار أبيهم   كعب بن مامة وابن أم دؤاد
جرت الرياح على مكان ديارهم   فكأنما كانوا على ميعاد

---

(1) ٢١٠ : العصر الجاهلى .
(2) ٢٨ : الأدب العربي فى الجاهلية .
(3) ٤٤ : المفضليات .

ولقد غنوا فيها بأنعــم عيشة ... فى ظل ملك ثابــت الأوتاد

نزلوا بأنقرة يسيــل عليهمو ... ماء الفرات يجئ مــن أطواد

أين الذين بنوا فطال بناؤهم ... وتمتعوا بالأهــل والأولاد

فإذا النعيم وكل ما يلهى بــه ... يوما يصير إلى بلـــى ونفاد

وعلى ضوء ما استعرضنا من نماذج فى شعر الرثاء يجدر بنا أن نشـــير إلى بعض الشبه التى تثار حول هذا الفن خاصة وموضوعات الشــعر العربي بوجه عام ، حيث يحاول بعض النقاد الغض من قيمة الشعر العربي وأقداره وقيم ذلك الأدب . من ذلك ما يزعمونه من أن الرثاء كالمديح فن شخصى لا ينبغى أن يعنى به إلا من قاله أو قيل فيمن ينتسب إليه .

على أن هذه النظرة المتعجلة لا تثبت عند التحقيق ، ولا تكاد تســتقر لدى البحث والتمحيص ، فإن العاطفة الإنسانية التى يثيرها الشـــاعر ويذكيها الفنان ، والعبرة المستوحاة التى تتجلى من خلال رثائه جديرة أن تضع أمامنا قيم الحياة وأقدار الوجود موضع الدرس المهذب والتذكير الذى يثير الخشوع الاعتبار ، ثم هى تفلسف لدينا صورة هذه الحياة الدنيا ، وتكف فينا بعض الغزور أو تنهنه شيئا من التمرد والجموح [١].

---

[١] ٢٧٤ : الأدب العربي بين الجاهلية والإسلام .

كذلك الرثاء تصوير لما يتحلى به الإنسان أو ما ينبغي أن يتحلى به من سمت معين ونحو خاص ، فإذا بكى الشاعر أو الفنان شخصا ، وإذا جزع على فقد فإنما يبكى صفات فقدها ، وخلال كان يجد فيها الأنس ويلتمس من ورائها المتعة ، يقول العقاد : " ومن لم يفهم من شعر الرثاء فى اللغة العربية إلا أنه شعر بكاء ينتهى بانتهاء مأتمه ، فليس له أن يتصدى لفهم أدب ، ولا أن يستخلص أحوال الناس عامة من أقوال الشعر أو أقوال المؤرخين ، فنحن قد ننسى أسماء الموتى المبكيين فى دواوين شعرائنا الأقدمين ، ثم نخرج منها بالفائدة الأدبية والفائدة الاجتماعية التى تستفاد من كلام جدير بالاطلاع عليه كيفما كان ، فمن هذا الشعر تتبين قيم الحياة الفانية وقيم الحياة الباقية عند ناظميه والمستمعين إليه ، ومنه تنبيه عواطف الحزن ودواعيه التى تنم عن مآثر الأموات والأحياء ، وفيه نتبين كل خلق يتجلى فى مواقف الفراق الأخير ويحمده الناس فى مقام العزاء والوفاء ، ولا نتبين دلالة الرثاء العربي على الحياة العربية من شيئ كما تتبين من تخصصه بالناطقين بالضاد ، وقلة المشابهة بينه وبين أشعار الأمم فى رثاء موتاها ، وإن كان الموت قضاء على الأحياء فى كل أمة وكل لسان [1].

---

[1] ١٣٢ : ١ أشتات مجتمعات فى اللغة والأدب .

الغـــزل :

الغـــزل هـــو الموضـــوع الذى يترجم فيه الشاعر إحساسه ومشـــاعره تجاه المرأة وهو به أكثر تعبيرا عما يجيش فى نفسه ويعتمل فى قلـــبه " وكانت المرأة العربية ذات تأثير ساحر على عقل الرجل وقلـــبه وعواطفـــه ومشـــاعره ، يقتحم الصعاب ويخوض الغمرات ويركب الأهوال من أجلها ، لذلك كان الشعراء لا يفتأون يرددون ذكرها فى كل مناسبة للقول [1] " فيأتى موزعا بين ذكريات الشاعر لشبابه ووصفه للمرأة ، أو حين يرحل من مكان إلى آخر .

ومعروف أن أول صورة نلقاها فى قصائدهم هى بكاء الديار القديمـــة الـــتى رحلـــوا عنها وتركوا فيها ذكريات شبابهم الأولى ، وهو بكاء يفيض بالحنين الرائع ن ثم يستتبع هذه الجزئية ما يتصل بمن عـــاش فى تلك الديار وقطنها خاصة إذا كان قلب الشاعر قد علق بواحدة فيها ، وما أكثر الشعراء الذين عرفوا واشتهروا بمحبوباتهم فـــيقفون عند المرأة يرصدون جمالها فى روحها وجسدها وسلوكها ، ولا يكـــادون يتركون شيئا فيه دون وصف له إذ يتعرضون لجبينها وخدها وعنقها وصدرها وعينها وفمها وريقها ومعصمها وساقهـــا وشعرها ، كما يتعرضون لثيابها وزينتها وحليها وطيبها وحيائهـــا

---

[1] ٢٧٥ : الأدب العربي بين الجاهلية والإسلام .

وعفتها ، وقد يتعرضون لبعض مغامراتهم معها ، وقد جاء هذا الشعر عـــلى صـــنفين أحدهمـــا : حسى يعنى بالمظاهر الجسدية من المرأة فيصـــورها ويصـــور معهـــا مغامـــرات الشاعر ولهوه بها كما فعل امرؤ القيس فى قصائده ومنها :

مهفهفة بيضاء غير مفاضـــــة ترائبها مصقولة كالسجنجـــل

تصد وتبدى عن أسيل وتتقـــى بناظرة من وحش وجرة مطفل [١]

وفرع يغشى المتن أسود فاحـــم أثيث كقنو النخلة المتعثكـــل [٢]

غدائرة مستيشزرات إلى العـــلا تضل العقاص فى مثنى ومرســـل

وكشح لطيف كالجديل مخطـــر وساق كأنبوب السقى المذلـــل

وتعطـــو برخص غير شثن كأنـــه أساريع ظبى أو مساويك اسحل

تضئ الظـــلام بالعشاء كأنـــها منـــارة ممسى راهب متبتـــــل

وتضحى فتيت المسك فوق فراشها نئوم الضحى لم تنتطق عن تفضل [٣]

---

[١] تصـــد " تعرض ، تبدى : تظهر . عن أسيل : الخد الذى فيه امتداد وطول . ووجرة : موضع ـــ والمطفل : ذات الطفل .

[٢] الفـــرع : الشـــعر الـــتام . المتن : الظهر . الأثيث : الكثير . القنو : العذق . والمتعثكل : المتدلى . .

[٣] الفتيـــت : الفتات ، اسم لدقاق الشيئ الحاصل بالفت ، تنتطق : تلبس النطاق الفضلة : ثوب واحد يلبس للخفة فى العمل ـــ يريد أنها مخدومة لا خادمة .

وقد رسم امرؤ القيس لموصوفه صورة مثالية لجمال المرأة الجسدى .

وثانيهما : شعر عف لا يتعلق بأوصاف المرأة الحسية إلا بالقدر الذى يبديه الشاعر باعثا على الإقبال عليها والتعلق بها والتحسر على فقدانها .

على أن الشاعر الجاهلى كان يتصف بحساسية خاصة عندما يتغزل فى شعره ، فتواتيه موهبته وتسعفه فطرته وتحرضه عاطفته فكان أكثر أشعار العرب ، وأروع قصائدهم وأبرع آثارهم يتصل بالمرأة ويصف حسنها ، ويشيد بجمالها ، ويعلن الفرح بقربها والألم والحزن على بعدها ، ويذكر تأثيرها على النفس ، وما تجود به من وصل ، أو توزعه على صرعاها من دلال وصد ، ومن ازورار وهجران ، حيث كان تركيزه على مشاعر الحب أكثر من اعتنائه لصفات من أحب ، لأن اهتمامه الأول كان ينصب فى تصوير مشاعر الحب نحو من أحبها ، وللرواة فى ذلك أحاديث ، فقد قصوا عن حب المرقش الأكبر لأسماء ، والأصغر لفاطمة بنت المنذر ، وعن حب المنخل اليشكرى المتجردة زوج النعمان ، وله قصيدة رائعة رواها الأصمعى على هذا النسج : [1]

ولقد دخلت على الفتاة الخدر فى اليوم المطير

---

[1] ٦٠ : الأصمعيات ، دار المعارف .

الكـــاعب الحسناء ترفــل | فى الــدمقس وفى الحــرير
فــدفعتها فتــدافــعت | مشى القطــاة إلى الغــدير
ولــثمتهـا فتنفســت | كتنفــس الــظبى البهيــر
فــدنت وقــالت يا منخــل | مــا بجسمك مـــن حـــرور
مــا شف جسمى غير حبك | فــاهدئى عنى وسيـــرى

وإذا كــنا قد ذكرنا نوعين من الغزل سادا فى شعر الشعراء الغزلــيين فى العصر الجاهلى ، فإن هناك لونا يمكن أن يعد ثالثا منه ، فقــد كان من شعرائهم من يتحدث عن المرأة حديث الذى تتملكه الشــهوة وتســتبد به الصبوة ، فيصور محاسن جسمها من أرداف وأعجاز وبطن ، ويعمد إلى كل ما يثير العاطفة والمشاعر ويلح عليها إلحاحــا شــديدا " وقد يصورون فى تعلقهم بالمرأة ضربا من المتاع الحســى ، ومــرد ذلك إلى ضرب مشاع عندهم من الفتوة ، فهم يتمدحون بأنهم ينالون من المرأة ما يريدون ، وكانوا وثنيين ، ولم يكن هناك دين يردعهم [١] " فالمهلهل لقب بأنه زير نساء ، وامرؤ القيس أفحــش فى غزله وابتذل فى دبيبه ولم يتورع عن ذكر أسماء المحبوبات فى وصف فاحش وغزل ماجن كما فى معلقته ، وكما فى قصيدته التى يقول فيها :

---

(١) ٢١٤ : العصر العباسى .

سموت إليها بعدما نام أهلهـــا سمو حباب الماء حالا على حـــال

والـــنابغة كـــان كذلك ، فقد أسرف فى الفحش ، وبالغ فى وصف المرأة ، واستقصى أعضاءها ، ونفذ إلى أدق المواطن وأكثرها سترا واستخفاء ، كما فى قصيدته فى المتجردة التى تبدأ بقوله :

أمن آل مية رائـــح أو مغتـــــدى عجـــلان ذا زاد وغير مـــزود

أزف الترحــــل غير أن ركابنـــا لمـــا تزل برحـــالنا وكأن قد

وأكـــثر ما كان الشعراء يبدأون قصائدهم بالغزل أو الوقوف على الأطلال يقول علقمة بن عبدة : [1]

طحابك قلب فى الحسان طـــروب بعيد الشباب عصر حـــان مشيب

يكلفنى ليلى وقـــد شط وليهـــا وعـــادت عـــواد بيننا وخطـــوب

منعمـــة لا يستطـــاع كلامهـــا علـــى بابها من أن تـــزار رقيب

ويقول امرؤ القيس :

أفاطـــم مهلا بعض هذا التدلـــل وإن كنت قد أزمعت صرمى فأجملى

أغـــرك منى أن حبك قاتلـــى وأنك مهما تأمرى القلب يفعـــل

وقال المرقش الأكبر فى غزله [2]:

---

(1) ٣٣ : الديوان .

(2) ١٢٩ : المفضليات .

قـــل لأسماء انجزى الميعـــادا　　　وانظرى أن تــزودى منك زادا

أينما كنت أو حللت بـــأرض　　　أو بــلادا أحببت تلك البلادا

إن تكونى تركت ربعك بالشـــا　　　م وجــاورت حميرا ومـــرادا

فـــارتجى أن أكون منك قريبـــا　　　فـــاسألى الصادرين والــــورادا

على أن هناك من شعراء العرب من غلب عليه الطبع العربي والأنفة البدوية ، فذكر المرأة وأضاف إليها ما يجب أن يتوفر لها من ستر وحصانة ، ومن عزة ومنعة فيتسامى فى غزله ، " حتى ليمكن أن يقال بأن الغزل العذرى له أصول فى الجاهلية عند عنترة وأضرابه ، ومـــن المؤكـــد أن المرأة الحرة لم تكن ممتهنة عندهم ، بل كانت فى المكان المصون ، وكان الشاعر يستلهمها شعرا ، ولذلك كان يضعها فى صـــدر قصيدته ، ونحس عند كثير منهم وخاصة فرسانهم من مثل عنترة ، أنهم يقدمون مغامراتهم فى الكرم وفى الحرب لها لينالوا حبها وكان أكثر ما يشجعهم ويبعث الموجدة فى قلوبهم أن تؤسر وتسبى ، فكان لا يقر لهم قرار إلا أن يعودوا بها مكرمة إلى ديارهم " [1].

فالطـــباع العربـــية والصفات التى كانت تملك نفس البدوى وتملؤهـــا عزة وأنفة هى التى تسيطر على أمثال هؤلاء المتغزلين أمثال علقمـــة وعنـــترة وأضرابهما ، وكانوا كثيرا ما يصفون ظعنها وهى

---

[1] ٢١٤ : العصر الجاهلى .

تـــرحل فى الجزيرة من موضع إلى موضع ، وكانت الرحلة أساسا فى حياتهم ، إذ كانوا يرحلون وراء منابت الغيث ، وينتقلون معها حيث حلت .

وهـــذه قصائدهم الطوال المسماة بالمعلقات نجدها كلها تبدأ بالغـــزل وذكـــر الديار والأطلال ، ولم يشذ عن القاعدة إلا قصيدة عمرو بن كلثوم التى افتتحها بحديث الخمر :

ألاهبى بصحنك فاصبحينـــــا   ولا تبقى خمور الأندرينـــــــا

والأدباء دائما يطلقون ألفاظ الغزل والنسيب والتشبيب على هذه الأشعار التى تحمل حب المرأة والحديث عن جمالها ، وما تثيره فى القلـــوب من هيام وصبوة ، والتى تنطق بكل ما يتعلق بها من حب ووصل وصد وتقريب وهجران ، قال ابن رشيق فى العمدة : [1]

" والنسيب والتغزل والتشبيب كلها بمعنى واحد ، وبعضهم يفـــرق بين معانى هذه الألفاظ ، فقدامة يقول : النسيب ذكر خلق النســـاء وأخلاقهن ، وتصرف أحوال الهوى به معهن ، وقد يذهب عـــلى قـــوم موضع الفرق بين النسيب والغزل ، والفرق بينهما أن الغزل هو المعنى الذى إذا اعتقده الإنسان فى الصبوة إلى النساء نسب بهـــن مـــن أجله ، فكان النسيب ذكر الغزل ، والغزل المعنى نفسه والغزل إنما هو التصابى والاشتهار بمودات النساء " .

---

[1] ١١١ / ٢ : العمدة .

وبعـــض الأدبـــاء يخـــص الغزل بالاشتهار بمودات النساء ، وتتـــبعهن والعبث بذلك فى الكلام ، ويريد بالتشبيب ما يقصد إليه الشـــاعر من ذكر المرأة فى مطالع الكلام ، وما يضاف إلى ذلك من ذكر الرسوم ومساءلة الأطلال ، أما النسيب فهو أثر الحب الصادق والصبابة المبرحة فيما يبثه الشاعر من شكوى وما يصنفه من حرمان.

والغزل الجاهلى كان مقصورا على المرأة ووصف جمالها ، فلم يـــتجاوزها إلى الغلمان كما حدث فى العصر العباسى ، وتتحلى فى وتتجـــلى النســـيب الجاهلى البساطة والبعد عن التكلف والتشبيه بالمحسوس المرئى لديهم ، ومن حق هذا النسيب كما يقول ابن رشيق :" أن يكـــون حلو الألفاظ سلسها ، قريب المعانى سهلها ، غير كز ولا غامض ، وأن يختار له من الكلام ما كان ظاهر المعنى لين الإيثار ، رطـــب المكسر شفاف الجوهر ، يطرب الحزين ويستخف الرصين ، فقـــد بلـــغ الشعراء الغاية فى ذلك وأتوا بالعجب ، وإن المرء ليجد القصـــيدة مفتـــتحة بالنسيب وذكر الأطلال وبكاء الديار والشوق والحنين فتنشط نفسه وينفتح لذلك حسه ويقبل على القصيدة بكل ما فيه من رغبة ونهم " [1].

وعلى الرغم من إكثار الشعراء الجاهليين من الغزل وشهرتهم به لم يقولوه مستقلا ، إنما مزجوه بكل غرض وألموا به فى كل موطن

---

[1] ١١٠ / ٢ : العمدة .

فمـــا من قصيدة فتلت فى مدح أو هجاء أو فخر أو وصف إلا كان النســـيب جـــزء منها ، بل لقد غلب على بعضهم فى موطن الدمعة ومكان الحزن واللوعة .

ولأن الشـــعراء الجاهليين قد أجادوا وصف ما يحيط بهم من مـــناظر كوصف امرؤ القيس لليل ، ولبيد وطرفة للناقة والشنفرى للذئاب الجائعة والنابغة لنهر الفرات ، وعنترة للرماح ، واستخدموا فى هذا الوصف تشبيهات رائعة اشتقها خيالهم من بيئتهم ، ولم يمعنوا فى الـــتطورات الخيالـــية بل كانوا أقرب إلى وصف الواقع كما هو مســـتعينين بالخيال القريب ، فإن الغزل الجاهلى عموما غزل مادي يتصـــل بمحاســـن المـــرأة الظاهرة ويلم بأعضائها ، كما يلم بزينتها وطيبها وحليها ، فهو غزل حسى معه يصف الشاعر من المرأة ما يراه واقعـــا أمامـــه ، وقلما يعبر عن معنى روحى عميق يدل على العشق العـــذرى وعفته وفناء المحبين فيه ، وتضحيتهم من أجل من يحبون ، ويتســـم ذلـــك الغزل على وجه العموم بالدقة والمباشرة والسلاسة والعذوبة تستقى تشبيهاته من البيئة التى يعايشها ويذهب إلى مفرداتها طلب لإبراز نواحى الجمال وتشخيصها فى المرأة .

ويتضـــح تـــأثير البيئة فى غزل العصر الجاهلى تأثيرا شديدا فيما يلى :

١ـــ الإكثار من ذكر الأطلال والوقوف عند الآثار .

٢ـ الإكثار من ذكر البين والفراق والحنين إلى الأحبة .

٣ـ المحافظة على أسماء الجهات وتحديد الأماكن التى كانت تحلها المحبوبات والإلحاح على ذكرها فى الشعر .

٤ـ وكانت الصفات والنعوت التى خلعها الشعراء على محبوباتهم مستمدة من البيئة كتشبيه النساء بالمها والغزلان ، وأشراف النساء عندهم العزيزة المنعة التى تحميها السيوف والرماح ، ولفقر البيئة كانت أجمل النساء المنعمة الممتلئة الجسم التى لا تحتاج إلى العمل فهى مكسال أو نؤوم الضحى [1] يقول امرؤ القيس :

وبيضة خدر لا يرام خباؤهـــا ... تمتعت من لهو بها غير معجـــل

تجاوزت أحراسا إليها ومعشـــرا ... على حراصـــا لو يسرون مقتلى

فجئت وقد نضت لنوم ثيابهـــا ... لدى الستر إلا لبسة المتفضل [2]

مهفهفة بيضاء غير مفاضـــة ... ترائبها مصقولة كالسجنجل [3]

والأبيات قد سبق ذكرها .

وكذلك أبيات النابغة سابقة الذكر ومنها :

---

[1] ٢٧٨ ـ ٢٨٠ : الأدب العربي بين الجاهلية والإسلام .

[2] نضت : خلعت .

[3] مهفهفة : مسترخية البطن . الترائب : عظام الصدر أو ما بين الترقوتين . والسجنجل : المرآة .

زعم البوارح أن رحلتنا غدا ... وبذاك تنعاب الغراب الأسود

لا مرحبا بغد ولا أهلا به ... إن كان تفريق الأحبة فى غد

الوصف :

الوصف من أدق موضوعات الشعر التى لا ينهض بها إلا ناقد البصيرة صافى الذهن رقيق الإحساس ، وقد برز فيه العرب ، وكان لشعرائهم حظ وافر ونصيب كبير منه ، وكان شعرهم تصويرا صادقا لكل ما وقعت عليه أنظارهم من أرض وسماء وبحر وجبال وحيوان ورمال ورياح وأمطار وبرق وسحاب ، كما أجادوا فى وصف المرأة ومحاسنها وطباعها ، ونبغوا فى وصف الخيل والإبل والبقر الوحشى ، كما أبدعوا فى وصف الليل وأهواله والحروب وآلاتها ، وكل ما شاهدوه من ظواهر الطبيعة وأحداثها ما جل منها أو دق ، والظواهر السماوية الكبرى حسب ما شاهدها العربي فى الجاهلية أو عرفها كما رصدها ، وكذلك الأحداث الكبرى المؤثرة أو الصغيرة فتناول وصف الحشرة الصغيرة من حشرات البيوت أو الرمال ، وبالطبع اتسعت دائرة هذا الموضوع لسعة أغراضه أو الموضوعات التى اهتم بها الشاعر الجاهلى من بيئته ، وإذا كان الشاعر الجاهلى لم يترك شيئا مما وقعت عليه عينه إلا كان له فيه شعر

فإن حجم الشعر الموجود فى هذا الغرض يوشك أن يفوق كل شعر فى موضوع سواه [1].

وعـــادة الشـــعراء الجاهلـــيين أن يـــأتى الوصف بعد غزلهم وتشـــبيههم إذ يخـــرج الشـــعراء إلى وصف رحلاتهم فى الصحراء فيـــتحدثون عـــن قطعهم المفاوز البعيدة فوق إبلهم ، ويأخذون فى وصـــفها وصفا مسهبا على نحو ما هو معروف عن "طرفة" فى وصفه لناقـــته فى معلقته ، وكاد لا يترك فيها عضوا أو جزءا دون وصف وتصوير ، ثم يستطردون إلى وصف الحيوانات التى يشبهون بها نوقهم وما يكون بينها وبين كلاب الصيد من عراك ، وعلى نحو ما أكثروا مـــن وصف الإبل أكثروا من وصف الماعز ، كما أكثروا من وصف الخيل وشبهوها بضروب من السباع المنعوتة بالمخالب وطول الأظفار يقول امرؤ القيس فى وصف فرسه الذى اتخذه للصيد [2]:

له أيطلا ظبى وساقا نعامـــة وإرخاء سرحان وتقريب تنقـــل

يقول الدكتور / عبد الوهاب عزام : " وقارئ الشعر الجاهلى لا يحـــتاج إلى من يدله على مواضع وصف الإبل والخيل فيه ، فقلما تخلـــو قصيدة طويلة من وصف الناقة ، وفى كثير من القصائد ذكر

---

[1] ٢١٥ : العصر الجاهلى .

[2] ٢٨٢ : الأدب العربي بين الجاهلية والإسلام .

الخـــيل ولكنه أقل من وصف الإبل ، وحسب القارئ أن يقرأ معلقة طرفة أو قصيدة المثقب العيدى الذى يصف فيها ناقته بقوله :

إذا مـــــا قمت أرحلها بليـــــل ... تـــأوه آهة الرجل الحزيـــن

تقول إذا درأت لــــها وضينى ... أهــــذا دينه أبـــــدا ودينى

أكل الدهـــر حل وارتحـــــال ... أمـــا يبقى على ومـــــا يقينى

وكثيرا ما يذكر الشاعر كرامة الفرس عليه وتقريبه إلى مجلسه حتى سميت الخيل المقربات [1] .

ويقول أبو عبيدة فى تشبيه الشعراء أفراسهم بالنعامة وغيرها : " وممـــا يشـــبه خلقه من خلق النعامة طول وظيفها وقصر ساقها ، وعرى نسيبها ، ومما يشبه من خلقه خلق الأرنب صغر كعبيها ، ومما يشـــبه من خلقه الحمار الوحشى غلظ لحمه وتمحص عصبه وتمكن أرســـاغه وعـــرض صهوته ، ومما يشبه من خلقه خلق الكلب هرت شدقه وطول لسانه وكثرة ريقه وانحدار قصه وسبوغ ضلوعه وطول ذراعيه ورحب جلده " [2].

وينقل المسلوت عن عبد الوهاب عزام قولـــه :

" وإذا كان فى العربية شعر يمكن أن يوصف بأنه من قبيل

---

(1) ٢٨٩ : الأدب العربى بين الجاهلية والإسلام .

(2) ٢٧٥ / ٢ : الحيوان ، صـــ ٢١٩ : العصر الجاهلى .

"الفـــن للفـــن" فهو لا ريب شعر الوصف الجاهلى ، فقد برعوا فيه وأتقـــنوه ، ذلك لفرط دقة الملاحظة واستقصاء الدقائق عند شعراء البادية الذين لم يتركوا فيها شيئا إلآ صوروه أدق تصوير فوصفوا فى إحســـاس دقـــيق بالغ من الحيوانات الناقة والحصان وحمار الوحش والذئـــب ، كمـــا وصـــفوا الأطلال والدمن والأثافي وبعر الآرام والهضـــاب والـــدروب وأعشاب الصحراء ، وبالمثل وصفوا المرأة وصـــفا حســـيا دقيقا ، وانحصر غزلهم فيها فى هذا الوصف حيث لم يتعمقوا فى التعبير عن العاطفة المشبوبة ولواعج الغرام إلا بعد ظهور الإسلام ، وفى بيئة الحجاز المترفة فى العصر الأموي حيث ظهر الغزل العـــذري عند المجنون وقيس بن ذريح ،وجميل بن معمر ،وابن قيس الرقيات وكثير عزة " ، وعقب عليه موضحا رأيه فيما نقله عن عزام " عـــلى أن القول السابق لا يمكن أخذه على علاته أو التسليم به ، وذلـــك لأن كثيرا من أشعار العرب فى الجاهلية يمثل خوالج القلب والتـــياع الـــنفس فى أعقـــاب الفرقة ، وما يتسعر فيها من شوق ن ويلتهـــب من عاطفة حين تجد صروف النوى وتلوح عوادى البين ، وهـــل كان وصفهم للديار وبكاؤهم عليها ووقوفهم على الأطلال ودمعتهم على الربوع إلا من فيض الوجدان واضطرام المشاعر " [1].

---

[1] ٢٨٤ : الأدب العربي بين الجاهلية والإسلام .

عــلى أيه حال فإن الشاعر الجاهلى فى موضوع الوصف قد تفــوق فيه ، واتخذه أداة لتسجيل كل ما وقعت عليه عينه فى بيئته ، حــتى إننا لا نكاد نعدم أو نفتقد فى وصفه للحيوان كل أنواعه فإلى جانب ما ذكرنا سابقا وصفوا " كلاب الصيد وسموها أسماء كثيرة ، ولأبى زبــيد الطــائى قصيدة طريفة يصور فيها معركة بين كلب له وأسد وقد حطمه الأسد حطما " [١].

وكمــا ذكــر الأسد ووصفوه ، وصفوا الذئب كما فى قول طفيل الغنوى وقد شبه فرسه بذئب [٢]:

كسيد الفضا العادى أضل جراءه   على شرق مستقبل الريح يلحب

وذكــروا الهر والديك والخنزير فى وصفهم لنشاط الناقة قال أوس بن حجر :

كأن هرا جنيبا عند معرضهـــا   والتف ديك برجليها وخنــزير

كذلــك ذكروا الضباع والرخم والعقبان والنسور والغربان وأكلها القتلى ، واليربوع والجرذان والجراد والضفادع والوعول ، وتعرضــوا كثيرا لوصف الحيات والأفاعى ، كذلك الطير وكثيرا ما يستطردون من وصف فرسهم بالعقاب إلى وصفها ، وكانوا يذكرون

---

[١] ٢٧٤ / ٢ : الحيوان ـــ ١٣٢ / ١١ : الأغانى .

[٢] ٤١٦ / ٤ : الحيوان .

الغراب كثيرا ويتشاءمون به يقول عنترة :

ظعن الذين فـراقهم أتوقـــع　　　وجرى بينهم الغراب الأبقـــع

حرق الجناح كان لحيى رأســه　　　جلمان بالأخبار هش مـولــع

إن الذين نعيت لى بفراقهـــم　　　هم أسهدوا ليلى التمام فأوجعــوا

وكانوا يذكرون القطا والجراد والعصافير والنمل والعنكبوت والحمام ونوحه وما يهيج فيهم من شوق وشجا [1] ، وقد لفت نظر الجـاحظ كـثرة مـا جاء على ألسنتهم من وصف الفلوات والبرد وقوارصه والحر وهو اجره ، وما يجرى فى ديارهم أحيانا من خصب بعد مطر غزير ، وما يترتب على ذلك من اخضرار الشجر وافتراش الكـلأ لـلأرض ولدونـة الأغصان ، ورطوبة النبات وكثرة الماء ، كذلك أكثروا من وصف الجدب ووعورة الصحراء ، ومخاوفهم فى ليالـيها مـن الجن والشياطين ، وكادوا لا يتركون شيئا يتصل بهم إلآ وصفوه ، فوصفوا الرعى والمراعى ، ووصفوا الأسلحة والحروب والخمـر وأوانيها وسقاها ومجلسها وأثرها ، وافتخروا بأنهم يسقونها الصحاب والرفاق على صوت القيان ومع نحر الجزور ، يقول ثعلبة بن صعير فى حماسية له [2]:ـ

---

[1] ٢١٧ : العصر الجاهلى .

[2] ١٣٠ : المفضليات .

أسمى ما يدريك رب فتية　　بيض الوجوه ذوى ندى ومآثر

باكرتهم بسباء جون ذراع　　قبل الصباح وقبل لغو الطائر

فقصرت يومهم برنة شارف　　وسماع مدجنة وجدوى جازر

ومعلوم أن القصيدة الجاهلية كانت تنتظم كل الموضوعات فتأتى متداخلة إلا إذا رأى الشاعر أن يفرد منها واحدة بموضوع واحد فعله، وإن كان الأعم الأغلب والسائد فى نظم الشعراء الجاهليين جمعهم بين عدد من الموضوعات فى قصيدة واحدة .

ومن الوصف ما قاله الأعشى يصف فرسا :

ولقد اغتدى إذا صقع الديك　　بمهر مشذب حوال (١)

مدمج سابغ الضلوع طويل الشخـ　　ـص عبل الشوى ممر الأعالى (٢)

يملأ العين عاديا ومقودا　　ومعرى وصافنا فى الجلال (٣)

مستخفا على القياد ذفيفا　　تم حسنا فصار كالتمثال (٤)

وقال طرفة فى وصف الناقة :

---

(١) صقع : صاح . مشذب : مهذب .

(٢) مدمج : محكم . سابغ : عظيم . الشوى : الأطراف . الممر : المفتول .

(٣) الصافن : الذى يثنى سنبكه .

(٤) الذفيف : النشيط الحاد .

وإنى لأمضى الهم عند احتضـــاره   بعوجاء مرقال تروح وتغتدى [١]

أمون كألواح الإران نسأتهـــــا   على لا حب كأنه ظهر برجـــد [٢]

جمالية وجناء تـــردى كأنهــــا   سفنجه تبـــرى لزعـــر أربـــد [٣]

لها فخذان أكمل النحض فيهما   كأنهما بـــابـــا منيف ممــــرد [٤]

وجمجمة مثل العـــلاة كأنـــما   وعى الملتقى منها إلى حرف مبرد [٥]

وحد كقرطاس الشآمى ومشفـــر   كسبت اليمانى قوة لم يمــــرد [٦]

ويقول امرؤ القيس فى وصف البرق والمطر :

أصاح ترى برقا أريك وميضـــه   كلمع اليدين فى حبى مكلــــل

يضيئ سنـــاه أو مصـــابيح راهب   أمال السليط بالذبال المفتــــل

---

[١] العوجاء : الناقة لا تستقيم فى سيرها لنشاطها . المرقال : مبالغة من الإرقال ، وهو ضرب من السير .

[٢] أمـــون : مأمونة العثار . والفران : ككتاب التابوت العظيم . نسأتها : ضربتها بالعصا . لا حب : طريق واضح . برجد : كساء مخطط .

[٣] جمالية :نسبة إلى الجمل فى وثاقه الخلق ، وجناء : مكتـــزة أو عظيمة الوجنات الـــرديان : ضرب من السير . السفنجة : النعامة . الأزعر : القصير الشعر . الأربد : لونه يشبه التراب . تبرى : تعرض .

[٤] النحض : اللحم .

[٥] العلاة : السندان . وعى : اجتمع .

[٦] السبت : الجلد المدبوغ . يمرد : يعوج .

فاضحى يسبح الماء حول كنيفـــه   يكب على الأذقان دوح الكنهبل

وتيماء لم يترك بها جذع نخلـــة   ولا أطما إلا مشيدا بجنـــــدل

ويقول عنترة واصفا فرسه :

لما رأيت القوم أقبل جمعهـــــم   يتذامرون كررت غير مذمـــــم

يدعون عنتر والرماح كأنهـــا   أشطان بئر فى لبان الأدهـــم

مازلت أرميهـــم بثغرة نحــــره   ولبانــــه حتى تسربل بالـــــدم

فازور من وقـــع القنا بلبانـــــه   وشكـــا إلى بعبرة وتحمحـــم

لو كان يدرى ما المحاورة اشتكـــى   ولكان لو علم الكلام مكلمـــى

ويمكـــن للـــدارس أن يجـــد فى هـــذا الشعر صفات النجوم وتحـــركاتها ، وتفســـيرات أســـطورية لبعض ظواهرها ، وسائر ما يضـــطرب فى هذه البيئة من حيوان . وفى كتاب المعانى الكبير لابن قتيبة شعر فى كل ذلك ، وفى غيره مما صوره الشاعر الجاهلى ، كما أن هـــذا الكـــتاب حوى شعرا جاهليا فى أدوات المطبخ من جفان وقدور وأوان للطعام قد يندر وجودها فى كتب غيره [1] ، وقد أفاض الجاحظ فى كتابه "الحيوان" فيما جاء على ألسنتهم من وصف ذلك كلـــه وتصويره إلى جانب ما ذكره من قصص أسطورى عن طوق الحمامة والديك والغراب والهدهد والحيات مما ساقه على لسان أمية

---

[1] ٣٧ : الأدب العربي فى الجاهلية .

ابن أبي الصلت [١].

الشـــكوى :

وهو الشعر الذى يحكى فيه الشاعر آلامه وأوجاعه على شئ فاته من حياته لا يستطيع رده ، أو على حظ تعس أوقعه فى مشكلة لم يســتطع حلها ، أو عندما يتحيف أحد عليه ويسلبه حقوقه ، وأكثر ما توجع الشعراء الجاهليون منه هو فوت الشباب وما فيه من حلاوة الصبوة والقوة والنشاط والمرأة ، وحلول الشيب ، وما ينذر به من عواقــب ، ولـــذا كثر الحديث عن الشيب فى أشعارهم ، لأنه بلاغ بــتقدم السن . إلى جانب الشكوى من السأم والملل من الحياة يقول زهير بن أبي سلمى :

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش ثمانين حولا لا أبا لك يســـأم

رأيت المنايا خبط عشواء من تصب تمته ومن تخطئ يعمر فيهـــرم

وأعلم علم اليوم والأمس قبلـــه ولكننى عن علم ما فى غد عــم

ويقول سلامة بن جندل يتأسف على الشباب :

أودى الشباب حميدا ذو التعاجيب أودى وذلك شأو غير مطلــوب

ولى حثيثا وهذا الشيب يطلبـــه لو كان يدركه ركض البعــاقيب

---

[١] ٢١٧ : العصر الجاهلى .

أودى الشباب مجد عواقبه فيه نلذ ولا لذات للشيب

وللشباب إذا دامت بشاشته ود القلوب من البيض الرعابيب

ويقول علقمة بن عبدة مشيرا إلى الشيب متحسرا :

طحا بك قلب فى الحسان طروب بعيد الشباب عصر حان مشيب

الحكم والأخلاق :

هو الشعر الذى ينظم فيه الشاعر خلاصة تجاربه ويودعه نتائج خبرته بالحياة والأحياء ، من خلال رؤاه وملاحظاته لأوضاع المجتمع وصراع الناس فيه [1]، وهو كثير فى الشعر الجاهلى ، تمثل الخلال الطيبة كالحلم والشجاعة والكرم والدفاع عن الحوض وا [illegible] الأذى ونحو ذلك من الأخلاق الكريمة ، وقد تهيأ للعرب من الفراغ والصحراء ما أتاح لهم التأمل ، واستعراض أحداث الحياة وتجاربها واستخلاص العبر منها فى جمل مسلمة هى الحكمة .

وقد تفاوت الشعراء الجاهليون فيما بينهم فى تضمين الحكمة أشعارهم وإن كان هؤلاء الشعراء الحكميون قلة فى العدد ، فإن منهم من أكثر من هذا الصنيع مثل زهير بن أبى سلمى وحاتم الطائى وطرفة .

---

[1] ٣٤ : الأدب العربى فى الجاهلية .

يقول طرفة :

أرى العيش كنــزا ناقصا كل ليلــة   وما تنقص الأيام والدهر ينفـــــد

أرى الموت اعداد النفوس ولا أرى   بعيدا غدا ما أقرب اليوم من غد

ستبدى لك الأيام ما كنت جاهلا   ويأتيك بالأخبار من لم تـــــزود

ويأتيك بالأنباء من لم تبع لـــــه   بتاتا ولم تضرب له وقت موعـــد

والشعراء الذين جرت الحكمة فى شعرهم قلة ، ولكنهم ممن امـــتدت أعمارهم ، وطالت خبراتهم بالحياة ، وعرفوا بدقة الملاحظة وكثرة التروى فيما يقولون .

وزهـــير بن أبى سلمى واحد من هؤلاء الشعراء وله فى آخر معلقـــته مجموعة من تلك الحكم صاغها حسبما وردت فى قصيدته صياغة مجردة ، وهناك من شعراء الفتوة المعروفين بالبطش والاندفاع مـــن وجدنـــا لهـــم قصـــائد حكمـــية رفـــيعة صـــيغت صياغة فصيحة [١].

كذلك تحدث الشاعر الجاهلى عن حسن الخلق والاتصاف به والترفع عن مواطن الشبه يقول حاتم الطائى :

---

[١] ٣٤ : السابق .

تحــلم عــن الأدنين واستبق ودهم ... ولــن تســتطيع الحلم حتى تحلما
ونفســك أكــرمها فإنك إن تهن ... علــيك فلن تلقى لها الدهر مكرما
وعوراء قد أعرضت عنها فلم تضر ... وذى أود قومــته فــتقوما [1]

وقال الأفوه الأودى :

لا يَصــلح الناس فوضى لا سراة لهم ... ولا ســراة إذا جهــا لهــم سادوا
تهدى الأمور بأهل الرأى ما صلحت ... فــإن تولــت فبالأشــرار تــنقاد

ويقول زهير بن أبى سلمى :

ومــن لم يصــانع فى أمــور كثيرة ... يضــرس بأنــياب ويوطــأ بمنسم
ومــن يك ذا فضل فيبخل بفضله ... عــلى قومــه يســتغن عنه ويذمم
ومــن هــاب أســباب المنايا ينلنه ... وإن يــرق أســباب السماء بسلم
ومهمــا تكن عند امرئ من خليقة ... وإن خالهــا تخفى على الناس تعلم

الاعتــــذار :

هذا الغرض قليل فى شعر الجاهلين ، وفارسه الذى اشتهر به هو النابغة الذبيانى ، فاعتذارياته إلى النعمَان بن المنذر ملك الحيرة من عــيون الشــعر الجاهلى ، وفى الاعتذار يتنصل الشاعر مما يكون قد نسب إليه من أفعال أو أقوال سببت الجفوة بينه وبين من يعتذر إليه ، ويمــزج ذلــك بكثير من مدحه واستعطافه ، وبيان آثار القطيعة فى نفســه ، ولا يصــدر ذلك الشعر إلا من شاعر يرى نفسه دون من

---

[1] العوراء : الكلمة القبيحة ، الأود : العوج .

يعتذر له ، ويكون حريصاً على صلته به درءا لخوف أو جلباً لمصلحة أمـا إذا تساويا ، فإن أنفة الشاعر العربى الجاهلى تمنعه من الاعتذار لمثيله أو مساويه فى القدر .

ومن أمثلة شعر الاعتذار ما قاله النابغة الذبيانى للنعمان وكان قـد فـر من الحيرة بعد أن غضب النعمان أبو قابوس عليه ولجأ إلى الغساسـنة ، فأكـرموا وفادتـه وأجزلوا له العطاء ، وهيئوا له فى جوارهم عيشة هانئة راضية ولكن ذكريات النابغة فى قصور النعمان وحنينه إلى عهوده القديمة ، وألمه لنجاح منافسيه فى إقصائه عن الحيرة كانـت مـا تـزال تشغل قلبه وتدفعه أن يلتمس طريق العودة إلى النعمان .

وقـد مهـد بذلـك بقصائد عدة حاول بها أن يترضاه ، ويعتـذر إلـيه من مدحـه الغسانيين وينتـزع مـن نفسه آثار الوشـاية الـتى تمكنت منها ، وكـان لهذه القصائد أثرها فى نفس الـنعمان ، فقـد خففت من حدة غضبه ، وهيأت للنابغـة سبيل العـودة إلى الحيرة مرة أخرى ، وهذه الأبيات من قصيدة هـى من جملة قصائد سميت باعتذاريات النابغة يقول فيها :

أتـانى أبيـت اللعـن أنـك لمتنى ... وتلـك التى أهتم منها وأنصب [1]

---

[1] أبيت اللعن : دعاء بالبعد عن أسباب الذم واللوم . وهى تحية جاهلية . أهتم منها : أحزن . أنصب : أتعب . ومعنى البيت نبئت وقاك الله كل نقص تعاب به أنك عاتب على وذلك أعظم ما يحزننى ويتعبنى .

فبـــت كـــان العائدات فرشن لى ... هراسا به يعلى فراشى ويقشب [١]

حلفـــت فـــلم أترك لنفسك ريبة ... ولـــيس وراء الله للمرء مذهب [٢]

لـــئن كنـــت قد بلغت عنى وشاية ... لمـــبلغك الواشى أغش وأكذب [٣]

ولكـــننى كنـــت امـــرأ لى جانب ... من الأرض فيه مستراد ومذهب [٤]

ملـــوك وإخـــوان إذا مـــا أتيتهم ... أحكـــم فى أموالهـــم وأقـــرب [٥]

كفعلـــك فى قوم أراك اصطنعتهم ... فلم ترهم فى شكر ذلك أذنبوا [٦]

---

(١) العائدات : الزائرات ، أو الهموم التى تعاوره . هراساً الهراس نوع من الشوك يقشـــب : يجدد . ومعنى البيت : بت كأنى مريض فرشت له عائداته شوكاً كلما هبط زدنه وجددنه .

(٢) ريـــبة : الشك . مذهب : طريق . والمعنى : حلفت بالله أنى لم أخن عهدك ، فكيف تشك بعد ذلك ، ومن أحلف بعد الله لإقناعك ؟ .

(٣) وشاية : الوشاية : الحديث يراد به الإفساد .

(٤)(٦) مســـتراد : المكـــان الذى يتردد فيه المرء لطلب الرزق . أحكم فى أموالهم : أتصرف فيها كيف أشاء . والمعنى : إنما أنا رجل طوردت فى الحيرة ، فذهبت إلى الغســـانيين حيث وجدت متسعاً لرزقى ورغباتى . وجدت ملوكاً وأخواناً أكرموا وفادتى ، وأطلقوا يدى فى أموالهم أنفق منها كيف أشاء .

(٦) اصطنعتهم : غيرتهم بمعروفك : والمعنى أن الغساسنة أحسنوا إلى فشكرتهم . كمـــا يشكرك من أحسنت إليهم ، فإذا كنت لا تعد شكر هؤلاء الناس لك ذنباً ، فكيف يعد شكرى للغساسنة ذنباً وخطيئة أحاسب عليهما ؟ .

فـلا تـتركني بالوعـيد كـأنني إلى الناس مطلي به القار أجرب [١]

ألم تـر أن الله أعطـاك سـورة تـرى كل ملك دونها يتذبذب [٢]

فـإنك شمـس والملـوك كواكب إذا طلعـت لم يـبد منهن كوكب

ولسـت بمسـتبق أخـا لا تلمه على شعث أى الرجال المهذب؟ [٣]

---

(١) الوعـيد : الإنذار والتهديد . والمعنى لا تتركني بسبب وعيدك منبوذاً يبتعد عـنى الناس خوفاً منك حتى جربت كالجمل الأجرب المطلى بالقار تبتعد عنه الإبل لئلا يعديها .

(٢) سـورة : منزلـة . يتذبذب : يتزلزل ويهتز . والمعنى : أن الله أعطاك منزلة يتطلع إليها الملوك فلا يصلون إليها .

(٣) الشعث : التفرق والانتشار . والمعنى : لا يمكن أن تبقى على الأصدقاء إذا لم تتغاض عنا بهم من عيوب .

الفصل الرابع

خصائص الشعر الجاهلى

ـــ الموضوعات .

ـــ البناء الفنى .

ـــ الألفاظ .

ـــ المعانى والأسلوب .

ـــ الخيال .

ـــ منهج القصيدة .

ـــ الشعراء الجاهليون وطبقاتهم .

ـــ المعلقات وأصحابها .

خصائص الشـــعر الجاهلى

****

الموضوعات (الأغراض) :

عندما نرجع إلى نصوص الشعر الجاهلى فى دواوين الشعراء أو إلى الـــنماذج التى ذكرناها فى مختلف الموضوعات نحس فى أثنائها نغمة قوية تتصل بالحماسة أو تتجاوزها إلى غيرها من المحامد العربية ، ونظهر فى الفخر بالشجاعة والإقدام والكرم والوفاء والنجدة وعراقة الأصـــل وغيرها من الأخلاق التى تعنى بها العرب فى الجاهلية ، وقد شـــاع الفخر بقوة العصبية ، ولأن الشاعر وجد فيه سبيلاً إلى تخليد مآثره ومآثر قبيلته ، فهو عنصر حيوى فى هذه البيئة التى لم يجد فيها غير الشعر وسيلة لتخليد نفسه وقومه .

وطبعى أن ما يتصل بالقوة عند الجاهليين هو مناط التنافس ، من دعوه إلى قتال أو حديث عن البطولة فى المعركة أو فخر بالنصر أو نحوها ، ومن الطبيعى أيضاً أن يكثر الشعر فى هذا الموضوع لقيام الحياة الجاهلية على التنافس والصراع والقوة والغلبة .

ولما كان الشعراء فى الجاهلية من أرقى الطبقات عقلاً وأدقهم شـــعوراً كما يدل على ذلك اشتقاق اسمهم ، فإنهم قد سبقوا قومهم إلى إدراك كـــثير من حقائق الحياة ، فصاغوها فى شعرهم كما فعل

زهير بن أبي سلمى فى حكمه وشعروا بما لم يشعر به الناس . أو بما شعروا به ولكن لم يستطيعوا التعبير عنه ، فعبر الشعراء عن مشاعرهم ، وتغنوا بما فى نفوسهم ، فاروا رغباتهم . والشعراء فى الأمم المتبدية يقومون بما يقوم به الفلاسفة والعلماء فى الأمم المتحضرة ، يرسمون المثل العليا ،ويفتحون أعين الناس لإدراك ما حولهم من شئون الحياة ونقدها وكذلك فعل الشعراء الجاهليون .

وكان العربى فى فخره والفخر يمثل ـ كما قلنا ـ عرضاً مهماً بالنسبة له لأنه دليل التفوق والسمو أو هو المترجم عما يستشعره العربى من فضل لنفسه على الآخرين خاصة إذا كانت الحياة عندئذ تقوم على سيطرة رئيس القبيلة على ناصية الأمور ، وهو من هو عقلاً ونسباً ورجاحة ، فلا غرو أن يعتد بهذا الموضوع الذى يكاد يكون السجل التاريخى لكل معانى العزة عند الجاهلى .

ومع كل ما يتضمنه هذا الموضوع من حيوية كان العربى غير نزاع فيه إلى المغالاة المسرفة ، وقلما نرى منه مثل قول امرئ القيس.

عليها فتى لم تحمل الأرض مثله   أبر بميثاق وأوفى وأصبرا

وإذا كان الشاعر العربى فى الجاهلية لم يهدف إلى رسم صورة محددة المعالم واضحة التسميات للحياة التى عاشها ، أو الأحياء الذين شاركهم الحياة ،وما كان له أن يهدف إلى ذلك ولا أن يفعله ، فإن هدفه من منطلق وعيه بفنه كان تصوير مشاعره تجاه مواقفه الحيوية التى عاشها ، فصور تطلعه إلى الغيث ورغبته فيه أو فرحته به ، من

خلال ما رسم من صور لها ، وصور شعوره حين فارقته أو التقت به محبوبـــته فى أثناء ما رسم من مواقفها معه ومعاملتها له وما رأى من مظاهر جمالها وهى تقبل عليه أو تصد عنه . [١]

وبما أن الشعر الجاهلى صورة لحياة العربى فى صحرائهم يبدو فيه ما مر بحياتهم من جدب وخصب وفقر وغنى وعسر ويسر [٢] ، فإنـــه غالباً ما يصور حياة البداوة ، وذلك لأن أكثر شعراء الجاهلية هـــم مـــن أهل البادية الذين تأثروا بحياتها ، ووصفوها فى شعرهم ، فوصـــفوا الصحراء والسماء والنجوم والرياح والأمطار ومضارب الخـــيام وأطـــلال الديار ، وملاعب الولدان والإبل وما يتصل بها والخـــيل وسماتها ، والرحلة وأهوال الفيافى والمبارك وآلات الحرب ، والصـــيد وأدواتـــه ، كمـــا فى وصف امرئ القيس لليل والفرس والصيد .

كذلك كان عمل الشاعر وهو يمدح الرجال أو يهجوهم أو يعـــتذر إليهم أو يشكو ما آثار شكايته ، وفى كل شعره كان يجسد مشـــاعره فى الصور التى يرسمها للأشياء ، وبذلك بدت تلك الصور حـــية نابضـــة ، كمـــا صب فيها الشاعر من حسه ونفسه . وكان الدارســـون قادرين على استنباط مظاهر الحياة من خلال هذا الشعر حـــين أعوزتهـــم المصادر الأخرى عن المعرفة بهذه الحياة لأن الشعر

---

(١) ٣٩ : الأدب العربى فى الجاهلية .

(٢) ٢٩ : الأدب العربى بين الجاهلية والإسلام .

ديوان العرب .

ومجمـــوع ما روى من الشعر فى (أيام العرب يمكن أن تبرز من خلاله صور للحياة السياسية والعسكرية الداخلية للقبائل العربية فى علاقات ما بينها ، وعلاقات بالعالم المحيط بها ممن كانت لهم معهم أيام ، كالفرس وغسان [1] ، وقد جاءت موضوعات الشعر تجسيدا لحياة هذا الشاعر وتفاعله مع من حوله ، وقد ضمن قصيدته متعددة الموضـــوعات ذلـــك التفاعل . ومن النادر أن نجد قصيدة تتناول موضـــوعاً واحـــداً لا تخرج عنه إلى سواه . فعلى سبيل المثال قلما جاء الوصـــف مســـتقلاً أو أفردت له قصائد خاصة ، ومـــع ذلك لم يخـــل الشـــعر الجاهـــلى مـــن وصف حياة الحضر فى قصور الغساسنة والمنـــاذرة .

وبالنظر إلى مطلع أكثر القصائد الجاهلية وبخاصة المعلقات ، نجـــد أنهـــا كانـــت تبدأ بالغزل الذى احتل مكاناً بارزاً فى الشـــعر الجاهلـــى .

وكان طبيعياً أن يظهر هذا الفن لأنه استجابة لنزعة فطرية فى الإنســـان ، ولأن العربى ذو حس مرهف دقيق يدرك الجمال ، ولأن فـــراغه الطويل وبيئته الحارة ، وإقفار حياته من وسائل المتعة وقيامها على التلاقى والفرقة ، كل ذلك كان يثير بواعث شوقه إلى المرأة ، فاهـــتم بها الشاعر اهتماماً بالغاً ، وتحدث عنها أما وأختاً وزوجة ،

---

(1) ٣٩ : الأدب العربى فى الجاهلية .

كما حدث عنها أمة وقينه ، ويدا من خلاله المكانة الاجتماعية لكل واحدة مما حدث عنه والأنشطة العلمية لها ، ومظاهر الحفاظ عليها ، وكـــان أكبر اهتمام الجاهليين فى شعرهم بالمرأة فتاة محبوبة فرسم لها صـــوراً مـــتعددة ، وتحـــدث عن لقاءاتهم بها ، وأماكن اللقاء وعن تعامـــلهم معها ، وأشكال هذا التعامل وافتراقها عنهم ، وآثار هذا الافتراق فى نفوسهم .

ورســـم الشعر من خلال ذلك صوراً مثالية للمظهر الجمالى الذى أحبوه فى المرأة من حيث المظهر الجسدى والإحساس الروحى والسلوك العملى . [1]

وكـــان أكثر هذا الغزل ينصرف إلى الأوصاف الحسية ، ولا يعنى بتحليل العواطف وخلجات النفوس ، كما كان أكثره عفاً بريئاً كما يقول عنترة عندما تذكر محبوبته عبلة وهو يخوض غمار معركة شعواء تزهق الشجاع وتذهب عقل الحليم :

ولقـــد ذكـــرتك والرماح نواهل　　مـــنى وبـــيض الهند تقطر من دمى
فـــوددت تقـــبل الســـيوف لأنها　　لمعـــت كـــبارق ثغـــرك المتبســـم

كذلـــك تريـــنا أشعار الجاهلين عديداً من الأخلاقيات التى يمتدح الرجل بها أو بأنها فيه ، وأنه يحرص عليها ولا يفرط فيها ، فهو يســـتحى أن يطمح فى غير الكرام وأصحاب الأمجاد الأصلاء ، ولا

---

(1) ٤٣ : الأدب العربى فى الجاهلية .

يطلب حاجة من محدث نعمة .[1]

كذلـــك مدح عرفانا بالجميل أو رغبة فى الكسب ، ويتسم هـــذا المـــدح الجاهلى بإيثار الصدق ، وعدم المبالغة ، أو الفناء فى الممـــدوح وهو يأخذ للمولى الضعيف حقه من الأقوياء إذا ما امتنع القوى من إعطاء الضعيف حقه ثم هو حريص من بعد ذلك على أن يحيا يقظاً كريماً حفيظاً على حرمة جارته أن تسمع ما تضيق به ، وهو واقعـــى فى كل ذلك لا يبالغ — كما أسلفنا — إلا ما نجده نادراً من مثل قول الأعشـــى :

ولقـــد نزلت بخير من وطئ الحصى   قـــيس ، مـــا ثبـــت نعلها وقبالها

وقول النابغـــة :

ألم تـــر أن الله أعطـــاك ســـورة   تـــرى كـــل ملك دونها يتذبذب

وفى هذا المدح تتجسد المثل الأخلاقية والسلوكية الرفيعة التى اعـــتز بها العربى فى جاهليته وأضفاها على نفسه وأهله وممدوحيه من الـــرجال ، وأكثر من ترديدها ورسم مظاهرها فيما افتخر به ومدح من الشعر ، وكثير ما جاء الفخر ممزوجاً بهجاء يحاول فيه الشاعر أن يجـــرد من يهجوه من الفضائل والمآثر التى كان الجاهليون يعتزون بها وقد يكون الهجاء تهكماً كما فى قول عبيد :

هـــلا عـــلى حجـــر بـــن أم   قطـــام تـــبكى لا علينـــا

---

(1) ٤٧ : الســـابق .

وحينا نراه تهكماً لا ذعاً كقول زهير :

وما أدرى وسوف اخال أدرى أقوم آل حصن أم نساء

ويكاد القارئ يلمس خلائق الجاهليين العرب فى أشعارهم فى صور متعددة للشجاعة المفرطة والإقدام الجرئ ، وإغاثة اللهفان ونجده المستغيث وإجابة الداعى ، وإباء الضيم والحفاظ على الحرم كما نراه يبدى درجات متفاوتة للكرم ، متمثلة فى العطاء والإطعام وإيواء الفقير وهداية الجائع الضال بالنيران التى يوقدها فى ليالى الشتاء القارص ، وبكلابه التى ينشرها فتعوى لتسمع أصواتها فيهتدى بها .[1]

وفى مقابل تلك الصفات احتفظ الشعر الجاهلى بطائفة مضادة لما استحبه فاستهجنها ، وذم أصحابها بها ، أو برأ نفسه أن تنسب إليه أو أن يتصف بها ، فصار الهجاء مظهراً من مظاهر الشعر الجاهلى وأكثر فنونه تأثيراً فى الآخر ، فيه يضع من الأقدار ويحط من الشئون ، وذلك راجع فى الغالب إلى الحروب المتواصلة بين القبائل ولا تكاد تنقطع ، وكأن حرب اللسان من الشعراء صدى لصليل السيوف ووقع السهام ، فالشاعر من قبيلة يهجو القبائل الأخرى ويعايرها بأفعالها ، وما صدر من أفرادها ، ويؤول ما صدر عنها تأويلاً سيئاً ، وقد يختلق عليها جرائم لم ترتكبها ، فيفعل الشعراء الآخرون فعله وينتهزون عليه قوله ، يقول السموءل :

---

(١) انظر : ٤٦ وما بعدها / الأدب العربى فى الجاهلية .

وإنـا أنـاس لا نـرى الموت سبة إذا مـا رأتـه عامـر وسـلول

يقـرب حـب المـوت آجالنا لنا وتكـرهه آجـالهم فـتطول

ومـا مـات منا واحد حتف أنفه ولا طـل مـنا حيـث كان قتيل

وفى الشعر الجاهلى رثاء يتميز برهافة الحس وصدق العاطفة، والبعد عن التهويل الكاذب . .

ومـنه كذلـك اعتذار ومن أوضح أمثلته ــ كما قدمنا ــ اعـتذاريات الـنابغة للنعمان بن المنذر ، وهو غرض قليل فى الشعر الجاهـلى لأنه لا يتفق وطبيعة العربى الذى يتصف بالإباء والاعتداد بنفسه .

وفيه حكم ساقها بعض الشعراء صدى لصفاء فطرقم وكثرة تجاربهم وقدرتهم على استخلاص وجه العبرة مما يمر بهم من أحداث ، حيث أودع الشاعر الجاهلى حياته وحياة بيئته فى شعره ، لأنه كان يجد مشاعره فى صورة مادية ، ولم يضع معانيه أو رؤاه مجردة ، وكان يستمد صوره من الحياة التى عاشها وتجاربه من علاقته بها ، وحكمة خلاصة تلك التجارب وخبرته بالحياة ، والمعارف التى أفادها منها ، فلم يلجأ إلى غير واقعه يأخذ منه ويصوغ فيه ، فإن خرج عليه فهو فى إطـار المـبالغة فى الصـورة بالقدر الذى تتكافأ فيه الصورة مع الإحسـاس الـذى ينفعل به ، والموقف الذى ينبعث شعره منه ولا يزيـد ، وحتى مبالغاته . يمكن إدراك الزيادة فيها بيسر .

فحكم الشاعر الجاهلى مع قلتها تدل بوضوح أنها منتزعة من حـياته ومـن بيئته ومعايشته لها بكل ظروفها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والقبلية منها فى المقام الأول . نجد نموذجاً لتلك الحكم فى أبيات زهير ابن أبى سلمى :

ومن يجعل المعروف من دون عرضه يفـره ومـن لا يتق الشتم يشتم
ومـن يـك ذا فضل فيبخل بماله عـلى قومـه يسـتغن عنه ويذمم
ومـن هـاب أسـباب المنايا ينلنه وإن يـرق أسـباب السماء بسلم
ومـن لم يـزد عن حوضه بسلاحه يهـدم ومـن لا يظلم الناس يظلم
ومهمـا تكن عند امرئ من خليقة وإن خالهـا تخفى على الناس تعلم

ومنهـــا :

ومـن يعصى أطراف الزجاج فإنه يطـيع العـوالى ركبت كل لهذم
ومـن يوف لا يذد من يفض قلبه إلى مطمـئن الـبر لا يـتجمجم

ولطرفه بن العبد مثل ذلك فى معلقته :

كذلـك احتوى الشعر الجاهلى واشتمل على صور متعددة ومـتفاوتة لحـياة الجاهلـيين الخاصة والعامة فى البيوت والنوادى والأسـواق فى جدهم ولهوهم ، وفى صحوهم وسكرهم ، وفى ليلهم ونهـارهم ، فى سلمهم وحربهم فى غناهم وفقرهم ، فيما يجدون من الخصب والجدب والحر والبرد والنور والظلمة ، حتى الحياة الأسرية الخاصة لم تنعدم صورها فى هذا الشعر .

وكثيراً أيضاً ما صورت علاقات ما بين المرأة والرجل سواء كانت محبوبة ترحل وتترك صاحبها ، أو زوجة تلازم زوجها .

كما تضمن هذا الشعر أحداث الحياة فى إشارات رمزية لمعان أو أحداث جرت فى هذه الحياة ؛ وأحياناً جاءت معتقداتهم الشعبية فى صـــورة مادية للدلالة على معان نفسية أو كونية تجسمها وتوحى بمكنوناتها [١] ، فمثلاً إيمانهم بشؤم الناقة التى تلد الذكور يرد فى شعر عروة بن الورد تجسيماً لمخاوف زوجته عليه حين تقول له :

تقـــول لك الويلات هل أنت تارك ... ضـــبوءا بـــرجل تـــاره وبمنسر [٢]
ومســـتثبت فى مـــالك العام إننى ... أراك على أقتاد صرماء مذكر [٣]

وإيمـــانهم أن روح القتـــيل الذى لم يؤخذ بثأره تصير هامة ، تصيح عند قبره ترد فى شعر عروة رمزاً للموت فى قوله :

ذريـــنى ونفســـى أم حســـان إننى ... بهـــا قـــبل إلا أملـــك البيع مشتر
أحاديـــث تـــبقى والفتى غير خالد ... إذا هـــو أمسى هامة فوق صير [٤]

---

(١) ٥٤ : الأدب العربى فى الجاهلية .

(٢) الضبوء : تريد به الغزو . الرجل : الرجال المشاة . المنسر : جماعة الخيل .

(٣) مســـتثبت : بـــاق . أقتاد : خشب الرحل . صرماء : الناقة القليلة اللبن . المذكـــر : الـــتى تلد الذكور . تقول له : هلا تترك الغزو مرة بالرجال ومرة بالفرســـان ، وتبقى هذا العام بدون غزو ، فإنى أخاف عليك ، كأنك تركب هذه الناقة .

(٤) الهامة : ما يعتقد أنه روح القتيل تصيح عند قبرة . الصير : القبر .

تجـاوب أحجار الكناس وتشتكى إلى كـل معروف رأته ومنكر [١]

وبالـتأمل فى موضـوعات الشعر الجاهلى نلاحظ أنها وليدة البيـئة ، ومن نبع الحياة الجاهلية ، وأن من هذه الأغراض ما قوى واسـتفاض لشـدة اتصاله بالحياة الجاهلية وضرورات العيش فيها كالحماسـة ووصـف الناقة والحصان ، وأن منها ما قل فيه الشعر كالاعتذار والحكمة .

(١) الكناس : موضع . يريد أن الهامة إذا صوتت أجابتها أحجار الكناس بالصدى فهى تصوت دائماً وتشتكى لكل الناس .

خصـــائص البنـــــاء الفـــــنى

(عناصر القصيدة الجاهلية)

****

كان الشعر الجاهلى صورة صادقة لحياة العرب الاجتماعية ، ومن ثم قالوا إن الشعر ديوان العرب ، سجلوا فيه أخبارهم وحروبهم وعـــاداتهم وتقالـــيدهم وعقليتهم ، ودون فيه الشعراء ما رأوا وما شـــعروا ، ومزج الشاعر فيه الحياة التى حوله بمشاعره ، وعبر عن ذلـــك بأصدق لفظ وأقر به ، وهو فى هذا يمتاز عن كل شعر غيره ظهـــر بعد ، لأن الشعر الجاهلى كله كان منبعثاً عن النفس مبتكراً خالياً من التعقيد والتقليد ، وما أتى بعده من شعر كان يحتذى حذوه ويسير على منهجه ، فلم يكن كله يعبر تعبيراً صادقاً عن الحياة التى يحياها أهله . ومن أجل ذلك امتاز الشعر الجاهلى بخصائص فى ألفاظه وأساليبه وسمات فى معانيه .

الألفـــاظ : لفظ الشعر الجاهلى تغلب عليه لجزالة والقوة ، وتـــنعكس عليه كثيراً خشونة البادية وصلابتها مع عدم التكلف ، وهـــذه نتيجة طبعيه للحياة البدوية ، فكلما كانت الحياة لا تكلف فـــيها ولا تعقـــيد ، كـــان الشعر خالياً من التكلفة والالتواء إلا فى القلـــيـــل ، ومـــن نتائج ذلك القصد فى المبالغة أن الشاعر الجاهلى أمـــيل إلى الإيجاز يعبر عما يقصده بأقرب لفظ وأوجزه غير ميال إلى

الإغـــراب ، فإن كانت هناك ألفاظ غريبة علينا ، فذلك لبعد عهدنا بالشـــاعر ولغته ، وعدم وقوفنا وقوفاً تاماً على نوع حياته ، ومرمى ألفاظـــه ، وهو أزهد ما يكون فى تزويق اللفظ وتجميله لا يتعمد إلى جـــناس أو ضرب آخر من البديع ، إلا أن يأتى عفواً ، يستثنى من ذلك الألفاظ التى توظف فى وصف الحيوان والجماد والطير والنبات، لتعامل الشاعر الخاص مع الألفاظ التى تدور فى فلك هذه الأوصاف كمـــا هى معـــروفة فى بيئاها ومتعارف عليها بين أهلها ، فخشونتها لا فى ذاهـــا بـــل فى جهلنا بها أولاً ثم عدم وجودها بمسمياها اليوم بيننا ثانياً .

ومن أوصاف الناقة التى حشدها طرفه بين العبد فى قصيدة له قولـــه :

صـــهابيه العثـــنون موجـــدة القرا بعـــيدة وخد الرجل موارة اليد [1]

جـــنوح دقـــاق عندل ثم أفرعت لهـــا كـــتفاها فى معالى مصعد [2]

---

(١) صـــهابية : صهباء اللون : وهو بياض ممزوج بحمرة . والعثنون : شعر تحت الحـــنك . موجدة القرا : قوية الظهر . الوخد : ضرب من السير . موارة : سريعة الحركة .

(٢) جـــنوح : مائلـــة من سرعتها . دقاق : متدفقة فى السير . عندل : عظيمة الـــرأس. والإفـــراع : أفرعت رفعت . معالى : مرتفع والتصعيد ، الصعود والارتفـــاع . والمعنى : إن هذه الناقة شديدة الميلان عن سمت الطريق لفرط نشاطها فى السير مسرعة غاية الإسراع ، عظيمة الرأس ، وقد عليت كتفاها فى ظهر معلى مصعد .

كــأن علــوب النســع فى دأياتها   موارد من خلفاء فى ظهر قردد [١]

ولــو حاولــنا استقصاء الأشعار التى تحمل خشونة اللفظ ، ووعــورة الكلمات ــ من منظورنا وحب استغرابنا لها ــ لاجتمع لديــنا الكــثير؛ لأن هــؤلاء الشعراء إنما ترجموا عن بيئتهم الحافلة بالصــلابة والقوة واستقوا منها ، ذلك لأن الشعر الجاهلى يكثر فيه ذكــر الأمــاكن والــبقاع ، ويكــثير فيه الحديث عن الحيوان ، وتفصــيلات أجــزائه ، وفيه إشارات إلى أحداث تاريخية وأسطورية شــعبية مســتمدة من البيئة ، أو من معتقدات غير متداولة ، وفيه إشارات لأشياء أخرى كانت من نبع بيئاتها المحدودة لم تخرج عنها إلى حــدود العــالم العربى المعروف من بعد الإسلام ، ومن بعد التعرب الذى تم بسببه .

وأمــر طبعى أن تكون الألفاظ المستعملة فى كل ذلك صعبة لدينا ، لأن مدلولاتها غير معروفة إلا فى شروح هذا الشعر وفى بطون المعاجم . [٢]

وقد خلا شعرهم من الألفاظ الأجنبية والأعجمية ، إلا شعر

---

[١] علــوب : آثار النسع : حزام الرحل . الدأيات : مآخر الأضلاع . موارد : طرق ماء . خلفاء : الصخرة الملساء . القردد : الأرض الصلبة . يقول كأنها آثــار النســع فى ظهر هذه الناقة وجنبيها نقر فيها ماء من صخرة ملساء فى أرض غليظة فيها وهاد ونجاد .

[٢] انظر ٧٧ وما بعدها : تاريخ الأدب العربى فى الجاهلية .

الأعشــى فقد برزت فيه بعض الألفاظ الأعجمية نتيجة لرحلاته إلى بلاد الشام التى كانت وثيقة الصلة بالروم .

وإلى جانــب الخشــونة والجــزالة فى الألفاظ ، حمل الشعر الجاهــلى فى كــثير من الأحيان ألفاظ رقيقة عذبة واضحة سلسة ، ويــبدو أن الكــلمة من حيث الوعورة والرقة ، انما كانت تناسب موضــوع القصــيدة ، فإذا كان الشاعر يتغزل جاءت ألفاظه رقيقة واضــحة دالــة عــلى المراد تناسب المشاعر الفياضة والأحاسيس المتدفقــة ، أما إذا كان وصفاً للناقة استغربنا الألفاظ التى تستدعى للوصف ، وأحسسنا بخشونتها ، لأنها ألفاظ البادية الموظفة يومياً فى حــياتهم ، بيــنما الألفاظ المستخدمة فى الحضر تكون بطبيعتها أرق وأيسر وأعذب وهكذا لكل موضوع ما يناسبه من الألفاظ ، ولكل بيئة لغتها التى تناسبها .

ومــن الشــعر الواضح الألفاظ القريب المنال ما قاله المنخل البشكرى فى فتاته :

ولقد دخلت على الفتاة   الخدر فى اليوم المطيــر

الكاعب الحسناء ترفــل   فى الدمقس وفى الحرير

فدفعتهــا فتدافعــــت   مشى القطاة إلى الغدير

والمهلهل بن ربيعة يرق فى رثاء أخيه كليب فيقول :

دعوتــك يــا كليــب فلم تجبنى   وكــيف يجيــبنى الــبلد القفــار

أجـــبنى يــا كليــب خــلاك ذم لقـــد فجعـــت بفارســـها نـــزار

ولبيد عندما يرثى أخاه أربد يعذب لفظه وترق كلماته يقول:

فـلا جـزع إن فرق الدهر بيننا فكـل امـرئ يوماً به الدهر فاجع
ومـا المـال والآهلـون إلا ودائع ولابـد يومـاً أن تـرد الودائـع

بيـــنما نجد هؤلاء الشعراء فى غيرهذه الموضوعات التى تمثلنا لهم فيها بأبيات ألفاظ تبدو لنا غريبة وخشنة لا نكاد نعلم معانيها إلا بعد العودة إلى معاجم اللغة وشروحها ، وما ذلك إلا لبعد العهد بها، ومن أجل هذا وجدنا من نقاد العرب بعد عصر التدوين ن خاصة فى القرن الثالث الهجرى من يستعمل مصطلح (الحوشى) أو (الوحشى) من الألفاظ مع قرب عهدهم من أولئك واستقامة لغتهم وفصاحتهم فمـــا بالنا نحن اليوم ؟! ومن المعروف أن اللغة يسهل إدراك معانيها ومدلولاتهـــا باستعمالها فى الحياة اليومية أو الأدبية ، وأن مدلولاتها تستعصـــى عـــلى الإدراك حين تهجر من لغة الاستعمال ، وهذا ما يصدف عليه قولهم : إن اللغة تحيا بالاستعمال وتموت بالإهمال :

ومما سبق نخلص إلى أن الألفاظ الجاهليـــة كانت تتسم أحياناً بالغـــرابة والوعـــورة والجزالة لتناسب موضـــوع القصيدة ، وأنها كانت تبدو فى أحيان أخرى رقيقة سهلة واضحـــة لينة عندما تصدر عـــن عاطفة رقيقة كالغزل ، أو إحساس مرهف صقله الحزن وشفه الألم كالرثاء .

كذلك تمتاز الألفاظ الجاهلية بالإعراب والفصاحة ، فليس فيها لحن ولا ركاكة ، لأن العربية لغتهم التى شبوا عليها وارتضعوا منها ، ولأن الفصاحة مفخرتهم التى كانوا بها يعتزون .[١]

وقد استعملوا ألفاظهم غالباً فى معانيها الحقيقية لوضوح حياتهم وقيامها على الصدق والوضوح والصراحة ، ولم تكن تتجه إلى المجاز إلا فى القليل النادر حين يراد الوصف أو الغزل ، أما أساليبهم فيغلب عليها الاستواء والإيجاز مع متانة بناء التراكيب ، بعيدة عن الالتواء والتعقيد ، ثم أداء المعنى من أقرب طريق ، بعيداً عن الزخرف وألوان التجميل اللفظى ، وقلة الفضول وجودة السبك وشدة الأسر . وذلك لأنها أساليب فطرية تنضرها الطبيعة المشرقة ، وتزينها الصراحة الواضحة ، ولأن الشعر الجاهلى اتخذ اللغة العربية العليا وسيلة لأدائه ، فإننا نجد أن الشعراء الجاهليين جميعهم يتفقون ويتشابهون فى اللغة التى أدوا بها أشعارهم مهما تباعدوا وافترقوا فى إنحاء الجزيرة العربية ، اللهم إلا بعض الأبيات الشعرية المفردة التى نظمت باللهجات المحلية للقبائل مما اتخذه العلماء اللغويون شواهد ودلائل على تلك اللهجات .[٢]

ومما يميز أساليبهم أنه كان يغلب عليها إيراد المعانى فى صورة خطاب من لا يعقل من طلل أو ناقة أو فرس ، وهذا يدلنا على أن

---

[١] ٢٩٣ : الأدب العربى بين الجاهلية والإسلام .

[٢] ٧٦ : الأدب العربى فى الجاهلية .

لغـــة الشـــعر الجاهــلى ــ فى أكثرها ــ لغة تصويرية قل أن يلجأ الشـــاعر فـــيها إلى التجريد ، وبالطبع يأتى التصوير من خلال نسق الكلمات فى إطار فنى يعمد فيه الشاعر إلى تجسيد المعانى وإبرازها فى صـــورة محســـة وأحياناً ينسق الشاعر كلماته بطريقة تلح على معنى يعكس مشاعره بوضوح .

المعـــــانى :

كانـــت معانى الشعر الجاهلى مظهراً للعقلية العربية فى ذلك العصـــر ، ولم تكـــن هذه العقلية ، ولا سيما فى البادية قد نضجت نضـــجها فى البيـــئات المتحضـــرة ، ولتفاوت الشعراء فى مدركاتهم الحســـية والعقلـــية وفى نظراتهم إلى الحياة والناس ، وفى مواجهاتهم للمواقف المختلفة ، وفى الموقف الواحد حسب الظروف النفسية التى يكونـــون فـــيها ، لذلك كله كان اختلاف الشعراء فى المعانى التى يصـــورونها فى أشعارهم ، ولكن هناك قدرا مشتركا يمكن أن يكون سمـــة عامـــة فى معانى الشعر الجاهلى ، وهي أنها فطرية قريبة التناول منـــتزعة مـــن البيئة التى صورتها ، وأنها معان حسية تصور الواقع ، وتـــبعد عـــن الكذب ، وتعتمد على المشاهد المألوف من مشتملات البيـــئة الـــتى نشأ فيها الشعر . ومما ميز معانى الشعر الجاهلى بقرب المـــأخذ وفطريـــتها المعارف التى كانت لا تعدو عند العربى فى هذا العصر موروثة عن آبائه من عادات وتقاليد وآداب وأساطير ومعرفة بالنجوم وحركتها والرياح وأنواعها ، والنبات وما يفيده أو يضره ،

وبعض من الطب والبيطرة والأديان .

كذلك ما إفاده الإنسان من خلال تجاربه من الحياة والأحياء، وبعض المعارف الخارجية التى أفادها العربى من صلاته بالآخرين ممن التقاهم وأفاد منهم من الأجناس المختلفة ورجال الدين ، وممن خالطهم فى التجارة والرحلات أو الإقامة بينهم ، فقد عرفوا الفرس والروم ومدحوا ملوكهم ، كذلك الأحباش عن طريق الجوار كما عرفوا النصارى واليهود الذين أقاموا معهم فى نجران والحجاز ، ولا شك أن من اختلط بهم من العرب قد أفاد من معارفهم التى تركت بصماتها على معانيهم التى بسطوها فى تلقائية وانطلاق وحرية لا قيد عليها ، وهى بريئة من المبالغات والتهويلات المفرطة كقول دريد بن الصمة :

فإن يك عبد الله خلا مكانه   فما كان وقافاً ولا طائش اليد

ولم تتسرب المبالغات إلى معانيهم إلا فى القليل النادر كقول عنترة :

وأنا المنية فى المواطن كلها   والطعن منى سابق الآجال

ولكن هذه المبالغات لم تكن لديهم كثيرة لاعتماد حياتهم على البساطة والوضوح والصراحة كما سبق . ولكل ذلك بدت معانيهم مسترسلة متدفقة ، سهلة فى إدراكها ميسورة فى تقبلها ، لا يقف منها أمام الزعى بها إذا ما انكشفت ألفاظها ، أو كشف عنها فى

معجـــم لغوى . وأكثر تلك المعانى كان خالياً من التعميق والتعقيد ، وأنهـــا حين كانت تتناول موضوعاً ما ، لم تكن تستوعبه ولا تفصل نواحيه المختلفة ، وإنما كانت فى الغالب خطرات تدور حوله ولم تجئ معانى الشعر مجردة ، وخاصة شعر القصيدة ، إنما أتت المعانى مصورة فى أشـــكال ماديـــة يبعد بها الشاعر عن معناه بدل أن يصرح به أو يســـميه ، وسواء أكانت صورة مجازية أو حقيقية فكلتاهما توحى به وتدل عليه دلالة مؤكدة .

ويلاحـــظ عـــلى معانى الشعر فى الجاهلية ضعف التماسك ووهـــن الارتباط وقلة العناية بسياق الفكر ، ولأن القصيدة الجاهلية قائمة على وحدة البيت ـــ بمعنى أن كل بيت يستقل بمعناه فى الوهلة الأولى لأن هناك ما يربط بين أجزاء القصيدة الطويلة أو القصيرة مما يجعـــلها عـــند النظرة الكلية منها متماسكة بحيث يسهل مع الوحدة النفسية التى تتحكم فى القصيدة ككل الانتقال من جزئية إلى أخرى ـــ لذلك يسهل فهم مفرداتها المعنوية لأنها تكون متضمنة على شكل وحدات فى الأبيات .

وبـــناء على التعليل السابق لا ضير أن نجد بعض الدارسين يـــرى أن مساق الأبيات [1] فى القصيدة الجاهلية مفكك ، وعلائق المعانى واهية ، فإذا حذفت أو قدمت أو أخرت لم تشوه القصيدة ولم يختل المعنى ولم يضع الغرض .

---

[1] ٢٩٤ : الأدب العربى بين الجاهلية والإسلام .

وربمـــا لاحظنا شيئاً من التشابه فى المعانى التى كانت الشعراء يتداولونها ، وربما ذلك ما قصده زهير حين قال :

مـــا أرانـــا نقـــول إلا معـــاراً أو معـــاداً مـــن قولـــنا مكـــروراً

ومـــرجع ذلـــك ــ كما ذكرنا البيئة المحدودة وإن ترامت أطرافها لأنها متشابهة الأشكال مكرورة المناظر .

ويكـــثر الشـــعراء الجاهلـــيون من الاستطراد فى قصائدهم والانـــتقال مـــن معـــنى إلى آخـــر دون تمهيداً أو مناسبة ، وكانوا يستعيضـــون عن ذلك بمثل : فدع ذا وسل الهم عنك بحسرة أو فعد عمـــا ترى ، ومرجع ذلك كثرة الارتحال والبداوة وقد انعكس نمط الحياة على القصيدة نفسها .

ولـــيس من المنطقى أن نعمم الحكم بالتفكك على القصيدة الجاهلية ونقول " ليست هناك وحدة فنية فى القصيدة الجاهلية ، ولا وحـــدة فى الغـــرض ، لأن كل قصيدة تشتمل على عدة أغراض ، كالنسيب ووصف الناقة أو الفرس أو حمر الوحش أو المطر أو المدح أو الهجاء .. .. ولهذا كانت وحدة النقد فى الشعر الجاهلى البيت لا القصـــيدة " [1] لأن ديـــوان الشـــعر الجاهلى لا نعدم فيه جملة من القصـــائد المتماسكة بمفهوم الوحدة والتماسك الحديثين على الأقل لطائفة من الشعراء لهم اتجاههم الخاص وطريقتهم فى الحياة وأسلوبهم

(١) ٢٩٤ ــ ٢٩٥ : الأدب العربى بين الجاهلين والإسلام .

فى التعامل مع الآخرين ، فالصعاليك لهم شعرهم الذى يتميز بعدة خصائص منها ما يتصل بالوحدة الموضوعية ، " فالناظر فى شعر الصعاليك تلفت نظره تلك الوحدة الموضوعية فى مقطوعاته وأكثر قصائده ، بحيث يستطيع أن يصنع لكل مقطوعة عنواناً خاصاً بها ، دالاً على موضوعها وهى ظاهرة لم تعرفها قصائد الشعر الجاهلى القبلى فى مجموعه " [1] وقد تظهر هذه الوحدة أحياناً فى مثل شعر امرئ القيس فى القصص الغزلى والدبيب كما فى قصيدته التى يقول فيها :

سموت إليها بعد ما نام أهلها   سمو حباب الماء حالاً على حال

فإنها قصة مرتبة المعانى مرتبطة الأبيات متساوقة الأفكار .

وبناء على ما سبق يمكن القول بأن القصيدة الجاهلية توزعتها وحدة البيت وهى أكثر ما تكون . ووحدة نفسية وموضوعية نلحظها عند الشعراء عموماً والشعراء الصعاليك على وجه الخصوص . إلى جانب وحدة عامة ومنهج محدود من : افتتاحها بالغزل ثم وصف مناظر الصحراء التى يشاهدها الشاعر فى طريقه ، ثم الإلمام بالغرض المقصود ، وإن كانت أنفته دعته إلى تمويه هذا الغرض الأساسى بهذه العواطف وتلك الصور .

---

(1) ٢٦٤ : الشعراء الصعاليك فى العصر الجاهلى :

٢الأخيـــــــلة :

خيال الشاعر الجاهلى انعكاس لما شاهدة فى بيته البدوية وهو منتزع منها ، وأن كانت تنتزع أحياناً من غير هذه البيئة ، فالشاعر يحلــق فى آفاق البادية بروائع تشبيهاته وبدائع استعاراته ، وطرائف كناياته ومأثور حكمه الخالدة وأمثاله السائرة .

ولكنه خيال محدود بحدود البيئة ، وهى ليست متعددة المناظر ولا متنوعة المظاهر ولا كثيرة المشاهد ، حتى توحى إلى أبنائها بالكثير مـــن طـــرائف الخيال ومختلف المعانى ، كما توحى مظاهر الحضارة وألوانها المتعددة [1]، ومع ذلك استطاع الشاعر الجاهلى أن يستعيض هـــذه المحدودية بابتداع المناظر المحسة التى تقوم على الحوار ولو من جانب الشاعر وحده ، ومرة يعتمد التصوير على التعبير بالمحسوسات بديلاً من المعنويات أى يبرز المعانى فى صورها الدالة عليها .

وأكثر الصـــور التى لجأ إليها الشاعر الجاهلى لتجسيم معانيه اعـــتمدت علـــــى وسائل بيانية مختلفة ، ونال التشبيه قسطاً كبيراً مـــنها، وتفنن الشـــعراء فى الصور التى صاغوها منه تفننا صار فيها قدوة ومثلاً . [2]

واســـتمد الشـــاعر تشبيهاته واستعاراته وكناياته من مناظر البادية وعاداتها ومألوفها ، وما يجرى فى سمائها من أفلاك ، وما يطرد

---

(1) ٢٩٥ : الأدب العربى بين الجاهلية والإسلام .

(2) ٧٩ : الأدب العربى فى الجاهلية .

فى صحرائها من نبات وحيوان .[1]

واعتمد الشاعر الاستعارة فى شعره وسيلة للتشخيص والتجسيم وبعث الحياة فى الجوامد ، والإيحاء بالمشاعر والمعنويات ، يقول تأبط شراً فى النجاة من الموت فى خيال فذ عجيب :

تخالط سهل الأرض لم يكدح الصفا   بـه كدحـة والموت خزيان ينظر

فالموت ينظر فى خزي وحسره لأنه لم يصبه وقد نجا منه :

واستعملت الكناية بكثرة باعتبارها من أهم وسائل التصوير الفنى الذى يحمل فى طياته الدليل على المعنى الذى يصوره [2] فعندما يقول امرئ القيس .

وتضحى فتيت المسك فوق فراشها   نـؤوم الضحى لم تنتطق عن تفضل

فهـو يكنى عن رفاهية محبوبته وعزها فى هذا الإطار الجميل المستمد من البيئة وعاداتها .

والبيئة عند امرئ القيس مجال فسيح وفضاء رحيب يستمد منها تشبيهاته من بيئته ، فيذكر أن السباع وهى غرقى فى السيل تشبه أصول البصل البري .

كـأن أن السباع فيه غرقى عشية   بأرجائـه القصوى أنابيش عنصل

ويشبه نشحم بأطراف الحرير المفتل فى قوله : ـــ

---

(١) ٢٢٥ : الأدب العربى بين الجاهلية والإسلام .

(٢) ٨٠ : الأدب العربى فى الجاهلية .

فظــل العــذارى يــرتمين بلحمها وشـــحم كهـــداب الدمقس المفتل

و"طــرفه" يشـــبه صوت مغنية بصوت النوق المتجاوبة على فصيل هالك وياله من تشبيه . [1]

إذا رجعت فى صوتها خلت صوتها تجـاوب أظـئار عـلى ربع ردى

وامـــرؤ القيس يتحدث عن الليل وما اعتراه فيه من هموم مستمدا جزئـــيات الصورة التى تخيلها من البيئة التى يعيشها وإن كنا نجد هنا تشـــبيه الليل بموج البحر مع أن الجزيرة العربية تخلو من البحار وما ذلك إلا لأن امرأ القيس كأن يرتاد بالرحلة الأصقاع ويجوب خارج نطاق الجزيرة العربية ولابد أنه قد رأى البحر فشبه به ليله كما شبه هذا الليل بجمل ألقى عليه نفسه وناء ثقله وكلكله عليه يقول :

ولـــيل كموج البحر أرخى سدوله عـــلى بـــأنواع الهمـــوم ليبتـــلى
فقلـــت له لمـــا تمطـــى بصـــلبه وأردف أعجـــازا ونـــاء بكلكـــل
ألا أيهـــا اللـــيل الطويل ألا انجلى بصـــبح ومـــا الإصباح منك بأمثل

أما هموم النابغة وما يسيطر عليه من قلق فيوظف للتعبير عنه اللـــيل الذى حط بساحته طويلاً حتى إن نجومه لا تكاد تغور لتؤذن بانبلاج النهار فيقول :

كلـــينى لهـــم يـــا أميـــمة ناصب ولـــيل أقاســـيه بطـــئ الكواكب
تطـــاول حـــتى قلت ليس بمنقض ولـــيس الذى يرعى النجوم بآيب

---

[1] ٢٩٦ : الأدب العربى بين الجاهلية والإسلام .

وصـــدر أراح اللــيل عازب همه تضاعف فيه الحزن من كل جانب

والمهـــلهل يــتحدث عـــن طول الليل فيشبه النجم فى بطئه بالفصال الصغيرة التى تجول فى المطر فتخشى الزلق فلا تسرع :

كـــان الـــنجم إذ ولى ســـحيراً فصـــال جنـــن فى يـــوم مطـــير

ويلاحظ فى التشبيهات السابقة وتلك الصور أنها مستقاة من البيـــئة مـــأخوذة مـــن واقعهـــا ، لا يكاد يخرج عنها إلا فى حدود مشـــاهدات الشـــاعر من خارجها وهل تقع هذه التشبيهات إلا فى خـــيال الـــبدوى الـــذى يمثل البادية فى بساطتها وسذاجتها ، تلك السذاجة التى تظهر فى مثل قول الأعشى فى محبوبته :

عهـــدى بهـــا فى الحى قد سربلت هـــيفاء مـــثل المهـــرة الضـــامر

عـــلى أن ذلك لا يعنى أن الشاعر الجاهلى كان ضيق الأفق معـــدوم الخيال ، فالحق أنه كان على العكس من ذلك واسع الأفق خصـــيب الخـــيال تتبدى سعة أفقه فى ربطه المتمكن بين صور الحياة المتـــباعدة فى الوجـــود فتراه يتحدث فى موضوع محدد ومن خلال شـــعور خاص ، إذا هو يحشد لهذا الموضوع ظواهر شتى من مظاهر الحـــياة يقرنها بجزئيات موضوعية عن طريق التشبيه ، أو يمنح بعضها صـــفات أشياء أخرى فى شكل استعارة أو يجسد معانيها فى أشكال صور لها أو لأشياء غيرها .[1]

---

[1] انظر : ٨٢ وما بعدها الأدب العربى فى الجاهلية .

وينبغي أن نلاحظ أخيراً أن تشابه هذه البيئة البدوية فى صخورها ورمالها ووهادها وجبالها ومناظرها المحدودة ، ومشاهدها المحصورة ، وتشابه حياة أهلها وتقارب معايشهم ، كل ذلك قد جعل الشعر الجاهلى متشابها فى كثير من تعابيره وألفاظه ومعانيه وأخيلته يقول امرؤ القيس :

وقوفاً بها صحبى على مطيهم   يقولون لا تهلك أسى وتجمل

ويقول طرفة :

وقوفاً بها صحبى على مطيهم   يقولون لا تهلك أسى وتجلد

والفرق بين البيتين فى اختلاف الكلمة الأخيرة منهما :

ومثال آخر على مثل هذا الصنيع بين الشعراء يقول امرؤ القيس :

فدعها وسل الهم عنك بجسرة   رفول إذا صام النهار وهجرا

ويقول علقمة وهو معاصر لامرئ القيس :

فدعها وسل الهم عنك بجسرة   كهمك فيها بالرداف خبيب

والشاعران متفقان فى الشطر الأول كما ترى ، وهذا كانت معانيهم وأخيلتهم صورة صادقة من حياتهم وبيئتهم وعنواناً صحيحاً لما اتسموا به من وضوح الفطرة وإشراق الطبيعة والبعد عن المراوغة والتكلف . [1]

---

[1] راجع ص ٢٩٧ وما بعدها الأدب العربى بين الجاهلية والإسلام .

والخلاصـــة أن أبـــرز الخصـــائص الفنية للشعر الجاهلى هو الوضـــوح ، فقـــد انعكســـت حياة الجاهلين البسيطة على معانيهم الشـــعرية فوسمتها بسمة البساطة والوضوح فجاءت فطرية سهلة لا عمـــق فـــيها ولا عناء ، وليس فيها بعد أو إغراق فى الخيال ، قريبة التـــناول بعـــيدة عـــن الاتجاهات الفلسفية والاستقصاء العميق فى استخراجها ، فمعانيهم تتحدث عما يقع تحت أبصارهم من صحراء وسماء وأطلال وخيل وإبل ونحو ذلك .

ومـــا نجده فى ألفاظ بعض الشعر الجاهلى من غرابة ووعورة وجـــزالة فمـــرده إلى خشـــونة العيش وقسوة حياة البادية ، بحيث اتسمت الألفاظ بسمة الغرابة والوعورة فى كثير من الأحيان ، على أن جزءاً كبيراً من الإحساس بذلك راجع لطول العهد بيننا وبينهم ، وقلـــة دوران هـــذه الألفاظ العربية على ألسنتنا ، فإذا عرفناها من المعاجم ورددناها على الألسنة أصبحت عادية مألوفة .

تلـــك سمـــة والسمة الثانية أن المعانى الجاهلية امتازت بسمة الصدق والبساطة ، ففى حديثهم يصورون الأشياء بصورها الصادقة، فـــلا يوغلـــون فى التصوير ، ولا يبالغون فى المعنى ، ولا يوغلون فى الفكرة غلوا مرذولا وإنما يلتزمون الصدق ، فإذا مدحوا لم يكذبوا ، وإذا هجوا لم يقذعوا ، وإذا رثوا لم يشرقوا بالدمع .

إلى جانب أن المعانى الجاهلية تمتاز بوجه عام بالصدق ، وما جـــاء فى بعـــض أشعارها من مبالغات يعد قليلاً نادراً ، ومرد هذا

الصدق إلى الأمانة التى عرف بها الشاعر الجاهلى فى نقل صوره دون أن يفرض إرادته الفنية على أحاسيسه وصوره ، فكان ينقل لوحاته نقلاً أميناً بكل دقائقها وأبعادها دون أن يدخل عليها تعديلاً من شأنه أن يمس جوهرها .

ومن أجل ذلك كان الشعر الجاهلى وثيقة دقيقة لمن يريد أن يدرس البيئة الجاهلية برمالها ووديانها ومراعيها وحيوانها وزواحفها وطيرها وعرف القدماء ذلك فكلما تحدثوا عن عادات الجاهلية وألوان حياتهم استشهدوا بأشعارهم ، وتعبير الشعراء الجاهليين عن حياتهم ، وانعكاسها فى أشعارهم مظهر من مظاهر الأصالة الفنية .

ومن الصدق الذى عرف به الشعراء الجاهليون وصف شجاعة أعدائهم وبلائهم فى الحروب وبسالتهم فى حومات الوغى ، وما أبدوه من جرأة فى ساحات النزال كذلك من تلك الخصائص الفنية الأصيلة للشعر الجاهلى التنقل السريع بين المعانى ، فلا يكاد الشاعر يمس معنى من المعانى حتى يغادره إلى آخر ، فهو لا يعرف التريث والإطناب والوقوف الطويل بقصد التعمق والاستجلاء ، كما هى حياتهم فى الظعن والترحال . أدى هذا التنقل المفاجئ من غرض إلى آخر من غير توطئة ولا تمهيد إلى غلبة الإيجاز على الأسلوب ، وقلة العناية بترتيب الأفكار ، وعدم الحرص على الربط بين أجزاء الكلام .

ولأن البيئة الجاهلية قاسم مشترك بين شعراء الجاهلية جميعاً ، فإن اللون الفنى المنتشر الذى يكاد يكون موجوداً عند كل الشعراء هــو التشبيه ، وهو لون بسيط يقوم على عملية فنية يسيرة لا تعدو عقــد مقارنه بين شيئين متشابهين ، والتشبيه كما يقرر علماء البلاغة. هــو المرحلة الأولى من مراحل التصوير الفنى ، أو هو الخطوة الأولى فى صـــناعة الصور الفنية ، وكانت مادة التشبيه عندهم مشتقة من الصحراء وما تنطوى عليه من مظاهر الطبيعة وعناصر الحياة .

ومن أهم الملامح الأساسية للأصالة الفنية ما يتصف به الشعر الجاهـــلى مـــن جـــزالة الألفاظ وحسن اختيارها لأداء المعنى بدون اضـــطراب ووضعها فى مكانها الصحيح والجزالة تعنى كما يقول ابن الأثـــير : أن يكـــون اللفظ متيناً على عذوبته فى الفم ، ولذاذته فى الســـمع ، وكذلك ليس يعنى الرقيق أن يكون ركيكاً سفسفاً ، وإنما هو اللطيف الرقيق الحاشية الناعم الملمس . [1]

منهج القصيدة فى الشعر الجاهلى :

لـــو تساءلنا هل طبيعة القصيدة العربية المحدودة بوزن واحد وقافـــية واحـــدة جعلـــتها لا تلتزم موضوعاً واحداً تفصل معانيه ، وتصـــور الخواطـــر التى تتصل به؟ وهل يندر أن نجد قصيدة جاهلية تتـــناول موضوعاً واحداً لا تخرج عنه إلى سواه ؟ للإجابة على ذلك

---

(١) انظر ٢٧٠ ــ ٢٧٥ : دراسات فى أدب ونصوص العصر الجاهلى .

التساؤل يمكن أن نستعرض بعض الآراء للاسترشاد فيما نحن بصدده :

يقول المسلوت ، " من النادر أن نجد قصيدة جاهلية تتناول موضوعاً واحداً لا تخرج عنه إلى سواه إلا قصيدة تأبط شراً .

إن بالشعب الذى دون سلع ... لقتيلاً دمه ما يطل

وقصيدة المرقش الأكبر :

سرى ليلا خيال من سليمى ... فأرقنى وأصحابى هجود

وقصيدة طرفة :

أتعرف رسم الدار قفرا منازلة ... كجفن اليمانى زخرف الوشى مائله

حتى قصائد الرثاء لم تخلص لبكاء الميت ، والتفجع عليه والحديث عن مناقبه " [1] وهذا الرأى لا يعمم الحكم بل يستثنى بعض القصائد التى تتصف بوحدة الموضوع ويثبت أن الشعر الجاهلى قد عرف الوحدة الموضوعية وهى أساس يجب أن يتوفر حتى تكون هناك وحدة عضوية ، ويقول أحمد أمين وعلى الجازم : " إن القصيدة الجاهلية تسير على منهج واحد تقريباً فهى ، إذا استثنيا قصائد الرثاء وأمثالها ، تبتدئ بالتشبيب بالمرأة ، وقد يصف انتقالها من مكانها ووقوفه على أطلالها ، وبكاء دمنها ، وقد يصف جمالها ولوعته من حبها ، ثم يصف فرسه أو ناقته وسرعتها وسهولة سيرها ،

---

(١) ٢٩٨ : الأدب العربى بين الجاهلية والإسلام .

وقـــد يشـــبهها بمـــا يعرف من الحيوانات الوحشية من وعل ونحوه ويخـــترع فى ذلك التشبيهات التى تدل على معرفته لعاداتها وأنواع معيشـــتها وقد يصف ما مر عليه فى طريقه ، ثم ينتقل إلى غرضه من القصـــيدة فجاءة من غير تكلف فى الربط غالباً من فخر بقبيلته أو هجـــاء لغيرها ، أو وصف وقعة ، أو تحذير لقوم أو شخص من أن تحدثه نفسه بالتعدي على قومه ، ثم يقف فى قصيدته كذلك من غير تكلف فى الوقف ، وقد يسوق أبياتاً من الحكمة يختم بها قصيدته"[1] ومعـــنى مـــا سبق إن القصيدة الجاهلية لم تعرف وحدة الموضوع لا بالمفهوم الحديث ولا بما أشرنا إليه من قبل فى أثناء الحديث عن معانى الشعر الجاهلى .

بيـــنما يرى يوسف خليف ، أن القصيدة الجاهلية مع تعدد موضـــوعاتها قد عرفت نوعاً من الوحدة الموضوعية على الأقل عند طائفة من الشعراء الجاهليين وهم الصعاليك يقول : " الأمر الذى لا شـــك فيه والذى يلاحظه كل ناظر فى هذه القصائد الطويلة أول ما يلاحـــظ ، أنها لم تقف عند غرض واحد ، بل تناولت طائفة متعددة مـــن الأغراض ، ولكن أيخرج بها هذا عن الوحدة الموضوعية أم لا يخرج ؟ هذه هى المسألة ، ويعقب قائلاً : " حين ندقق النظر فى هذه الأغـــراض المتعددة نلاحظ أنها فى القصيدة الواحدة ترجع عادة إلى أصـــل موضوعي واحد تتفرع منه كما تتفرع أغصان الشجرة من

---

[1] ٤٤ : المفصل فى تاريخ الأدب العربى .

جذعهـا ، فليس التعدد هنا تعدداً فى الموضوع ، وإنما هو تفرع في أغـراض الموضـوع ، كمـا فى لامية ذى الكلب الهذلى ، ورائية أبى الطمحان ، وكافية تأبط شراً .. .. إلخ .[1]

ويقـول الزيات وهو بصدد توضيح مميزات الشعر الجاهلى: "فعلائـق المعانى واحنه واهنة ، ومساق الأبيات مفكك مضطرب ، فإذا حذفت أو قدمت أو أخرت لا تشعر القصيدة بتشويه أو نقص ، ثم يقـول : " ثم كانـت وحـدة النقد عند أدباء العرب البيت لا القصـيدة " [2] والزيات بما سبق يذهب إلى أن القصيدة الجاهلية لم تعرف الوحدة الموضوعية ولكنها اعتمدت على وحدة البيت .

وهـؤلاء الذين يرون أن القصيدة الجاهلية لم تعرف الوحدة الموضوعية يرجعون السبب فى ذلك إلى نظرة الجاهليين السطحية إلى الأمـور وسهولة وضعهم المعنى الذى يريدونه أو يطرقونه فى بيت أو أبـيات ، فكـان لابد لهم أن يتخلصوا إلى موضوع آخر ينتقل إليه قولهـم ، ويتناوله تصويرهم ، ثم إن التزام قافية واحدة يدعوهم إلى الانـتقال مـن موضوع إلى موضوع حتى يسهل عليهم العثور على القافية ، فإذا التزم الشاعر موضوعاً واحداً فإنه لا يلبث أن يستنفذ القـوافى التى تلائمه ، فإذا كان موضوع القصيدة هجاء أو رثاء أو مديحاً لم تتحمل قافيتهم أكثر من عدد معين من الأبيات .

---

[1] ٢٦٦ : الشعراء الصعاليك .

[2] ٣٢ ـــ ٣٣ : تاريخ الأدب العربى .

فتـــنويع القصـــيدة إلى موضـــوعات إنما دفع إليه قلة الدقة والعمق فى تناول المعانى ثم التزام وحدة القافية .

ولم يســـلم مـــن تعـــدد الموضـــوعات فى قصائده إلا أمثال عمر بن أبى ربيعة و"العباس بن الأحنف" ، و"جميل بثينة" من الشعراء الإســـلاميين الذين أخلصوا فنهم كله للغزل ، وأمثال قصائد الأدب والزهد والحكمة كما فعل أبو العلاء فى لزومياته .

وهـــناك من يرجع السبب فى تعدد الموضوعات فى القصيدة الجاهلـــية الواحدة إلى طولها ، [1] والمعروف أن هناك تقاليد فنية فى بـــناء موضوعات القصيدة بعضها وراء بعض ، فالشاعر يبدأ عمله بمقدمة يصف فيها الأطلال وبقايا الديار التى لاقى فيها محبوباته أزمان كانـــت الديار عامرة بهن ، وينتقل من ذلك إلى النسيب أى الحديث عن الأحبة وعلى العكس من هذه الطريقة هناك من يبدأ بالنسيب ثم يتوسل به إلى الحديث عن الوقوف على الديار والبكاء على الأطلال واستنطاق الأحجار ووصف العين والآرام والأطلاء التى تنهض من كـــل مجـــثم ، ثم فى أثناء ذلك يصف دابته وغالباً ما تكون الناقة أو الجمل ، ويصف الطريق التى تسير فيها ويظل على ذلك حتى تصل إلى غرضه الأساس مدحاً أو فخراً أو اعتذاراً أو حتى رثاء .

عـــلى أيـــة حال فإن القصيدة الجاهلية يميزها ذلك الرابط النفســـى الذى يربط بين أجزائها المتعددة إلى جانب أن هناك رابطاً

(1) ٦٦ : الأدب العربى فى الجاهلية .

آخر يعد أهم من الوحدة الموضوعية نفسها وذاك الرابط هو الإطار العـــام الخارجى الذى يستمد الشاعر فيه موضوعاته وأغراضه وهو البيئة إذا عددنا البيئة رابطاً خارجياً كان ذلك أدعى إلى هذا التعدد حتى يكون هناك توافق بين البيئة والشاعر والقصيدة .

وقد أفاد تعدد الموضوعات فى الأدب العربى فائدة كبيرة حين فشـــا المديـــح وطغـــى على أبواب الشعر الأخرى فكان فى تعدد الموضـــوعات وسيلة استطاع بها الشاعر أن ينوع فى النظم مع بقاء الغـــرض الأصلى ، وهو مدح عظيم من العظماء ، فاستطاع الشاعر الجاهـــلى أن يدخـــل من مدائحه قسطا عظيماً من الوصف والغزل والحكمة والمثل وأحياناً الفخر والهجاء أيضاً . [1]

والـــنظرة فى القصيدة كلها من بدئها ومنتهاها تجعل الرؤية تـــتجه إلى أن الهم الذى بدأ فى أول القصيدة مسيطراً على الشاعر مبعثه حرصه على ممدوحيه وانشغاله بهم .

وفى الشـــعر الجاهـــلى قصائد تبدو متفرقة الموضوعات لكن النظرة إلى داخلها ، وغض النظر عن المروى عنها يوحى بأنها قيلت تحت ضغط شعورى واحد وقيلت فى تصور واحد أيضاً . [2]

---

[1] ٣٠٠ : الأدب العربى بين الجاهلية والإسلام .

[2] ٦٨ : الأدب العربى فى الجاهلية .

الشعراء الجاهليون وطبقاتهم

****

حاول العلماء من قديم أن يحكموا بين الشعراء ، وأن يقدموا بعضهم على بعض كما كانت القبائل تحرص على أن يكون لها شاعر وخطيب ، ولكن الشاعر كان اكرم عليها وأحب إليها من هذين ، وكان لكل شاعر راوية يلازمه ملازمة التلميذ لمعلمه ، ينهج طريقة وينشر شعره ، ونابغو الشعراء قضوا عهد الثقافة والمرانة فى الرواية ، وكان لكل شاعر وسلسلة رواته أسلوب يميزهم وطرائق فى الأداء تخصهم وبناء على هذه الطرائق المميزة والخصائص الفارقة حاول كثير من النقاد أن يقسموا الشعراء إلى طبقات وإن اختلفوا على الأسس التى يقسمونهم عليها إلى طبقات ، فمنهم من أقام تقسيمه على ما وصل إلينا من الشعر ، ومنهم من أقامه على أساس المعانى والأساليب فى طريقة التعبير ، ومنهم من جعل تقسيمه على أساس الغرض الشعرى والفن الأدبى ، ومنهم من أسس تقسيمه على أساس البيئة المكانية ، ومنهم من نظر إلى الديانة التى كانت تعتنقها مجموعة من الشعراء وغير ذلك من الاعتبارات التى نظر إليها الدارسون وأخذوها فى الحسبان عند تقسيم الشعراء إلى طبقات ووضعهم فى طوائف تتميز كل منها عن

الأخرى بعض الأمور التى رآها النقاد الدارسون . [١]

ولقد قضى جماعة منهم لامرئ القيس بالشهرة والتقدم نظراً لأوليته وسبقه ، وقضى غيرهم للنابغة اعتماداً على ديباجته واستوائه، بينما تعصب آخرون للأعشى ، وقالوا : انه أكثرهم طويلة جيدة ، وفضل بعضهم زهيراً لكثرة حكمه ولأنه لا يعاظل ولا يتتبع حوشى الكلام أو وحشيه ولا يمدح فى أحداً بغير ما هو فيه .

على أن هناك تقسيماً أكثر دقة يعتمد على التاريخ والظروف الزمانية حيث يقسم الشعراء بناء على هذه الوجهة إلى أربع طبقات: جاهليون : وهم من عاشوا قبل الإسلام أو أدركوه ولم يقولوا فيه شيئاً يذكر ، كامرئ القيس وزهير وأمية بن أبى الصلت ولبيد ، ومخضرمون وهم الذين اشتهروا بالشعر فى الجاهلية والإسلام كالخنساء وحسان بن ثابت ، وإسلاميون : وهم الناشئون فى الإسلام الباقون على سليقتهم فى العربية ، وهم شعراء بنى أمية ، ومولدون ، وهم الذين فسدت فيهم ملكة اللسان فعالجوها بالصناعة وهم شعراء بنى العباس . [٢]

وهناك تقسيم آخر يجعل من الإجادة فيصلاً بين تقدم الشعراء وتأخرهم عن الصف الأول وهم بهذا الاعتبار فى رأى النقاد ثلاث طبقات : امرؤ القيس وزهير والنابغة وهم رجال الطبقة

---

(١) ١٢٨ وما بعدها : دراسات فى أدب ونصوص العصر الجاهلى .

(٢) ٤٥ : تاريخ الأدب العربى .

الأولى، والأعشى ولبيد وطرفة ، وهم رجال الطبقة الثانية وعنترة ودريد من الصمة وأمية بن أبي الصلت ، وهم رجال الطبقة الثالثة ، وهـذا التقسيم المبنى على الإجادة ، وهو الأساس الذى اعتمده أبو عبيده معمر بن المثنى نقسم الشعراء الجاهلين كما ذكرنا .

بينما يجعل محمد بن سلام الجمجى الشعراء الجاهليين عشر طـبقات ثم يزيد عليها طبقات أخرى هى : شعراء المراثى ، وشعراء القرى ، وشعراء اليهود .

وكذلـك أطلق النقاد بعض المصطلحات للدلالة على فضل شعراء عـلى آخرين ، وهى مصطلحات تترجم فى الواقع مدى شـاعرية الشاعر وإجادته فى شعره ، فعندهم الشاعر الخنذيذ : وهو الذى يجمع إلى جيده رواية الجن من شعر غيره ، ثم الشاعر الفحل : وهو الذى يجيد ولا يروى لغيره ، ثم شاعر فوق الردئ ؟ بدرجة وهو الوسط ، ثم شعرور أو شويعر ليس بشيئ .

ولأن الفحولة مرتبة من مراتب الشعراء أو طبقة تجمع عدداً من الشعراء يوصفون بها ، سنوضح فيما يلى آراء النقاد القدامى فى تفسـير هذا المصطلح ومرادهم منه ، يروى أن أبا حاتم السجستانى سأل الأصمعى عن معنى الفحل فقال : " يراد أن له مزية على غيره كمزية الفحل على الحقائق " [1]. على أن للقدماء مقاييس للفحولة

---

(1) ١٢ : فحولة الشعراء للأصمعي.

الـــتزموها وأخذوا بها قبل أن يصدروا حكمهم على شاعر بأنه فحل أو ليس بفحل ، وأهم هذه المقاييس مسألة النتاج الشعرى والجودة وصحة ما يروى للشاعر من أشعار تثبت أنها له .

والأصـــمعى فى " فحولة الشعراء " ينبه على الشاعر المقل ، ويـــبين حاجـــته إلى الزيادة على ما قاله حتى يصير فحلاً ، قال عن الحويدرة : " لو كان قال خمس قصائد مثل قصيدته يعنى العينية كان فحـــلاً " وقال عن معقر البارقى حليف بن نمير : " ولو أتم خمساً أو ســـتاً لكان فحلاً " ، وقال عن أوس بن غلفاء الهجيمى : " لو كان قـــال عشـــرين قصـــيدة لحق الفحول ولكنه قطع به " ، وقال عن ســـلامة بـــن جندل : "لو كـــان زاد شيئاً كان فحلاً"، وقال عن الأغلب: "ليس بفحل ولا مفلـــح ، اعرف له ثنتين ، وكنت أروى نصفاً من التى على القاف فطولـــوها ، ثم قال : كان ولده يزيدون فى شـــعره حـــتى أفسدوه"، وقال عن المهلهل : " ليس بفحل .. .. وأكثر شعره محمول عليه " (١)

والأصـــمعى فـــيما مضى يربط بين درجة الفحولة وعدد ما يـــنظمه الشـــاعر مـــن القصـــائد مع جودتها وبشرط أن يكون هو صـــاحبها، ويتفق ابن سلام الجمحى مع الأصمعى فى الأساس الذى يقـــوم عليه مقياس الفحولة من حيث الكم والجودة وصحة الشعر

---

(١) ٢ ـــ ٤٤ : فحولة الشعراء . وانظر : ١٢٩ ـــ ١٣٠ : دراسات فى أدب ونصوص العصر الجاهلى .

ويـــدل على احتفال ابن سلام بمقياس العدد والجودة فى الحكم على فحولـــة الشاعر ومكانته من قوله عن طرفة وعبيد " ومما يدل على ذهـــاب الشعر وسقوطه قلة ما بقى بأيدى الرواة المصححين بطرفة وعبـــيد اللذيـــن صـــح لهما القصائد بقدر عشر ، وإن لم يكن لهما غيرهـــن، فليس موضعهما حيث وضعا من الشهرة والتقدمه ، وإن كـــان ما يروى من الفثاء لهما ، فليسا يستحقان مكانهما على أفواه الـــرواة ، ونرى أن غيرهما قد سقط من كلامه كثير ، غير أن الذى نالهما من ذلك أكثر وكانا أقدم الفحول ، فلعل ذاك لذاك ، فلما قل كلامهما حمل عليهما حمل كثير " . [1]

المعلقات وأصحابها :

أمرؤ القيس :

امرؤ القيس : هو الملك الضليل ذو القروح حندج بن حجر الكندى ، ولد أثيل المنبت كريم الأبوة والأمومة : فأبوه سليل الملوك من كندة ، وملك بنى أسد ، وأمه أخت كليب ومهلهل أبنى ربيعة . فشـــب فى حجر النعيم ، ودرج فى مهد السراوة ، إلا أنه نشأ نشأة الغـــواة يعاقر الخمر ويغازل النساء ويعشق اللهو ويقول الشعر ، ثم أطلق لنفسه العنان فى المجون ، وتخاذل عما تسمو إليه النفوس الكبيرة فطـــرده أبـــوه ، وكان أصغر أولاده ، فخرج فى زمرة من أخلاط

---

(١) ١٣١ ــ ١٣٢ : طبقات الشعراء .

العرب وذؤبانهم يرتادون الرياض والغدر فإذا صادفوا غديراً خيموا علـيه وطفقـوا يلعـبون ويشـربون ويصيدون ، فإذا نضب الماء وانكشفت الأرض من العشب انتقلوا إلى غيرها ، ولم تزل تلك حاله حـتى بلـغ "دمون" من أرض اليمن ، وهناك أتاه نعى أبيه وقد قتله بـنو أسد غدراً لاستبداده وسوء سيرته فيهم ، فقال امرؤ القيس : "ضـيعنى أبى صغيراً ، وحملنى دمه كبيراً ، لا صحوا اليوم ولا سكر غداً . اليوم خمر وغداً أمر "، ثم أقسم ألا يأكل لحماً ولا يشرب خمراً ولا يمـس طيباً حتى يقتل من بنى أسد مائة ويجز نواصى مائة ، فلما احتواه الليل رأى برقاً فقال :

أرقـت لـبرق بلـيل أهـل	يضـئ سـناه بأعـلى الجـبل
أتـانى حديـث فكذبـته	بأمـر تزعـزع مـنه القلـل
بقـتل بـنى أسـد ربهـم	ألا كـل شـيئ سـواه جلـل

فـلما كان من الغد استنجد أخواله بكراً وتغلب ، وسار إلى بـنى أسـد فأوقع بهم ، ثم طلبوا أن يفدوه بمائة من وجوههم فأبى ، فتخاذلـت عـنه بكر وتغلب . وطلبه المنذر بن ماء السماء لضغينة كانـت فى نفسـه على قومه ، وأمده كسرى أنو شروان بجيش من الأسـاورة فتفرقـت جموعه خوفاً من المنذر ، وسار هو فى القبائل يطلب النصر حتى سدت عليه وجوهه ، فلجأ إلى السموءل بن عاديا الـيهودى فاستودعه دروعه وطلب منه كتاباً إلى الحارث بن أبى شمر الغسـانى ليوصله إلى قيصر وقال فى ذلك وقد صحبه فى رحلته إلى

قيصر عمرو بن قميئة :

بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه وأيقن أنا لا حقان بقيصرا
فقلت له لا تبك عينك إنما نحاول ملكاً أو نموت فنعذرا

فلما بلغ قيصر الروم أكرم وفادته ، وطمع أن يكون امرؤ القيس قوة له فى العرب ويعمل له فى أضعاف نفوذ الأكاسره ، فجهزه بجيش وسيره ، ثم بدا له فأعاده ، ونزلت بامرئ القيس علة جلدية فتقرح جسمه وتمرأ لحمه . ويقال إنه لما فصل بالجنود دخل الطماح الأسدى على قيصر فوشى به وحمله عليه انتقاماً منه لقتله أباه : فبعث إليه قيصر بحلة وشي مسمومة وقد بلغ أنقرة من بلاد الروم فأصابه ما أصابه وقال فى ذلك :

لقد طمح الطماح من نحو أرضه ليلبسنى من دائه ما تلبسا
وبدلت قرحاً دامياً بعد صحة فيالك نعمى قد تحولت أبؤسا
فلو أنها نفسى تموت سوية ولكنها نفس تساقط أنفساً

ولما غشيته سكره الموت قال : رب جفنة مثعنجرة ، وطعنة مسحنفرة ، وخطبة محبرة ، تبقى غداً بأنقرة ! ثم مات ودفن بجبل عسيب سنة ٥٦٠م [1]

---

(١) ٧٤ : تاريخ الأدب العربى .

شـــــعره :

نشأ امرؤ القيس نجديا وإن كان يمنياً ، فترعرع بين بنى أسد في صميم العرب الخلص ، فسمع الأشعار ورواها ، وتطلعت نفسه إلى مســاجلة الشعراء ، فقال الشعر على حداثة [illegible] وكان جزل الألفــاظ كثير الغريب جيد السبك سريع الخاطر بديع الخيال بليغ التشـــبيه ، وقد فتقت الأسفار والأخطار والمخالطة قريحته فاستنبط المعـــانى الجديـــدة ، وارتسمت فى شعره محدثات عصره فنسبت إليه لنـــبوغه وتفوقـــه وجاهه ، فقالوا : إنه أول من وقف على الأطلال وبكـــى عـــلى الديـــار وشبب بالنساء ، وشبههن بالمها والظباء ، وأجـــاد وصـــف اللـــيل والخـــيل لإدمان ركوبه وكثرة أسفاره ، وفى شعره صورة كاملة من حياته وخلقه ، ففيه عزة الملوك ، وتبذل الصـــعلوك ، وعـــربدة المـــاجن ، وحمية الثائر ، وشكوى الموتور ، وذلـــة الشـــريد ، وهـــو بإجمـــاع الرواة زعيم الجاهليين للأسباب التى مرت . [1]

معلقتـــــــه :

خير ما يمثل شعره هو معلقته :

قفانــبك من ذكرى حبيب ومنزل   بســقط اللوى بين الدخول فحومل

---

(1) ٤٨ : السابق .

بدأهـا بمـا ضرب بحسنه المثل وعد أروع المطالع فى الشعر العـربى وقـيل فيه : " أحسن من قفانبك " ، لأنه وقف واستوقف وبكـى واستبكى وذكر الحبيب والمنزل ووصفه وصفاً يهيج الذكر ويبعث العبرة فقال فى معلقته :

قفانـبك من ذكرى حبيب ومنزل بسـقط اللوى بين الدخول فحومل
فتوضـح فالمقـراة لم يعـف رسمها لمـا نسـجتها مـن جنوب وشمال
وقوفـاً بهـا صـحبى على مطيهم يقولـون لا تهلـك أسـى وتجمل

ثم أخذ يتحدث عن حبيبته ويوجه إليه الخطاب :

أفـاطم مهـلاً بعـض هذا التدلل وإن كنت قد أزمعت صرمى فأجملى
أغـرك مـنى أن حـبك قاتـلى وأنـك مهمـا تأمرى القلب يفعل

كذلـك تحـدث عن متعه ولذاته التى كان يقارفها فى جرأة وإصرار ، والمعلقة فى جملتها تتشكل من عدة موضوعات فى لوحات تنسـق فى إطـار عام بجمعها وهو البيئة ، فقد استهل المعلقة بالبكاء أراق فيه الدموع بسقط اللوى حزناً على من فارقته وارتحلت فينهمر الدمـع المـدرار لـدى سمرات الحى كأنه ناقف حنظل . ثم يصف ذكريات حبه ولهوه وعبثه فيذكر أسماء محبوباته فاطمة ، وأم الحويرث وأم الـرباب ويخص بالذكر يوم دارة جلجل ، فيفحش فى التصوير ويسـرف فى المجـون ، ثم يطرق إلى وصف الليل الذى طال أوله ووسطه وآخره وأخذ يتوسل إليه أن يتخلى ، وإن كان الطبخ الذى يعقبه ليس بأمثل منه :

ليس بأمثل منه :

ولـيل كموج البحر أرخى سدوله	عـلى بـأنواع الهمـوم ليبتـلى
فقلـت له لمـا تمطـى بصـلبه	وأردف أعجـازاً ونـاء بكلكـل
ألا ايهـا الليـل الطويل إلا انجلى	بصـبح وما إلا صباح منك بأمثل
فـيالك مـن لـيل كـأن نجومه	بكـل مغـار الفـتل شدت بيذبل

ثم يصـف واديـاً مقفـراً يـتردد عالـياً بـين جنـباته صـدى عـواء الذئـب الكاسر ثم يصف الفرس وصفا لم يضارعه فيه شاعر :

وقـد اغـتدى والطير فى وكناتها	بمـنجرد قـيد الأوابـد هـيكل
مكـر مفـر مقـبل مدبـر معاً	كجلمود صخر حطه السيل من عل

ثم يتـناول جانـباً آخـر مـن زوايـا الصورة أو اللوحة العامـة فيذكر جزءاً مكملاً لرحلة القصيدة فيصف الصيد ومهارته فـيه وأدواتـه ومـا يحـدث بعد الصيد من تنعم بالصحبة وأكل لمـا شـوى أو طـبخ ، ثم يقتـنص مـن الطبيعة ظاهرة عرضت فيصـفها وصـفاً دقـيقاً فيصـور للـبرق والمطر ، وأخذ يسأل صـاحبه هـل تـرى بـرقاً يـلمع بين السحاب المتراكم كلمع اللذيـن تـتحركان فى سـرعة أو كمصـباح راهب أمال الزيت عـلى فتيلـته لـيزداد ضـوؤها ، ويعـم الجهـات فأيمـنه على جبل قطن وأيسره على جبلي الستار يذبل ، ثم يضحى يهطل بالمـاء

حـــول المكـــان ، ويخلع السيل الهادر الأشجار العظيمة من جذورها فتنقلب رأسا على عقب ، وليكمل الصورة التي أحاطت به في هذه الأثناء والتقطتها ذاكرته وتأثرت بها شاعريته فانفعل بها فذكر الطيور وهي المكاكي وشدة سرورها بصفاء السماء بعد المطر الذي غرقت في أقاصيه السباع كأنما شربت رحيقا مفلفلا :

أصاح ترى برقا أريك وميضه   كلمع اليدين في حبي مكلـــــل[1]

يضيئ سناه أو مصابيح راهب   أمال السليط بالذبال المفتـــل[2]

على قطن بالشيم أيمن صوبه   وأيسره على الستار فيذبـــــل[3]

فأضحى يسح الماء فوق كتفيه   يكب على الأذقان دوح الكنهبل

زهير بن أبي سلمى

نشـــأ زهير بن ابي سلمى بن أبي ربيعة بين رباح المزني في أقارب أبيه من بني غطفان ، ولزم بشامة بن الغدير خال أبيه ، وكان رجلا حكيما اشتهر بسداد الرأي وجودة الشعر ووفرة المال ، فاغترف من شعره وتأثر بعلمه وحكمه ، وظهر ذلك جليا فيما رصع به شعره من درر الحكمـــة[4] ، عرف زهير بالروية والتمحيص في شعره وتهذيبه واحتضـــانه حـــتى لا يخرج للناس إلا على أكمل وجه وأمثل طريقة

---

[1] حبي : السحاب .

[2] السليط : الزيت . الذبال : جمع زبالة وهي الفتيلة .

[3] قطن : جبل ، والشيم : النظر إلى البرق مع توقع المطر . والصوب : المطر وانصبابه . الستار . يذبل : جبلان وبينهما وبين قطن مسافة بعيدة .

[4] ٥، : تاريخ الأدب العربي .

فتـــبقى القصـــيدة في كنفه يقلب فيها وجوه النظر عاما كاملا حتى يذيعها وليس عليها مأخذ أو ضعف .

هـــزته أريحـــية الحارث بن عوف وهرم بن سنان المريان عندما أصـــلحا بين عبس وذبيان وأطفآ نار الحرب باحتمالهما ديات القتلى عن الحيين وقيل قد بلغت ثلاثة آلاف بعير فمدحهما بمعلقته ثم أطنب في مـــدح هرم بن سنان ، حتى أقسم هرم ألا يمدحه زهير ولا يسأله ولا يســـلم عليه إلا أعطاه عبدا أو وليدة أو فرسا فاستحيا زهير من كثرة ما كان يقبل عليه ، وأصبح إذا رآه في ملأ من الناس قال عموا صباحا إلا هرما ، وخيركم استثنيت .

وزهـــير ينتمي لبيت عريق في الشعر فأبوه وخاله وأختاه سلمى والخنســـاء وولداه كعب وبجير من الشعراء المذكورين وذلك لم يكن لغـــيره ، وهـــو أحد الفحول الثلاثة أمرؤ القيس والنابغة ، وذلك لامتياز شعره بصدق اللهجة ، وخلوه من الحواشي والتعقيد ، وبعده عن سخف القول وهجر الحديث ، وجمعه الكثير من المعاني في قليل مـــن الألفاظ ، وكذلك يعد زهير واحد ممن أجادوا المدح وضربوا المثل وأرسلوا الحكمة له قصائد تعرف بالحوليات .

" وكان زهير إستاذ الحطيئة وسئل عنه الحطيئة فقال : ما رأيت مـــثله في تكفـــيه على أكناف القوافي وأخذه بأعنتها حيث شاء من اختلاف معانيها امتداحا وذما ، قيل له : ثم من ؟ قال : ما أدري إلا أن تـــراني مسلنطحا واضعا إحدى رجلي على الأخرى رافعا عقيرتي

(الصـــوت) أعوي في إثر القوافي ، قال أبو عبيدة يقول من فضل زهـــيرا على جميع الشعراء إنه أمدح القوم وأشدهم أسر شعر قال : وسمعـــت أبا عمرو بن العلاء يقول : الفرزدق يشبه زهيرا ، وكان الأصمعي يقول : زهير والحطيئة وأشباهما عبيد الشعر لأنهم نقحوه ، ولم يذهبوا به مذهب المطبوعين "[1] .

وكان لمدح زهير أثرها في إعلان شأن الممدوحين ورفع أقدارهم وتخلـــيد ذكـــرهم لحسن تصرفه في المدح وحشده المعاني التي تبرز وتجسد صفات الكرم والشجاعة وما إلى ذلك من صفات كان يعتز بها الجاهلي ، قال عمر بن الخطاب لبعض أولاد هرم : أنشدني بعض مدائح زهير في أبيك ، فأنشده : فقال عمر : إنه كان ليحسن فيكم القـــول . فقال : والله ونحن كنا نحسن له العطاء . فقال عمر : قد ذهب ما أعطيتموه وبقى ما أعطاكم .

وعرف زهير بالحكمة ورجاحة العقل وحب الأناة وإيثار السلم ، ويـــرد كثيرا في شعره ما يوحي بإيمانه بالله واليوم الآخر يقول في معلقته :

فلا تكتمن الله ما في صدوركم ليخفي ومهما يكتم الله يعلم

يؤخر فيوضع في كتاب فيدخر ليوم الحساب أو يعجل فينقم

وقد سبق زهير إلى معان لم ينازعه فيها أحد من قبل قوله :

فـــإن الحـــق مقطعه ثـــلاث يمـــين أو نفـــار أو جـــلاء

---

[1] ٧٣ : الشعر والشعراء " ابن قتيبة ، دار الكتب العلمية ط ٢ ، ١٩٨٥م.

يـــريد إن الحقـــوق إنما تصح بواحدة من هذه الثلاث يمين أو محاكمة أو حجة بينه واضحة ، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا أنشد هذا ، تعجب من معرفته بمقاطع الحقوق[١] .

معلقته :

جعـــل زهير المضمون الأهم في معلقته مدح الحارث بن عوف وهرم بن سناء المريين على سعيهما بالصلح بين عبس وذبيان ، بدأها على سنة الشعراء من البدء بالوقوف على أطلال الأحبة والتشبيب والحديـــث عن الدمن وتحيتها ووصفها وتنسم الذكريات من خلال آثارهـــا ، فوقف على الدمن الدوارس من ديار أم أوفى بعد أن أتى على عهده بها عشرون سنة فلم يعرفها إلا بعد مشقة :

فلما عرفت الدار قلت لربعها   ألا عم صباحا أيها الربع واسلم

مطلع المعلقة قوله :

أمن أم أوفى دمنـــة لم تكلـــم	بحومانـــة الـــدراج فالمتثلـــم
ودار لهـــا بالرقمتيـــن كأنهـــا	مراجيع وشم في نواشر معصم
بها العين والآرام يمشين خلفه	وأطلاؤها ينهض من كل مجثم

ثم تمثلـــت في خاطـــره ظعائن الحبائب ، فيتبعهن ببصره الحزين وقلـــبه الوالـــه فيصف ما سلكنه من طرق وما نزلنه من منازل حتى يبلغن المترل الذي أردنه [٢]

---

[١] ٧٦ : السابق .

[٢] ٥٣ : تاريخ الأدب العربي .

تبصر خليلي هل ترى من ظعائن   تحملن بالعلياء من فوق جرثم[١]

علون بأنماط عتاق وكلة   وراد حواشيها مشاكهة الدم[٢]

وفيهن ملهى للصديق ومنظر   أنيق لعين الناظر الموسم

ثم يتخلص إلى هدفه من القصيدة كلها ، ومقصده الذي يسعى إليه ، ومبتغاه الذي يترصده ، وهو مدح سيدي غطفان ، الرجلين اللذين حقنا بالصلح دماء العشيرة : هرم بين سنان والحارث بن عوف ، حيث بذلا من مالهما ما به احتملا ديات القتلى من عبس وذبيان يقول :

سعى سعيا غيظ بن مرة بعدما   تبزل ما بين العشيرة بالدم[٣]

فأقسمت بالبيت الذي طاف حوله   رجال بنوه من قريش وجرهم

يمينا لنعم السيدان وجدتما   على كل حال من سحيل ومبرم[٤]

تداركتما عبسا وذبيان بعدما   تفانوا ودقوا بينهم عطر منشم[٥]

ألا أبلغ الأحلاف عني رسالة   وذبيان هل أقسمتم كل مقسم

فلا تكتمن الله ما في نفوسكم   ليخفي ومهما يكتم الله يعلم

---

(١) الظعائن : النساء في الهوادج ، جرثم :ماء .

(٢) أنماط : جمع نمط ، ضرب من الثياب . العتاق : الكريمة . الكلة : الستر الرقيق والوراد : جمع ورد وهو الأحمر . والمشاكهة : المتشابهة .

(٣) تبزل : تشقق .

(٤) السحيل : الضعيف الفتل ، والمبرم : القوي الفتل المحكم .

(٥) منشم : عطارة يتشاءم بها .

ثم قطع المدح مؤقتا ليدعو الخصوم إلى السلم في لين ورفق ولكنه ذكر الحرب فاشتد وأنكر ما تجر على الناس من أوزار وأضرار:

وما الحرب إلا ما علمتم وذقتم ... وما هو عنها بالحديث المرجم [١]

متى تبعثوها تبعثوها ذميمة ... وتضر إذا ضريتموها فتضرم

فتعرككم عرك الرحا بثفالها ... وتلقح كشافا ثم تحمل فتتئم [٢]

فتغلل لكم ما لا تغل لأهلها ... قرى بالعراق من قفيز ودرهم

ثم عاد إلى رجليه فمضى في مدحهما على ما رأبا من صدع لم يحدثاه ، ووصف هم ضمضم بالخيانة وعزمه عليها :

وكان طوى كشحا على مستكنة ... فلا هو أبداها ولم يتجمجم

وقال سأقضي حاجتي ثم تقي ... عدوي بألف من ورائي ملجم

فشد ولم تفزع بيوت كثيرة ... لدى حيث ألقت رحلها أم قشعم

ثم ينتهي إلى الحكمة البارعة وأمثاله السائرة حين تغلبه نزعته الإنسانية وطبيعته الفلسفية ، فيقف موقف الحليم ليرسل حكمه البليغة التي سنها للشعراء من بعده مصورا الحياة مستخلصا منها العبر متبرما منها في ذات الوقت، يفكر في الموت ويعظ بالتجارب:

---

(١) المرجم : الذي يرجم فيه بالظنون ، أي يحكم فيه بها .

(٢) بثفالها : الثفال . خرقة أو جلدة توضع تحت الرحى [illegible] الطحن واللقاح : حمل الولد ، والكشاف : أن تلقح في السنة [illegible] تلد الأنثى توأمين .

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش ثمانين حولا لا أبا لك يسام
وأعلم علم اليوم و الأمس قبله ولكنني عن علم ما في غد عم
رأيت المنايا خبط عشواء من تصب تمته ومن تخطئ يعمر فيهرم
ومن هاب أسباب المنايا ينلنه ولو نال أسباب السماء بسلم
ومن يجعل المعروف من دون عرضه يفره ومن لا يتق الشتم يشتم
ومن يجعل المعروف في غير أهله يكن حمده ذما عليه ويندم
ومن لم يصانع في أمور كثيرة يضرس بأنياب ويوطأ بمنسم
ومهما تكن عند امرئ من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تعلم
لسان الفتى نصف ونصف فؤاده فلم يبق إلا صورة اللحم والدم

الأعشى

هو الأعشى ميمون بن قيس بن سعد بن ضبيعة بن قيس ، وكان أعمى ويكنى أبا بصير ، وكان أبوه قيس يدعى قتيل الجوع ، وذلك لأنه كان في جبل فدخل غارا فوقعت صخرة من ذلك الجبل فسدت فم الغار فمات فيه جوعا ، وكان جاهليا قديما وأدرك الإسلام في آخر عمره ورحل إلى النبي صلى الله عليه وسلم ليسلم فقيل له انه يحرم الخمر والزنا ، فقال أتمتع منهما سنة ثم أسلم ، فمات قبل ذلك بقرية باليمامة وقالوا : إن خروجه يريد النبي صلى الله عليه وسلم في صلح الحديبية فسأله أبو سفيان بن حرب عن وجهه الذي يريد فقال أريد محمدا . فقال أبو سفيان : إنه يحرم عليك الخمر والزنا والقمار ، فقال أما الزنا فقد تركني ولم أتركه ، وأما الخمر فقد قضيت منها

وطرا ، وأما القمار فلعلي أصيب منه خلفا ، قال : فهل لك إلى خير قـــال : وما هو قال : بيننا وبينه هدنة فترجع عامك هذا وتأخذ مائة ناقـــة حمراء ، فإن ظهر بعد ذلك أتيته وإن ظفرنا به كنت قد أصبت عوضـــا من رحلتك فقال لا أبالي . فأنطلق به أبو سفيان إلى منزله ، وجمـــع إلـــيه أصحابه وقال يا معشر قريش هذا أعشى قيس ، وقد علمـــتم شعره ، ولئن وصل إلى محمد ليضربن عليكم العرب قاطبة بشعره ، فجمعوا له مائة ناقة حمراء فانصرف ولما صار بناحية اليمامة ألقاه بعيره فقتله ، ويسمى صناجة العرب لأنه أول من ذكر الصنج في شعره فقال :

ومستجيب لصوت الصنج تسمعه   إذا ترجع فيه القينه الفضـــل[1]

والأعشـــى مـــن الرواة ، وذوي البصر بالشعر ومن الرواة من يجعل الأعشى رابعا لامرئ القيس وزهير والنابغة ، ويقولون : أشعر الناس امرؤ القيس إذا ركب ، وزهير إذا رغب ، والنابغة إذا رهب والأعشـــى إذا طـــرب ، وهذا وإن كان موضعا للخلاف يدل على مكانـــة الـــرجل وشعره يتميز برونق الحسن ، والطلاوة والأسلوب والـــبراعة في وصف الخمر والإجادة مع الطول ، وكان لشعره جلبة في السمع وروعة في النفس وأثر في الناس ، ولقد أعز بشعره وأذل ، وقصته مع المحلق مشهورة [2].

---

[1] ١٥٤ : الشعر والشعراء .

[2] ٥٦ ـــ ٥٧ : تاريخ الأدب العربي .

ثقــف الشعر من طريق الرواية على خاله المسيب بن علس ، حــتى إذا حصف عقله وأرتاض لسانه ، قصد أطراف البلاد وغشى أبــواب الملوك يــمدح ويستجدي ، فأجزلوا له العطاء ، واكتسب مــن الاختلاط إدمان الخمر والتأثر ببعض الأفكار وطال عمره حتى ابيضت عيناه من الكبر .

ومعلقته عند من عده من أصحاب المعلقات قصيدته اللامية وهي من جيد شعره ومطلعها :

ودع هريرة إن الركب مرتحل — وهل تطيق وداعا أيها الرجل

ومنها :

أبلغ يزيد بني شيبان مألكة — أبا ثبيت أما تنفك تأتكل

ألست منتهيا عن نحت أثلتنا — ولست ضائرها ما أطت الإبل

كناطح صخرة يوما ليوهنها — فلم يضرها وأو هي قرنه الوعل

لقد زعمتم بأنا لا نقاتلكم — إنا لأمثالكم ــ يا قومنا ــ قتل

قالوا الطراد فقلنا تلك عادتنا — أو تنزلون فإنا معشر نزل

ومــن القصــيدة التي كان أعدها لمدح الرسول صلى الله عليه وسلم قوله :

ألم تغتمض عيناك ليلة أرمدا — وبت كما بات السليم مسهدا

وما ذاك من عشق النساء وإنما — تناسيت قبل اليوم خلة مهددا

ولكن أرى الدهر الذي هو خائن — إذا أصلحت كفاي عاد فأفسدا

شباب وشيب وافتقار وثروة — فله هذا الدهر كيف تردد ؟

وسمعه كسرى يوما فقال من هذا فقالوا : " آشروذ كويذناري " أي مغني العرب فأنشد :

أرقت وما هذا السهاد المؤرق   وما بي من سقم وما بي معشق

فقــال كسرى : فسروا لنا ما قال ، فقالوا : ذكر أنه سهر من غــير سقم ولا عشق فقال كسرى ، إن كان سهر من غير سقم ولا عشق فهو لص .

كان يفد على ملوك الحيرة ويمدح الأسود بن المنذر أخا النعمان وفيه يقول في قصيدته " ما بكاء الكبير بالأطلال "

أنت خير من ألف ألف من النا   س إذا ما كبت وجوه الرجال

وقــد كــان الأعشى طوافا لا يقر له قرار ، فقد دلت الأخبار " على أنه كان كثير التنقل والأسفار البعيدة جائلا في مختلف الأنحاء بالجزيرة العربية : الحيرة ، اليمن ، ديار كندة في حضرموت ، نجران ، عكــاظ ، بــل إن الــرواة ليدفعون به إلى الفرس وعمان والشام مــتغلغلا فيها إلى حمص وأورشليم (بيت المقدس) ، بل ويتجاوزون بــه البحر إلى نجاشي الحبشة ، ثم يجرون على لسانه بعد ذلك شعرا يذكر فيها تلك الرحلات جميعا ، فيقول :

وقد طفت للمال آفاقه   عمان فحمص فأورشليــم

أتيت النجاشي في أرضه   وأرض النبيط وأرض العجم

وقــد أتاحت له العطايا الكثيرة نوعا من الحياة المترفة في بعض الأحيان كما وصلته تلك الرحلات بأسباب الحضارة ، وربما كانت

ســبـبا في رفعه فوق مستوى البداوة الخشنة التي تبدو عند غيره من الجاهليين يقول في صاحبة له :

وقد أراها وسط أقرانها　　　في الحي ذي البهجة والسامر

كدميــة صور محرابها　　　بمــذهب في مرمــر مائــر

ولم يغــض الأعشى التكسب بالشعر ، ولم يحط من قدره ، كما حــدث مع النابغة ولم يكرهه الناس كما حدث مع الحطيئة ، ولكن رفعــه وعظــم شــأنه وجعله مخوفا مهيبا ، وكان الرواة يقولون إن الأعشــى كان لا يمدح رجلا إلا رفعه وإن هجاه وضعه كما حدث مع الرجل الكلبي الذي هجاه "[1]

لقــد تــناول شــعر الأعشى الموضوعات التقليدية التي تناولها الجاهليون من قبله فهو شاعر قبيلة ، وقف مدافعا عنها بقصائده أمام خصومها ، وهو شاعر أطلق خياله مع الصحراء التي يقطعها ، والناقة الــتي يركــبها ومدح وهجا ، ولكن أميز ما حدد شخصيته الخمر والمــرأة ، عــاش في ركابهما طول عمره ، وجمع المال في سبيلهما ، وجــال كثيرا [2] وطاف بالآفاق واكتسب الخبرة والثقافة ، واختلط مع الآخرين كل ذلك جعل لشعره سمتا خاصا يتميز به .

---

[1] ٢٣٧ ـ ١٤٠ : الشعر الجاهلي مراحله واتجاهاته الفنية .

[2] ٢٤٥ : السابق .

طرفة بن العبد

هـو طـرفة بـن العـبد بـن سـفيان بن سعد بن مالك بن عـباد بن صعصعة بن قيس ابن ثعلبة ، ويقال إن اسمه عمرو ، وسمي طـرفة ببيت قاله [١]، نشأ يتيما من أبيه فكفله أعمامه فأهملوا تربيته وأسـاءوا أدبه ، فشب ميالاً إلى الدعة والتبطل ، عاكفا على اللهو والخمـر[٢] ، وكـان أحدث الشعراء سنا وأقلهم عمرا ، قتل وهو ابن عشرين سنة فيقال له ابن العشرين ، وقد دعاه نزق الشباب أن يهجو الملك عمرو بن هند ، كان ينادمه ، فأشرفت أخت الملك ذات يوم فرأى طرفة ظلها في الجام (الكأس) الذي في يده فقال :

ألا بأبي الظبـي ا لذي يبرق شنفاه
ولولا الملك القاعد قـد الثمـني فاه

فحقد الملك عليه إضافة إلى ما كان قاله من قبل :

وليست لنا مكان الملك عمرو رغوثا حول قبتنا تدور
لعمـرك إن قابوس بن هنـد ليخلط ملكه نوك كثير

وقـابوس هو أخو عمرو بن هند ، وكان فيه لين ويسمى فقينة العـرس ، فأضـمر له السـوء ، حتى إذا جاءه مع خاله المتلمس يستجديان فضله — وكان المتلمس قد هجاه أيضا — هش للقائهما تأميـنا لهمـا وهـو يفكر في التنكيل بهما ، وأمر لكل منهما بصلة

---

(١) ١٠٥ : طبقات الشعراء .

(٢) ٦١ : تاريخ الأدب العربي .

وأحالهما بكتابين على عامله بالبحرين ليستوفياها منه ، فلما كان في طـــريقهما إلى العامل ، داخل المتلمس من الصحيفة وسواس وهم ، فالتمس من يقرأها ، فإذا فيها : " باسمك اللهم ، من عمرو بن هند إلى المكعـــبر ، إذا أتاك كتابي هذا مع المتلمس فاقطع يديه ورجليه ثم ادفـــنه حـــيا " فألقى الصحيفة في النهر ، ثم قال لطرفة : معك والله مثـــلها ، فقال كلا ما كان ليكتب لي مثل ذلك ، ومضى بالكتاب فأخذه الربيع بن حوثرة عامله بالبحرين فسقاه الخمر حتى أثمله ، ثم فصـــد أكحلـــه ، فقـــبره بالـــبحرين ، وكـــان لطرفة أخ يقال له معبد بن العبد فطلب ديته فأخذها .

وكان طرفة منذ الحداثة متوقد الذهن ، مضطرم الشعور ، حاد البادرة ، فنبغ في الشعر ، وعد من فحوله وهو دون العشرين ، قال أبـــو عبيدة : مر لبيد بمجلس لنهد بالكوفة وهو يتوكأ على عصا ، فلما جاوز أمروا فتى منهم أن يلحقه فيسأله من أشعر العرب ، ففعل فقال له لبيد : الملك الضليل يعني امرؤ القيس ، فرجع فأخبرهم قالوا ألا سألته ثم من ؟ فرجع فسأله فقال : ابن العشرين ، يعني طرفة فلما رجع قالوا : ليتك سألته ثم من فرجع فسأله فقال : صاحب المحجن ، يعني نفسه .

قــال أبو عبيدة : طرفة أجودهم وأجده لا يلحق بالبحور يعني امــرؤ القــيس وزهــير والــنابغة ، ولكــنه يوضــع مع أصحابه الحارث بن حلزة وعمرو بن كلثوم وسويد بن أبي كاهل [١] "

ومــع أن شــاعرية طرفة مشهود لها ، وتقدم بها على غيره من الشــعراء إلا أنه لم يشتهر كعمرو بن كلثوم إلا بمعلقته . ولعله كان مكــثرا وجهــل الرواة أكثر شعره ، ويمتاز طرفة بصدق الوصف ، والبعد عن الخلو إلا أنه كان معقد التراكيب مبهم المعنى تتسم ألفاظه بالغرابة ويلحظ ذلك كله في معلقته .

ومما سبق إليه طرفة وأخذه غيره منه قوله في السفينة :

يشق حباب الماء حيزومها بها　　كما قسم الترب المفايــل باليد[٢]

وقوله :

ومكــان زعــل ظلمانــه　　كالمخاض الجرب في اليوم الخدر[٣]

قد تبطنت وتحتــي ســرح　　تتقي الأرض بملثــوم يعــر [٤]

وقوله في معلقته :

---

[١] ١٠٦ : طبقات الشعراء .

[٢] الحيزوم : الصدر ، وحباب : طرائق الماء ، والمفايل : الذي يلعب لعبة لصبيان الأعراب ، وهي كومة من التراب تشق باليد إلى قسمين .

[٣] الزعل : النشيط . والظليم : ذكر النعام ، الخدر : البارد .

[٤] السرح : الناقة النشيطة ، الملثوم : الخف المكسور ، المعر : ذهب شعره .

فلولا ثلاث هن من عيشة الفتى وجدك لم أحفل متى قام عودى[1]

فمنهن سقى العاذلات بشربــة كميت متى ما تعل بالماء تزبــد

وكرى إذا نادى المضاف محنبـا كسيد الغضا نبهتــه المتــورد[2]

كذلك قوله :

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلا ويأتيك بالأخبار من لم تزود

معلقته :

بـــدا المعلقة ثم استطرد إلى وصف ناقته بخمسة وثلاثين بيتا من عيون الشعر ومبتكره ، ثم بعد ذلك في الفخر بنفسه ، وهي من أمتن شعره وأبلغه ، أولها :

لخولة أطــلال ببرقـــة ثــمهـــد تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد

وقوفا بها صحبي عـــلى مطيهم يقولون لا تهلك أســى وتجلــد

يذكر أطلال (خولة) وتشبيهها ببقية الوشم في ظاهر اليد ، ثم وقـــف بها وقفه قصيرة تخيل فيها قباب الحبيبة غداة ظعنها فوصفها وصـــفا موجزا ، ثم نعت محبوبته نعتا جميلا أهاج في صدره الهم من تذكاره واحتضاره على ناقة وصف أعضاءها وأوضاعها في إسهاب وإغراب وإجادة .

---

(١) العود : الذين يزورون المريض.

(٢) كــرى : عطفي ورجوعي ، المحنب : الفرس الأقنى الذراع أو الناتئ العظام ، والسيد : الذئب . المتورد : الذي يتطلب الماء .

قـــال في وصـــف مراكب عشيقته من بني مالك غداة فراقها ، وشبهها بسفن عظام ، ثم عرج يصف السفينة وهي تشق حباب الماء بقوله :

كأن حدوج المالكيـــة غـــدوة   خلايا سفين بالنواصف من دد[1]

عدولية أوَ من سفين ابن يامـــن   يجور بها الملاح طورا ويهتدي[2]

يشق حباب الماء حيزومها بهـــا   كما قسم الترب المفايل باليـــد

وفي ناقـــته يقـــول واصفا ومشيدا بها وبقوتها وصبرها وسيرها السريع حيث جمعت كل الصفات المثالية التي يجب أن تتوفر في الناقة التي يمتطيها العربي في رحلاته :

وإني لأمضي الهم عند احتضاره   بعوجاء مرقال تروح وتغـــدي[3]

أمـــون كألواح الإران نسأتـــها   على لاحب كأنه ظهر برجد[4]

---

(1) حدوج : مراكب النساء ، المالكية : منسوبة إلى بني مالك بن سعد ، الخلايا : جمع خلية السفينة العظيمة ، النواصف : جمع ناصفة : الرحبة الواسعة في الوادي دد : اسم مكان .

(2) عدولية : نسبة إلى عدولي قرية بالبحرين كان أهلها يصنعون السفن العظيمة ، ابن يامن : ملاح أو تاجر من أهل هجر ، يجور : يميل .

(3) العوجاء : الضامرة الملتصقة البطن فتكون معوجة الأسفل ، والمرقال : السريعة السير .

(4) أمون : يؤمن عثارها ، الإران : التابوت العظيم ، [illegible] ضربتها بالعصا [illegible] وهي العصا ، واللاحب : الطريق الواضح ، والبرجد : [illegible]

وانــتهى مــن وصف ناقته إلى فخره والحديث عن فتوته ولهوه ومجونــه وإقـباله على الملذات مع حرصه على الشيم التي يعتز بها العــربي ويحــافظ عليها من أريحية وسخاء واقتحام لأسباب الموت وإسراع إلى النجدة فقال :

إذا القوم قالوا من فتى؟ خلت أنني عنيت فلم أكسل ولــم أتبلــد
ولســت بحلال التلاع مخافــة ولكن متى يسترفد القــوم أرفد
فإن تبغني في حلقة القوم تلقنــي وإن تلتمسني في الحوانيت تصطد
ومازال تشرابي الخمور ولذتــي وبيعي وإنفاقي طريفي ومتلــدى
إلى أن تحامتني العشــيرة كلهــا وأفــردت إفراد البعـير المعبــد

وفي معلقــته يعلــن صراحة وصدق أن غايته من الدنيا إنما هي الخمــر والحب والنجدة ، ولولا هذه اللذات الثلاث ما رغب الحياة ولا رهــب الموت ، هذه اللذات هي التي دعته إلى المبادرة إلى اللهو وإتلاف المال واقتحام الخطر ، وانتهاز الفرصة الحياة واستمتاعا بها ، ويرســل في أثــنائها حكما تدل على خبرته بالحياة مع قصر عمره فيفلسف النظرة ويتعمق مجريات الأمور فيتحدث عن البخل والموت قائلا

أرى قبــر نحــام بخيــل بمالــه كقبر غــوى في البطالة مفســد
أرى الموت يعتام الكرام ويصطفى عقيلة مــال الفاحش المتشــدد
أرى العيش كنــزا ناقصا كل ليلة وما تنقص الأيام والدهر ينفــد
لعمــرك إن الموت ما أخطأ الفتى لكــا الطول المرخي وثنياه باليد
متــى ما يشاء يوما يقده لحتفــه ومــن يــك في حبل المنية ينقد

ويمضـــي مسجلا علاقته بعشيرته وخاصة ابن عمه ويشكو ظلم قومــه له ووقعه على نفسه ثم يجعل من شكواه منطلقا للفخر بنفسه وحســن بلائهــا وقــوة عزمه وتحمله وصبره على الأذى والملمات يقول:

فما لي أراني وابن عمــي مالكــا ... متى أدن منه ينــأ عني ويبعــد
وظلم ذوى القربى أشد مضاضة ... على النفس من وقع الحسام المهند
أرى الموت أعداد النفوس ولا أري ... بعيدا غدا ما أقرب اليوم من غــد
أنا الرجل الضرب الذي تعرفونه ... خشاش كــرأس الحية المتوقــد
إذا ابتدر القوم السلاح وجدتني ... منيعــا إذا بلت بقائمــة يــدي
فلو كنت وغلا في الرجال لضرني ... عداوة ذي الأصحاب والمتوحد
ولكن نفى عني الرجــال جراءتي ... عليهم وإقدامي وصدقي ومحتدى
ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلا ... ويأتيك بالأخبــار من لم تــزود

وطــرفة في الأبــيات السابقة يوضح أسباب ابتعاد أقرانه عنه وتجنــبهم له ، فقد أشار إليها في قوله : " ولكن نفى عني الرجال " فجــرأته وصدقه وإقدامه وحبه وأصالته هي كل جنايته ، لذلك نأى عنه الآخرون وابتعدوا عنه ، ولكن كل ذلك لا يضره :

فلو كنت وغلا في الرجال لضرني ... عداوة ذي الأصحاب والمتوحد

لبيد بن ربيعة

هو لبيد بن ربيعة بن مالك بن جعفر بن كلاب العامري ، وكان يقــال لأبيه ربيع المقترين لسخائه ، وقتلته بنو أسد في حرب بينهم

وبين قومه ، ويقال قتله منقذ بن ظريف الأسدي ، ويقال قتله صامت بن الأفقم من بني الصيداء [1].

ويكنى لبيد أبا عقيل وكان من فرسان الجاهلية نشأ ربيب الندى والبأس ، فأبوه ــ كما سبق ــ ربيعة المقترين ، وعمه ملاعب الأسنة فارس مضر ، وكان الحارث أبن أبي شيمر الغساني وجه إلى المنذر ابن ماء السماء مائة فارس وأمر لبيدا عليهم ، فساروا إلى عسكر المنذر وأظهروا أنهم أتوه داخلين في طاعته فلما تمكنوا منه قتلوه وركبوا خيلهم فقتل أكثرهم ونجا "لبيد" حتى أتى ملك غسان فأخبره الخبر فحمل الغسانيون على عسكر المنذر فهزموهم ، وهو يوم حليمة وكانت حليمة بنت ملك غسان ،وكانت طيبت هؤلاء الفتيان حين توجهوا وألبستهم الأكفان والدروع وبرانس الإضريح [2].

وسبب قوله الشعر أن الربيع بن زياد أمير عبس ، وهم أخواله ، دخل على النعمان بن المنذر فذكر بالسوء بني عامر وهم قومه ، فلما دخل العامريون على الملك وعلى رأسهم ملاعب الأسنة ، غض منهم ، وذوى وجهه عنهم ، فنال ذلك من بني عامر وشق عليهم ، وكان يومئذ صغيرا فسألهم أن يشركوه في أمرهم فاستصغروه ولما ألح في المسألة أجابوه ، فوعدهم أن ينتقم لهم بهجاء الربيع حتى يحول بينه وبين منادمة الملك ، فقالوا له : إنا نبلوك . فقال : وماذاك ؟ قالوا:

---

[1] ١٦٧ : طبقات الشعراء .

[2] الاضريج : ضرب من الأكسية صفر ، أنظر ١٦٧ :السابق .

تشـــتم هـــذه البقلة ، وأمامهم بقلة دقيقة القضبان ، قليلة الورق ، لاصـــقة بالأرض تدعي الثرية . فقال : " هذه الثربة لا تذكي نارا ، ولا تؤهـــل دارا ، ولا تســـر جارا ، عودها ضئيل ، وخيرها قليل ، وفرعها كليل ، أقبح البقول مرعى ، وأقصرها فرعا ، وأشدها قلعا ، فـــأذنوا له فهجاه بأرجوزة مقذعة أولها : مهلا أبيت اللعن لا تأكل معـــه[1] .... إلخ فـــنفر منه الملك ومقته وطرده وأكرم العامريين وأدنـــاهم ، قـــالوا وكان هذا أول ما اشتهر به لبيد ، ثم أخذ يقول الشـــعر قصاره وطواله ، حتى ظهر الإسلام وأدركه لبيد وقدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم في وفد بني كلاب فأسلموا ورجعوا إلى بلادهم ، ثم قدم لبيد الكوفة وبنوه ، فرجع بنوه إلى البادية (بعد ذلـــك) فأقـــام لبـــيد إلى أن مـــات بهـــا فدفـــن في صـــحراء بني جعفر بن كلاب ، ويقال : إن وفاته كانت في أول خلافة معاوية وأنـــه مـــات وهو ابن مائة وسبع وخمسين سنة [2]. وقيل ابن خمس وأربعين ومائة حتى قال :

ولقد سئمت من الحياة وطولها . . وسؤال هذا الناس كيف لبيد

حفـــظ القـــرآن الكريم وهجر الشعر ، حتى قيل إنه لم يقل بعد الإسلام إلا بيتا واحدا هو :

الحمد لله إذ لم يأتني أجلي   حتى لبست من الإسلام سربالا

---

[1] انظر ٦٩ : تاريخ الأدب العربي ..

[2] ١٦٧ : طبقات الشعراء .

كما قال أبو اليقظان ، وقال غيره هو قوله :

ما عاتب المرء الكريم كنفسه   والمرء يصلحه الجليس الصالح

وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، أنشدني من شعرك ، فقرأ سـورة البقرة وقال : ما كنت لأقول شعرا بعد إذ علمني الله سورة البقرة وآل عمران ، فزاده عمر في عطائه [1].

" وكـان لبـيد ضافي الجود ، وافر اللب ، نبيل النفس ، جم المـروءة ، مشيع القلب فسالت أخلاقه وعواطفه في شعره ، وتمثلت معـاني النبل والكرم في فخره وجاء نظمه فخم العبارة قليل الحشو مـزدانا بالحكمـة العالية والموعظة الحسنة ، ولعله أحسن الجاهليين تصـرفا في الرثاء وأقدرهم على تصوير عواطف الصابر بلفظ رائق وأسلوب مؤثر " . [2]

معلقته :

تـبدأ المعلقة بوصف الأطلال وذكرى الحبيبة ، وهي تعد قطعة مـن صميم البادية وقلب الصحراء نلمس فيها قوة الألفاظ ومتانة الأسـلوب تصور حياة البادية وأخلاق البدو مما يجعل للقصيدة سمة خاصـة تتميز بالخشونة والوعورة في الأسلوب لتجفوه الأذن وينفر مـنه السمع الأول وهلة ، ولكن سرعان ما يألفها الإنسان إذا أمعن

---

(1) ٧٠ : تاريخ الأدب العربي .

(2) ٦٩ ، ٧٠ : تاريخ الأدب العربي للزيات .

السـنظر فـيها ، فيجد المعاني الدقيقة والتشبيهات البارعة والأخيلة النادرة المنتزعة من صميم تلك الحياة [١].

يقــول لبــيد في مطلع معلقته متغزلا ومشببا بحبيبته نوار وعفاء ديارها ودروس أطلالها :

عفت الديار محلهــا فمقامهــا   بمنى تأبــد غولهــا فرجامهــا[٢]

فمدافع الريان عــري رسمهــا   خلقا كما ضمن الوحى سلامها[٣]

ثم أطال في وصف ناقته وكعادة الجاهلي في إجادة هذا الوصف والتماس التشبيهات التي تجسد قوة الناقة وقدرتها على التحمل يقول مشبهها لها بالأتان :

أو ملمع وسقت لأحقب لاحه   طرد الفحول وضربها وكدمها[٤]

يعلو بها حدب الإكام مسحج   قد رابــه عصيانها ووحامهــا[٥]

---

[١] ٣١٥: الأدب العربي بين الجاهلية والإسلام .

[٢] عفا لازم ومتعد : تغير . المحل : مكان الإقامة القصير ، والمقام بالعكس . تأبد : توحش ، الغول والرجام : جبلان .

[٣] المدافع : جمع مدفع وهي مساقط المياه ، الريان : جبل ، خلقا : باليا . الوحى : جمع وحي وهو الكتابة . السلام جمع سلمة بكسر اللام وهي الحجارة .

[٤] الملمــت الأتــان : أشرف طبياها بالبن . وسقت : حملت . الأحقب : العير في وركــيه بــياض ، لاحه : غيره ، الكدام : المكادمة ، مفاعلة من الكدم وهو العض.

[٥] الحــدب : الحدوب ، الإكام واحدة أكمة وهي التل دون الجبل ، المسحج : المعضض ، الوحام والوحم : اشتهاء الحبلى الشيء .

ويشبهها بالبقرة الوحشي بقولــه :

أفــتلك أم وحشية مسبوعــة خذلت وهادية الصوار قوامها [١]

خنساء ضيعت الفرير فلم يرم عرض الشقائق طوافها وبغامها[٢]

ثم يمضي يصف حياته وملذاته وجوده ، وبأسه وإكرامه لضيوفه حتى انتهى إلى الفخر بقومه في صدق واخلاص وقصد :

أولم تكن تدري نوار بأننــي وصال عقد حبائل جذامها [٣]

تــراك أمكنــة إذا لم أرضهـــا أو يعتلق بعض النفوس حمامها [٤]

بل أنت لا تدرين كم من ليلة طلــق لذيذ لهوهـــا وندامها [٥]

أغــلي السباء بكــل أدكن عاتــق أو جونة قدحت وفض ختامها[٦]

---

[١] المســبوعة : أصــابها السبع بافتراس ولدها . والهادية : المتقدمة . والصوار : القطيع من بقر الوحش .

[٢] الخــنس : تأخر في الأرنبة . الفرير : ولد البقرة الوحشية . لم يرم : لم يبرح . العرض : الناحية والشقائق : جمع شقيقة وهي ارض صلبة بين رملتين . البغام : صوت رقيق .

[٣] الحبائل : جمع حبلة ، وهي مصيدة الصائد وشركه مستعارة للعهد والمودة هنا . والجزم القطع .

[٤] اعتلق الشيء : تعلق به ، وبعض النفوس : يريد نفسه . الحمام : الموت .

[٥] الليلة الطلق : التي لا حر ولا برد فيها يؤذيان ، النوام : المنامة .

[٦] السباء : شراء الخمر وجلبها ولا يستعمل لشراء غيرها ، الأدكن : زق الخمر لأنــه أغبر ، العاتق : القديم ، الجونة : السوداء يريد بها الخابية . قدحت وفض ختامها بمعنى واحد .

ومما يستجاد له قوله :

ألا كل شيء ما خلا الله باطل   وكــل نعيم لا محالــة زائــل
إذا المــرء أسرى ليلة ظن أنه   قضى عملا والمرء ما عاش آمل
حبــائلــه مبثوثــة بسبيلــه   ويفنى إذا ما أخطأته الحبائــل [١]
فقولا لــه إن كان يقسم أمره   ألما يعظك الدهر أمك هابــل [٢]

ومن جيد قوله أيضا :

فاقطع لبانة من تعرض وصله   ولخير واصل خلة صرامها [٣]

يقــول اقطع حاجتك ممن لم يستقم لك وصله فإن أحسن الناس وصلا أحسنهم وضعا للقطيعة في موضعها [٤].

عنترة بن شداد العبسي

هــو عنترة بن عمرو بن شداد بن عمرو بن قراد بن مخزوم بن عوف بن مالك بن غالب من قطيعة بن عبس من بغيض ، وقال ابن الكلبي شداد جده أبو أبيه غالب على اسم أبيه فنسب إليه ، وإنما هو عنترة بن عمرو بن شداد ، وقال غيره شداد عمه ، وكان عنترة في حجــره فنسب إليه دون أبيه ، وإنما ادعاه أبوه بعد الكبر وذلك أنه

---

[١] الحبائل : المصايد . مبثوثة : موضوعة ومنتشرة .

[٢] الهابل : الثاكل .

[٣] اللبانة : الحاجة . تعرض وصله : تغير وتحول عن سابق عهده ، والخلة : المودة ، والصــرام : القطــاع . والمعنى : أن أحسن الناس وصلا من يضع القطيعة موضعها اللائق بها ، فإذا علم حاجته تثقل على صديقه قطعتها عنه .

[٤] ١٧١ : طبقات الشعراء .

كان لأمة سوداء يقال لها زبيبة ، وكانت العرب في الجاهلية إذا كان للرجل منهم ولد من أمة استبعدوه ، وكان لعنترة اخوة من أمه عبيد وكـــان سبب ادعاء أبي عنترة إياه [1]،ونزع نفسه من حال العبودية أنه روض نفسه على الطراد والفروسية حتى غدا محنك حرب وقائد كتيـــبة ، واتفـــق أن بعض أحياء العرب أغاروا على عبس فاستاقوا إبلهم وتبعهم العبسيون وعنترة فيهم ، فقال له أبوه : كر يا عنترة . فأجابـــه وهو يحقد عليه استبعاده إياه : العبد لا يحسن الكر ، وإنما يحســـن الحلب والصر ، فقال : كر وأنت حر ، فقاتل قتالا شديدا حتى هزم المغيرين ، واسترجع الإبل فاستلحقه أبوه ، وأخذ اسمه منذ يومـــئذ ، يســـير وذكـــره يطير حتى أصبح مضرب المثل في الإقدام والجرأة وله في تعليل شهرته وشجاعته رأي حصيف ، قال له قائل ، أنـــت أشجع الناس وأشدهم ، فقال له : لا . قال فبماذا شاع لك هـــذا في الناس ، قال : كنت أقوم إذا رأيت الإقدام عزما ، وأحجم إذا رأيت الإحجام حزما ، ولا أدخل موضعا لا أرى لي منه مخرجا ، وكنـــت اعتمد الضعيف الجبان فاضربه الضربة الهائلة يطير لها قلب الشجاع فأثني عليه فأقتله [2].

وهو أحد أغراب العرب وهم ثلاثة : عنترة وأمه زبيبة سوداء ، وخفـــاف بن عمير الشريدي من بني سليم وأمه ندبة وإليها ينسب

---

[1] ١٤٩ : الشعر والشعراء .

[2] ٥٨ : تاريخ الأدب العربي .

وكانت سوداء والسليك بن عمير السعدي وأمه سلكة وإليها ينسب وكانت سوداء ، وكان عنترة من أشد أهل زمانه وأجودهم بما ملكت يده ، وكان لا يقول من الشعر إلا البيتين والثلاثة ، حتى سابه رجل من بني عبس ، فذكر سواده وسواد أمه وإخوته وعيره بذلك فقال قصيدته :

هل غادر الشعراء من متردم

قاد عنترة كتائب عبس في حرب داحس والغبراء فأحسن القيادة ، وبلغ أوج السيادة ، وفيها قتل ضمضما المرى أبا حصين بن ضمضم وفي ذلك يقول :

ولقد خشيت بأن أموت ولم تدر   للحرب دائرة على ابني ضمضم
الشاتمي عرضي ولم أشتمهما   والناذرين إذا لم ألقهما دمي
إن يفعلا فلقد تركت أباهما   جزر السباع وكل نسر قشعم

ومما سبق إليه ولم ينازعه فيه أحد قوله :

جادت عليه كل عين ثرة   فتركن كل حديقة كالدرهم
وخلا الذباب يغني وحده   غردا كفعل الشارب المترنم
هزجا يحك ذراعه بذراعه   قدح المكب على الزناد الأجذم

ومن حسن شعره ما قاله في شجاعته وأن الموت مدرك للإنسان فخير أن يموت في ساحات الوغى من أن يقضي دون قتال وهو الموت إذا مثل الموت بإنسان يقول :

بكرت تخوفني الحتوف كأنني   أصبحت عن عرض الحتوف بمعزل

فأجبتهـــا إن المنيـــة منهـــل لابد أن أسقي بـــذاك المنهـــل
فاقني حياءك لا أبالك واعلمي أني امرؤ سأموت إن لم أقتـــل
إن المنيـــة لو تمـــثل مثلـــت مثلي إذا نزلوا بضنك المـــنزل

ومن مبالغاته قوله :

وأنا المنية في المواطن كلها والطعن مني سابق الآجال

معلقته لم يرو عن عنترة في أثناء رقه من الشعر جيد ولا ردئ ، فـــلما استلحقه أبوه وحالفه الفوز في حربه واستولى حب عبلة على قلـــبه ، جاش الشعر في صدره وجرى على لسانه في الفخر والحب والحرب ، وكانت معلقته التي يعتذر فيها بأن الشعراء قبله قد أخذوا علـــيه كل معنى وطرقوا كل ناحية ، فلم يتركوا موضعا يزاد فيه أو فكـــرة تهـــذب حواشيها ، ثم سلك طرائق الشعراء في وصف ديار المحـــبوبة والحديث عنها وعن عذوبة ثغرها وطيب ريقها ، ثم وصف إبـــاءه ونجدته وشهامته ومروءته فجاء بالعجب ، وأتى بالبيان المعجز والقول الساحر يقول :

هل غادر الشعراء من متردم أم هل عرفت الدار بعد توهم [١]
يا دار عبلة بالجواء تكلمي وعمي صباحا دار عبلة واسلمي[٢]

---

[١] المتردم : المكان الذي يحتاج إلى إصلاح أو هو من التردم كالترنم وزنا ومعنى .
[٢] الجواء : موضع .

ثم استطرد إلى وصف محبوبته بوصف دقيق التصوير أنيق التعبير فثغرها تارة يشبه في طيبه فأرة المسك وأخرى يشبه الروضة الأنف :

إذ تسبيك بذي غروب واضح ... عذب مقبله لذيذ المطعم [١]

وكأن فأرة تاجر بقسيمة ... سبقت عوارضها إليك من الفم [٢]

أوروضة أنفا تضمن نبتها ... غيث قليل الدمن ليس بمعلم [٣]

ثم تحدث عن شقائه وعذابه وراحتها ونعيمها بقوله :

تمسي وتصبح فوق ظهر حشية ... وأبيت فوق سراة أدهم ملجم [٤]

وحشيتي سرج على عبل الشوى ... نهـد مراكله نبيـل المحـزم [٥]

ثم تحدث عن شجاعته وشهامته ونجدته المستغيث وإبائه بقوله :

أثني عـلى بما علمت فإنـني ... سهل مخالقتي إذا لم أظلم

فإذا اظلمت فإن ظلمي باسل ... مر مذاقه كطعم العلقـم

إلى أن قال :

---

(١) غرب كل شيء ، حده : والوضوح : البياض .

(٢) فأرة المسك : فاترته . القسيمة : الحسن . عوارض الأسنان : ما يبدو منها عند الضحك .

(٣) الروضـة الأنف : التي لم ترع بعد . الدمن : جمع دمنة وهي السرجين والمعلم الذي تطؤه الدواب .

(٤) الحشية : ما حشي بقطن أو صوف أو نحوهما . السراة : أعلى الظهر . الأدهم : الذي يضرب لونه إلى السود .

(٥) العـبل : الغليظ . الشوى : الأطراف . النهد : المشرف الضخم . المراكل : مواضع عقب الراكب من جنب الفرس المحزم:موضع الحزام.نبيل: عظيم وسمين

لما رأيت القوم أقبل جمعهم ... يتذامرون كررت غير مذمم

يدعون عنتر والرماح كأنها ... أشطان بئر في لبان الأدهم

مازلت أرميهم بثغرة نحره ... ولبانه حتى تسربل بالـــدم

ثم يذكـــر كـــره وفـــره وخبرته بالحرب ومعرفة الجميع بذلك الفرســـان والخيول على السواء ، وكيف ينام على الطوى إن لم ينل كريم المأكل يقول :

وإذا الكتيبة أحجمت وتلاحظت ... ألفيت خيرا من معم مخول

والخيل تعلم والفوارس أنني ... فرقت جمعهم بضربة فيصل

والخيل ساهمة الوجوه كأنما ... تسقي فوارسها نقيع الحنظل

ولقد أبيت على الطوى وأظله ... حتى أنال بـــه كريم المأكـــل

عمرو بن كلثوم

هو من بني تغلب من بني عتاب ، وهو قاتل عمرو بن هند ملك الحـــيرة ، وكـــان سبب ذلك ما ذكرناه من أن عمرو بن هند أراد إذلال العـــرب بإذلال أعز بيت فيهم فقد سأل خاصته عن أحد من العرب تأنف أمه من خدمة أم الملك عمرو فقيل له : لا أحد إلا ليلى أم عمـــرو بن كلثوم ، فتحايل على استقدامها إلى أمه وجمع الوجوه مـــن مملكـــته ليشـــهدوا الحدث الجلل ، إلا أن أم عمرو بن كلثوم استغاثت بقبيلتها عندما طلبت أم عمرو بن هند منها أن تناولها الطبق فأســـرع ولدها والدم يثور ويحتقن في أوردته إلى الملك وأنزل سيفا كـــان معلقـــا بالحائط وأعجل الملك بضربة منه أودى به في الحال،

وأصـــطحب أمه،وانتهت التغلبيون جميع ما كان في الرواق،وساقوا نجائـــبه وســـاروا نحو الجزيرة فأنشد قصيدته المعلقة ولم يعرف له من الشـــعر إلا هـــذه القصيدة يستهل قصيدته بذكر الخمر والغزل،ثم يصف ملاحاة وقعت بينه وبين الحارث بن حلزة اليشكري في مجلس الملـــك عمـــرو بن هند ليصف فيها حديثه مع الملك،ويفتخر بنفسه وقومـــه وأيـــامهم وغاراتهم المشهورة،ولقد تجاوبتها المجامع وتناقلتها الألسنة،وأكثر بنو تغلب من إنشادها وروايتها حتى قال فيهم الشاعر

ألهي بنى تغلب عن كل مكرمة   قصيدة قالها عمرو بن كلثوم

يفاخرون بها مذ كان أولهم   يا للرجال لفخر غير مسئووم

ومطلع معلقته :

ألا هبي بصحنك فاصبحينا   ولا تبقي خمور الأندرينا [١]

مشعشعة كان الحص فيها   إذا ما الماء خالطها سخينا [٢]

وفيها يوجه حديثه لعمرو بن هند ينذره فيه ويبين مكانه التغلبيين من العرب ومجدهم المؤثل ، ثم يتساءل ساخرا ، ما الذي أغراك بنا؟ ويتوعده بما سيناله على أيديهم يقول :

أبا هند فلا تعجل علينا   وانظرنا نخبرك اليقينا

---

[١] الصحن : القدح الواسع . واصبحينا : اسقينا الصبوح ، وهو شراب الصباح .
الأندرين : قرية جنوب حلب .

[٢] مشعشعة:ممزوجة بالماء الحص:نبت له نوار أحمر يشبه الزعفران
سخينا : من السخاء .

بأنا نورد الرايات بيضـــا ... ونصدرهن حمرا قد روينا
ورثنا المجد عن عليـــا معد ... نطـــاعن دونه حتى يبينـــا
ألا لا يجهلن أحد علينـــا ... فنجهل فوق جهل الجاهلينا
بأي مشيئة عمرو بن هند ... تطيع بنا الوشاة وتزدرينـــا
فإن قناتنا ياعمـــرو أعيت ... على الأعداء قبلك أن تلينا

وكما قتل عمرو بن كلثوم الملك عمرو بن هند ، فإن أخاه مرة بن كلثوم هو قاتل المنذر بن النعمان وفي ذلك يقول الأخطل :

أبني كليب إن عمي اللذا ... قتلا الملوك وفككا الأغلال[1]

وقال الفرزدق[2] لجرير مفتخرا :

ما ضر تغلب وائل أهجوتها ... أم بلت حيث تناطح البحـــران
قوم هم قتلوا ابن هند عنوة ... عمرا وهم قسطوا[3] على النعمان

كذلك قتل بن عمرو بن كلثوم بشر بن عمرو بن عدس [4].

والقتل الذي عرف من شعر عمرو بن كلثوم رائق الأسلوب ، نبـــيل الغرض إلا أنه فعل ، لم يتغلب في فنون الشعر ولم يزج العنان لســـليقته ، ولم يطع سلطان قريحته ، وإلا لكان منه عطاء نثر وشعر

---

[1] يعني . بعميه عمرو بن كلثوم ، ومرة بن كلثوم وهما أخوان .
[2] ١٣٨ : ـــ طبقات الشعراء .
[3] العنوة : القهر . قسطوا : جاروا وثاروا .
[4] ١٣٩ : طبقات الشعراء .

حسن قوي من مثل معلقته التي جعلته في مصاف الشعراء المعدودين في الجاهلية .

الحارث بن حلزة

هو أبو الظليم الحارث بن حلزة اليشكري البكري ، كان في بني بكر مكان عمرو بن كلثوم في بني تغلب ، وكان الحارث أبرص ، ويقال إنه ارتجل معلقته التي تبدأ بقوله :

آذنتنا ببينها أسماء رب ثاو يمل منه الثواء

بين يدي عمرو بن هند في شيء كان بين بكر وتغلب بعد الصلح ، وكان ينشده من وراء الستر للبرص الذي كان به ، فأمر برفع السجف بينه وبينه استحسانا لها ، وكان الحارث متوكئا على عصا فأثرت في جسده وهو لا يشعر[١] . وقيل : إن تغلب رمت بكرا بالغدر بعد الصلح بينها وتدافع الفريقان إلى عمرو بن هند وتجادلا أمامه وكان هواه مع التغلبيين ، فاستفز ذلك الحارث بن حلزة وكان حاضرا فقال معلقته على البديهة ارتجالا وانشدها وهو متكئ على قوسه فيقولون إن كفه اقتطعت وهو لا يشعر من الغضب[٢].

---

[١] ١١١ : طبقات الشعراء.

[٢] ٦٧ : تاريخ الأدب العربي .

وقد أجاد في مدح الملك حتى كسبه إلى صفه ، وأماله إلى قبيلته واستل من قلبه ضغينة أوجدها النعمان بن هرم زعيم قومه بتهوره ، وعمـر الحـارث طويـلا ويذكر الأصمعي أن الحارث أنشد هذه القصـيدة ولـه من العمر خمس وثلاثون ومائة سنة ، ولم يصلنا من شـعره إلا معلقته وبعض مقطوعات قليلة ، على أن مطولته بلغت مكـان الإعجاب لإحكام نسجها وتشعب فنونها وارتجالها في موقف واحد ، وقد بدأها بالغزل بقوله :

آذنتـنـا بـبـينهـا أسمـاء رب ثـاو يمل منـه الثـواء[1]

بعـد عهد لنا ببرقة شـما ء فـأدنى ديارهـا الخلصـاء[2]

ثم تخلص إلى وصف ناقته وشبهها بالنعامة في الإسراع والخفة بقوله :

غير أني قد أستعين على الهم إذا خف بالثوى النجاء[3]

---

(١) البين : الفراق ثاو : مقيم .

(٢) برقة شماء : مكان ، والخلصاء : مكان ، وبعد عهد أي لقاء والفعل عهد يعهد : يقـول عزمـت على فراقنا بعد أن لقيتها ببرقة شماء وخلصاء التي هي أدنى ديارها إلينا .

(٣) الثوى : المقيم ، النجاء : الإسراع .

بـــزفيف كأنهــا هقلــة   أم رئـــال دويـــة سقفـــــاء[1]

آنست نبأة وأفزعها القنا   ص عصرا وقد دنا الإماء[2]

ثم تحـــدث عن تجني تغلب على قومه ، ويذكر ما عليه أهله من القوة والمنعة ويحرض الملك على أن ينتصر لهم بقوله :

إن إخواننا الأراقم يغلو   ن علينا في قيلهم إحفـــاء[3]

يخلطون البريء منا بذي الذنـــ   ب ولا ينفع الخلـــي الخلاء

زعموا أن كل من ضرب العيـــ   ر موال لنا وأنــا الـــولاء[4]

واذكروا حلف ذي المجاز وما قد   م فيـــه العهـــود والكفلاء

واعلموا أننا وإياكم فيـــ   ما اشترطنا يوم اختلفنا سواء

ثم يمدح الملك بالعدل وأنه أفضل من يمشي على الأرض بقوله :

أيها الناطق المرقش عنا   عند عمرو وهل لذاك بقاء ؟

لا تخلنا على غراتك إنا   قبل ما قد وشى بنا الأعداء

فبقينا على الشناءة تنميـــ   ـــنا حصـــون وعزة تعســـا

ملك مقسط وأفضل من يمشي   ومـــن دون ما لديه الثنـــاء

---

[1] الزفـــيف : إسراع النعامة في سيرها ، وقد يستعار لسيرها كما هنا فالزفاف : مـــبالغة في وصـــف ناقته بالسرعة ، والهقلة : والنعامة . والرئال : أولادها . والدو : المفازة ، والدوية : المنسوبة إليها ، والسقفاء الطويلة مع أنحاء .

[2] آنست : أحست ، والنبأة : الصوت الخفي .

[3] الأراقم : بطون من تغلب . الغلو : مجاوزة الحد ، القيل : القول،إحفاء :إلحاح.

[4] العير : الحمار وقد يكون بمعنى السيد .

ويصف التأهب للرحيل قائلا :

أجمعوا أمرهم عشاء فلما ... أصبحوا أصبحت لهم ضوضاء

من مناد ومن مجيب ومن تصـ ... ـهال خيل خلال ذاك رغاء

ومنها ما يرسله حكمة قائلا أن الحذر لا يغني من القدر :

لا يقيم العزيز بالبلد السهـ ... ـل ولا ينفع الذليل النجاء

ليس ينجي موائلا من حذار ... رأس طود وحرة رجـــلاء

الفصل الخامس

(النثر الجاهلي)

- توطئة
- الخطابة ودواعيها وموضوعاتها.
- الحكم والأمثال .
- الوصايا .
- المفاخرة والمنافرة .
- سجع الكهان .
- سمات عامة .

النثـــــــــر

****

توطئـــــة :

النـــثر يـــراد بـــه كل ما عدا الشعر، فكلامنا فى أحاديثنا، وكتاباتـــنا نـــثر ولكن كثيراً من النثر لا يعنى به الأدب ، وإنما يعنى الأدب بالنثر المعقول وهو ما اختص بمصطلح (النثر الفنى) ويتميز من الشعر بأنه لا يتقيد بوزن ولا قافية ، وقيل النثر : من فـــن منمق اللفظ صنع فى قالب أدبى يثير المشاعر ويحرك العواطف .

وقـــيل إنه : ذلك اللون الجميل الذى يعتمد من الكلام على حســـن الصوغ وجودة السبك وجمال الفكر ونضارة الخيال ، وهو بذلـــك يؤثـــر على العقول فيخلبها وعلى القلوب فيستهويها ، وفى أفكار الناس فيثيرها وعلى غرائزهم فيلهبها .

ويقـــول شوقى ضيف : " النثر هو الكلام الذى لم ينظم فى أوزان وقواف وهو على ضربين : الأول النثر العادى الذى يقال فى لغـــة التخاطـــب ، وليست لهذا الضرب قيمة أدبية إلا ما يجرى فيه أحـــياناً مـــن أمـــثال وحكم ، والثـــانى : هو النثر الذى يرتفع فيه أصـــحابه إلى لغـــة فيها فـــن ومهارة وبـــلاغة ، والأخير هو الذى يعنى به الأدب. [1]

---

[1] ١٥ : الفن ومذاهبه فى النثر العربى شوقى ضيف .

ومـــن ثم كان الناثر أكثر مطالبة بترتيب الألفاظ والجمل ، وإذا كان الشعر أكثر ما يعتمد على العاطفة والشعور والخيال ، فإن النـــثر المنمق أكثر ما يعتمد على العقل والمنطق والمعانى ، ولذا كان الشـــاعر يثير فى المتلقى مشاعره وخياله ، بينما الناثر يخاطب العقل والمـــنطق ، ولذلـــك كـــان على الناثر أن يراعى تسلسل الأفكار ووضـــوح المعـــانى وقوة المنطق ، بينما يطالب الشاعر بجمال اللفظ والمعنى وحسن الموسيقى وقوة العاطفة وسمو الخيال وبراعة الأسلوب والتعـــبير الجـــيد عن التجربة ، ويوضح الجاحظ والعتابى الفرق بين الكلام العادى والنثر الفنى حين زعم أن كل من أفهمك حاجته فهو بلـــيغ فى قولهمـــا : لم يعـــن أن كل من أفهمنا من معاشر المولدين والـــبلديين قصـــده ومعـــناه بـــالكلام الملحون والمعدول عن جهته والمصروف عن حقه إنه محكوم له بالبلاغة كيف كان .[1]

ويعد النثر أسبق أنواع الكلام فى الوجود لقرب تناوله وعدم تقيده وضرورة استعماله ، ولم يعن الرواة من منثورهم على كثرته إلا بما علق بالذهن لنفاسته وبلاغته وإيجازه .[2]

آراء الباحثين فى وجود نثر للعرب فى الجاهلية :

أنكـــر كـــثير من دارسى الأدب أن يكون للعرب من قبل الإسلام نثر فنى لأنهم كانوا يعيشون عيشة أولية لم يتحضروا بعد ولم

---

(١) ١٤٥ / ١ : البيان والتبيين .

(٢) ١٨ : تاريخ الأدب العربى العصر الجاهلى .

تكـــن عندهم دواعيه ، وهذا الإنكار يعد من قبيل استكثار القدرة علـــيهم على هذا النثر ، وتبعه عجز أولئك عن الإتيان به بحجة أن النـــثر الفنى مظهر للتطور العقلى والحضارى والعرب قبل الإسلام لم يكـــن لهـــم من ذلـــك نصيب ، وبأن الحياة الأولية لا توجب النثر الفنى لأنه لغة العقـــل ، ووجود الشعر لدى العرب فى الجاهلية ليس دليلاً على مقـــدرة فى النثر لأن الشعر وليد الفطرة الإنسانية وليس كذلك النثر .

ومـــن هذه الطائفة التى أنكرت وجود النثر الفنى فى العصر الجاهـــلى المستشرق الفرنسى "مسيو مرسيه"، ومن العرب الدكتور / طـــه حســـين ، يقول الأخير : " والواقع أننا لا نستطيع بحال من الأحـــوال مهمـــا نحـــرص على أن نكون من أنصار العصر الجاهلى وعشاقه أن نطمئن إلى أن هذا العصر كان له نثر فنى . [(١)]

وقـــد عاد الدكتور / طه حسين ينقض هذا الكلام بنفسه فى الصفحة نفسها : " وإذن فالعصر الجاهلى لم يكن له نثر بالمعنى الذى حددتـــه ، ومـــع ذلك فقد كان له نثر خاص لم يصل إلينا لضعف الذاكرة وخلوه من الوزن . هذا النثر هو الخطابة ، وليس من شك إذا فهمـــنا حياة العرب الجاهلية أن ما كان يقع بينها من خصومات كان يحتاج إلى كلام غير منظوم ، فقد كان الخطباء والمحامون ينطقون بلســـان القبائل ، ويحرصون على أن يعجبوا السامعين لا ليقنعوهم

---

(١) ٢١ ـــ ٢٥ : من حديث الشعر والنثر . طه حسين

فحسب بل ليثيروا فيهم لذة فنية " . [١] ومتى وجدت هذه اللذة فقد وجد الكلام الفنى .

ويرفض الدكتور "بلاشير" كل النثر الذى ينسب للعرب من قـبل الإسلام ويراه منحو لا عليهم ، وإن كانت لديهم القدرة على النـثر ، وكانـت لهم فيهم آثار إلا أنها ضاعت عبر التاريخ قبل أن تصـل إلى أيـدى الرواة المدونين يرفض ذلك قائلاً . " ومن المفيد الإشـارة إلى أن النصـوص التى بين أيدينا ـ باستثناء القرآن ـ لا تحتوى على أى أثر نثرى يعود إلى الجاهلية " . [٢]

ويقـول الدكتور شوقى ضيف : " ليس بين أيدينا نصوص وثـيقة من الخطابة الجاهلية لما قلناه من بعد المسافة بين العصر الذى قيلت فيه وعصور التدوين " . [٣]

والآراء الـتى ذكرناها سابقاً تعتمد فيما ذهبت إليه على أن الحـياة الـتى كان يحياها العرب وما فشا فيهم من أمية تسبب عنها ضـياع آثارهم وذهاب تراثهم الأدبى مما لم نجد معه أثر يدل على أنه كـان لديهم نثر فنى ، والواقع أن فى ذلك الحكم إسرافاً فى التجنى خاصة إذا عرفنا أن القرآن الكريم يشير فى آياته وفى أكثر من سورة إلى تحدى الله ـ عز وجل ـ للمشركين أن يأتوا " بسورة من مثله "

---

(١) ٢٥ : السابق .

(٢) ١٧٦ : تاريخ الأدب العربى العصر الجاهلى .

(٣) ٤١٠ : العصر الجاهلي .

ناهيك عن مثل القرآن ككل ، وهذه الإشارات تدلنا على أن القوم كـــانوا قــد بلغوا فى التطور العقلى مبلغاً معه تحداهم القرآن الكريم بأســلوبه المعجز ، وإلا فما معنى التحدى إذا لم يكن المتحدى يملك الآلات ويقــوى بإمكاناتــه مهمــا كانت محدودة على أن يطالب بذلك ؟!.

وإضافة إلى ما سبق فإن فى القرآن الكريم إشارات إلى تداول أولــئك القوم فيما بينهم الأساطير ، وقد رموا القرآن الكريم بذلك حين قالوا:" إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين " [١] وقالوا فيه: "وقــالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا " [٢] ، كــل ذلك يدل على أن هناك نثراً وإن لم يكن قد وصل إلينا بدليل الحكم والوصايا والأمثال التى زخر بها العصر الجاهلى وهى تنبئ عن عقلــيات فذة استطاعت أن تختصر المساحات الشاسعة من النثر فى كــلمات معدودة ، تنقل مؤداها بعمق ، وتعبر عن فحواها باقتدار ، ولــيس مــن المعقول والمنطقى أن نجد هذه المواجيز البارعة دون أن يكون هناك لها أصل مبسوط ، ولكنها العقلية العربية التى كانت تميل دائماً إلى إيثار الخفة . والقوم بعد لم يتخذوا الكتابة وسيلة من وسائل تســجيل آثارهم إلا فى القليل النادر ، فحفظوا ما سهل مما سبق ، كمــا حــافظوا على أشعارهم بالرواية فى الوقت نفسه لأنها علقت

---

(١) الآية ١٣ : سورة المطففين .

(٢) الآية ٥ : سورة الفرقان .

بقلوبهـــم وعقولهم لموسيقاها وإطرابها لهم ، وقد يؤيد ما ذهبنا إليه ما يراه طائفة أخرى من الباحثين من أن العرب كان لهم نثر فنى ، وإن كان هذا النثر قد اندثر فى تضاعيف الزمن وتاه فى طيات النسيان ، ودليـــلهم عـــلى ذلـــك أن النثر كان موجوداً عند أكثر الأمم التى جاورت العرب أو عرفوها كالفرس والهنود والمصريين واليونان .

مـــن هؤلاء المؤيدين لوجود نثر فنى عند العرب فى الجاهلية المستشرق الألمانى برو كلمان الذى يقول : " وأخيراً يمكن القول بأن فـــن التأثير بالكلام المتخير الحسن الصياغة والتأليف فى أفكار الناس وعزائمهم قد ازدهر عند عرب الجاهلية ، وأن هذا الفن قد اشتمل على بذور النمو الأدبى " . [1]

والواقع التاريخى يؤكد أن العرب فى جاهليتهم لم يكونوا أمة جاهلـــة غـــير عالمـــة أو أمة غبية ، إنما كان فيهم العقلاء والفضلاء وأصـــحاب الحـــلم والرأى والفطنة وكانوا هم الذين حملوا عبء الـــتجارة طويلاً من الزمن فى رحلتى الشتاء والصيف آناء الصراع العسكرى بين الروم والفرس وانقطاع الاتصال بين الشرق والغرب إلا عن طريقهم . [2]

وأمة دأبت زمناً طويلاً على الاحتكاك بتلك الأمم حرى بها أن تـــتأثر بما لديهم من معارف ، وليس بمعقول أن يكون للأمم التى

---

(1) ١٢٩ : تاريخ الأدب العربى برو كلمان .

(2) ٨٨ : الأدب العربى فى الجاهلية .

احتكوا بها وتعاملوا معها نثر فنى قبل الميلاد بأكثر من خمسة قرون ، ثم لا يكــون للعــرب نثر فنى بعد الميلاد بخمسة قرون ، لأن العصر الــذى وسموه بالأولية هو القرن الخامس ، وكأن العرب انفردوا فى التاريخ القديم بالتخلف فى ميادين العقل والمنطق والخيال .[١]

وقــد ورد فى كتاب الجاحظ البيان والتبيين من حديث عبد الصمد بن الفضل الرقاشى كما يرويه الجاحظ ما يؤيد ذلك يقول : " مــا تكلمــت بــه العرب من المنثور أكثر مما تكلمت به من جيد المــوزون ، فــلم يحفــظ من المنثور عشره ، ولا ضاع من الموزون عشره [٢]، قال الجاحظ : " وكانوا يمدحون الجهير الصوت ويذمون الضــئيل الصوت ، ولذلك تشاوقوا فى الكلام ومدحوا سعة الفم ، وذمــوا صغر الفم وكانوا يمدحون شدة العارضة وقوة المنة وظهور الحجة وثبات الجنان وكثرة الريق والعلو على الخصم " .[٣]

مــا سبق يدلنا على أنه كان للعرب فى جاهليتهم ذلك النثر الأدبى أو الفــنى لأنهــم يحتاجون إلى كلام يعبرون به عن شعورهم وشئونهم فى المجتمعات السامية التى تجمع عظماءهم ، أو حين يفدون على الملوك أو عظماء القبائل فى مهام سياسية أو اجتماعية ، والشعر لا يستطيع النهوض بكل ما تستدعيه هذه المجتمعات .

---

(١) ١٥٩ : الأدب العربى بين الجاهلية والإسلام .

(٢) ١١٣ / ١ ، البيان والتبيين .

(٣) ٢٣٤ /١ : الســـابق .

وإلى جانب ما كان يعبر عنه الجاهلى من أمور يقتضيها تعامله مع من حوله ، كانت العربية الفصحى لغة المجتمع والبيت ، فلا يقرع سمع الطفل فى مهده ولا فى مدارج طفولته ولا بين ملاهى صباه غير العربية الخالصة ، ولم يكن للعرب ما يشغلهم فى حياتهم ولا يستنفذ فراغهم غير صناعة الكلام ، ولهذه الصناعة مجالات ، فهى فى البيت حديث وفى مجالس السمر فكاهة أو مثل أو قصة وفى الغزوات والمعارك تحريض أو إثارة .

من المحقق إذن أن العرب وجد لهم نثر فنى يتمثل فى تلك الألوان التى استدعتها حياتهم واقتضتها طبيعتهم ، فهذا الفراغ الهائل الذى كان يلفهم فى صحرائهم المترامية ، وتلك الوحشة الرهيبة التى كانت تجثم على حياتهم جعلتهم يزجون أوقاتهم ، ويستعينون على وحشتهم بالقصص البارع الذى يخلب الألباب ويمتلك الأسماع ويأسر الأفئدة .[1]

ويتمثل ذلك النثر الفنى عند العرب فى الجاهلية فى الكتب التى كانت تحوى الكثير من الوصايا والنصائح والدعوة إلى الفضائل. كما يتمثل فى الخطب التى كانوا يلقونها فى المحافل والوفادات وما عرف من سجع الكهان وكذلك فى الأقاصيص والمسامرات التى عكست تقييدات اللغويين والأدباء لنا روحها وطبيعتها بأمانة ودقة ،

---

(١) ١٦٢ : الأدب العربى بين الجاهلية والإسلام .

فقد كان القاص يقوم مقاماً هاماً إلى جانب الشاعر في سمر الليل بين مضارب الخيام وقبائل البدو المتنقلة وفي مجالس القرى والحضر .[١]

وإذا كانـــت هذه الأمة قادرة على النثر الفنى – كما سبقنا – فإن هناك لونين منه :

لـــون كتابي : كالرسائل والكتب وهذا لم يصلنا منه شيئ مع الظن بوجوده لأن القرآن الكريم يشير إلى تلك الكتب التى لم يطلع عليها النبى صلى الله عليه وسلم حتى يهتم بأنه لفق القرآن – حاشاه – ممـــا نقـــل إليه من علوم الأولين : " وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون " .[٢]

ولون قولى : كالخطابة والوصايا والأمثال والقصص – وهذا – غـــدا القصـــص لا يشك فى وجود نصيب منه فى كتب التراث والمراجع التى بين أيدينا .[٣]

أما القصص فلدواعيها الكثيرة فى المجتمع الجاهلى لا يشك فى وجودهـــا والشواهد الكثيرة دالة عليه ، وكانت أحب القصص إلى الـــنفوس أخبار أيام العرب وما وقع فيها من بطولات ذائعة ووقائع مشـــهورة ، وكتـــب السيرة تروى أن سويد بن الصامت قدم مكة فتعرض له رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فدعاه إلى الإسلام فقال

---

(١) ١٢٨ : تاريخ الأدب العربى . بروكلمان .

(٢) الآية ٤٨ من سورة العنكبوت .

(٣) ٨٩ : الأدب العربى فى الجاهلية .

له سويد : فلعل الذى معك مثل الذى معى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما الذى معك ؟ قال مجلة لقمان . فقال رسول الله صـــلى الله عليه وسلم : " أعرضه على" فعرضه عليه فقال له : إن هذا هذا الكلام حسن ، والذى معى أفضل من هذا قرآن أنزله الله على هدى ونور ، فتلا عليه رسول الله عليه الصلاة والسلام القرآن ودعاه إلى الإسلام ، فلم يبعد منه وقال إن هذا القول حسن .[1]

كذلـــك كان النضر بن الحارث ، وكان قد قدم من الحيرة وتعلم أحاديث الفرس وأحاديث "رستم واسفنديار" يجلس إلى القوم بعد أن يقوم الرسول صلى الله عليه وسلم من مجلسه ويحدثهم : أنا والله يا معشر قريش أحسن حديثاً منه فهلموا إلى فأنا أحدثكم أحسن من حديثه ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورستم واسفنديار .[2]

وهـــذا القصص لم يدون عند عرب الجاهلية شأنهم فى كل ما يتصـــل بمعـــارفهم وثقافـــاتهم لغلبة الأمية عليهم ، وإن كان الرواة اللغويون قد دونوا بعضه فى القرن الثانى للهجرة أيام العباسيين إلا أن هـــذا التدوين لا يخلو من أعمال الذهن فى التحسين والزينة وإضافة صـــور وحلقات أخرى ، وهكذا مما يجعلنا نتوقف فى الحكم عليه بأنه أثر جاهلى حقيقة[3] . وإذا كان الأمر كذلك ولا تنسب القصص

---

(١) ٢/٦٨ : السيرة النبوية لابن هشام .

(٢) ١/٣٢١ : الســـــابق.

(٣) ١٦٣ : الأدب العربى بين الجاهلية والإسلام .

فى صـــياغتها إلى الجاهلـــية أو سواها إنما المهم أن ينسب صائغها إلى العصر الذى تنسب هى إليه .[١]

أمـــا الفـــنون النثرية الأخرى : الخطابة والوصايا والأمثال وسجع الكهان وأحاديث المنافرات والمناظرات ، فقد وجدت الكتب الـــتى حفظـــت بعضها ووجد الناس الذين نسبوها إلى أصحابها من الجاهليين [٢] ، وفى الجملة فإن ما روى لنا من نثر الجاهليين : قصص تـــروى فيه أخبارهم وأيامهم ومفاخراتهم وقد ورد من هذا الكثير فى كـــتاب الأغـــانى ، ثم مواعظ دينية كالذى روى لقس بن ساعدة ثم الخطابة والأمثال فسجع الكهان .

---

(١) ٨٩ : الأدب العربى فى الجاهلية .

(٢) ٩٠ : الســـــابق .

فنـــون النثـــر الجاهـــلى

****

الخطـــابـــة :

نـــوع من النثر الغرض منه إقناع السامع بما يريده الخطيب وهـــو القول الذى يلقيه القائل فى مجتمع من الناس ليقنعهم برأيه أو يوجههـــم إلى مـــا يـــرى ذلك أن الغاية من الخطابة إفهام السامعين الموضـــوع الذى يتكلم فيه الخطيب وإثارة مشاعرهم حتى يشتركوا معه فى الشعور بما يقربه وهى كالشعر لحمتها الخيال وسداها البلاغة، وهـــى مظهـــر من مظاهر الحرية والفروسية وسبيل من سبل التأثير والإقـــناع ، وهى كذلك كفن قولى مرتجل تحتاج إلى ذلاقة اللسان ونصاعة البيان وأناقة اللهجة وطلاقة البديهة .

وكان لابد أن تزدهر الخطابة عند العرب فى الجاهلية ويقوى شـــأنها ويعظـــم أمـــرها ، فالحياة التى تواجههم بصروفها وأحداثها وتطالعهم كل يوم بجديد من وقائعها وتقلباتها تدفعهم إلى تبادل الرأى وتقليـــب الأمـــر وتكثير الجمع والإقناع بفكرة ، وحمل الناس على وجهة .

ولأن العرب كانوا أهل سلاح وقتال وأحلاس حرب ونزال، والداعون إلى خوض غمرات الحروب وحمل الرماح العوالى والذود

عن المرعى والدفاع عن الحريم يجدون فى أفواههم طيعة المعانى حاضرة مستجيبة .

وقد حرص على هذا الفن الزعماء والرؤساء وأصحاب الرأى المطاع والكلمة النافذة ، وقد قاله فى الجاهلية كثير من هؤلاء وبلغ عندهم مكانة عالية لا تعد لها مكانة فن آخر إلا الشعر ، وحتى مكانة الشعر تضاءلت لما ظهرت فكرة التكسب بالشعر .

ولمكانة الخطابة عند الجاهليين كان أصحابها من ذوى المكانة واليسار فى قبائلهم ومجتمعاتهم ، واستغلوها فى مواقف لصالح القبيلة أو غير القبيلة ، فارتفعت مكانتها بمكانة أصحابها من ناحية ولشرف غاياتها والمواقف التى يقال من ناحية أخرى[1] ، قال الجاحظ : "كان الشاعر أرفع قدراً من الخطيب وهم إليه أحوج لسرد مآثرهم عليهم وتذكيرهم بأيامهم ، فلما كثر الشعراء وكثر الشعر صار الخطيب أعظم قدراً من الشاعر". [2]

إضافة إلى ما سبق فقد تفوق الخطيب على الشاعر فى الجاهلية لاتساع وظيفته ، إذا كان يفاخر وينافر عن قومه فيشترك بذلك مع الشاعر كما يشترك معه فى الحض على القتال ، ثم ينفرد بمواقف خاصة به كالوفادة على الملوك وكالنصح والإرشاد ، وخطبهم فى الأملاك والزواج مشهورة ، وكان للخطباء حينئذ سنن

---

(١) ١/٢٤١ : البيان والتبيين .

(٢) ١/٢٠٤ : السابق .

خاصة فى أداء خطابتهم . منها أنهم كانوا يخطبون على رواحلهم فى المواسم العظام والمجامع الكبار ، وكان من عادتهم لوث العمائم على رؤوسـهم والإشـارة فى أثـناء خطابتهم بالعصى والمخاصر والقنا والقضـبان والقسى [١] " أو يقفون على نشز الأرض مع الاستعانة على العبارة بالإشارة والاعتماد على الصفاح والرياح . [٢]

دواعى الخطابـة :

العـرب ذوو نفـوس حساسة وإباء وأولو غيرة ونجدة وقد دعـاهم إلـيها ، مـا دعا الأمم البدوية من الفخر بحسبها ونجارها والذود عن شرفها وذمارها وإصلاح ذات البين بين الحيين والسفارة بين رءوس القبائل أو بين الملوك وعمالهم وكانوا يدربون فتيانهم عليها منذ الحداثة .

لذلك كان للخطابة دور فى الحض على السلم وحقن الدماء وفى الـزواج والأسـواق والمحافل والوفادة ومن أجل ذلك نشطت الخطابـة عندهم وامتدحوا من تتوفر فيه سمات خاصة تهيئ له جودة الخطابة .

قـال الجـاحظ : " وكانوا يمدحون الجهير الصوت ويذمون الضـئيل الصوت . وقيل لأعرابى : ما الجمال ؟ قال : طول القامة

---

(١) ٢٢ ــ ٣٢ : العصر الجاهلي

(٢) ١٩ ، ٢٠ : تاريخ الأدب العربي .

وضخم الهامة ورحب الشدق وبعد الصوت " .[١]

وهـــناك عوامل أخرى دفعت إلى ازدياد الإقبال على الخطابة وانتشارها فى العصر الجاهلى منها :

١ ـــ الحياة التى عاشها الإنسان العربى فى جاهليته حرا لا يحد من حريته شيئ إلا تقاليد القبيلة ، وقد درج عليها ، وحرص على التمسك بها فلم تعد قيداً بقدر ما صارت دافعاً وعاملاً يدخل فى إطار حريته .

٢ـــ الصراعات الكثيرة والطويلة التى واجهها العربى فى جاهليته ، وجعلـــته يقضـــى حياته أو أكثرها متوجساً فيها مستعدا لها أو منغمساً فيها .

٣ـــ الحس اللغوى الفريد الذى تمتع به هذا الإنسان مع التخفف من القيود الشعرية التى لم توجد فى الخطابة .

ولأن الخطيب كان لابد من أن يكون مجرباً وذا خبرة بالحياة والأمـــور عدوا من يجترئ ويندفع إلى الخطابة دون امتلاك مؤهلاتها جهـــلاً وطيشـــاً يقول الجاحظ : " دائماً يجترئ على الخطبة الغمر الجاهلى الماضى الذى لا يثنيه شيئ " ، وفى المقابل تجد الذى يتصدى لهـــا هو : " المطبوع الحاذق الواثق بغزارته واقتداره فالثقة تنفى عن قلبه كل خاطر يورث اللجلجة والنحنحة والانقطاع والبهر والعرق

[١] ١١٣ / ١ : البيان والتبيين .

وقـــيل لعبد الملك بن مروان عجل عليك الشيب يا أمير المؤمنين ، قـــال: وكيف لا يعجل علي وأنا أعرض عقلي على الناس في كل جمعـــة مرة أو مرتين " [1] .ويقول الجاحظ: " كل شيء للعرب إنما هـــي بديهة وارتجال وكأنه الهام وليست هناك معاناة ولا مكابدة ولا إحالـــة فكرة ولا استعانة ، وإنما هو أن يصرف وهمه إلى الكلام عند المقارعة أو المناقلة أو عند صراع أو في حرب فما هو إلا أن يصرف وهمـــه إلى جملـــة المذاهب وإلى العمود الذي إليه بقصد فتأتيه المعاني إرسالاً وتنثال عليه الألفاظ انثيالاً ، وكان الكلام الجيد عندهم أكثر وأظهـــر وهـــم عليه اقدر وله اقهر ، وكل واحد في نفسه أنطق ، ومكانـــه في البيان أرفع وخطباؤهم للكلام أو جد ، والكلام عليهم أســـهل ، وهـــو عليهم أيسر من غير تكلف ولا قصد و تحفظ ولا طلب " . [2]

وتتـــنوع الخطابة إلى خطب سياسية ودينية وقضائية وجل ما عرفـــناه عـــن خطابـــة العصر الجاهلي ينضوي تحت الألوان الثلاثة الســـابقة ، فالخطـــب التي كانت تلقى للحض على القتال واستنفار القبيلة إلى الحرب وإظهار مساوئ العدو والافتخار كل ذلك يعد من الخطـــب السياســـية وما يتصل بخطب النكاح وما يعرض فيها من مناقب وفضل وجاه ومال ومكانة للخاطب يشير إليها ، وكذلك ما

---

(1) ١/١٢٥ : البيان والتبيين .
(2) ١/١١٣ : الســـــابق .

كـان لبعض للعرب من نزعات دينية أو خلقية أو تأملات كشفوا عنها لقومهم ، ووقفوا منهم موقف الموجه خاصة على لسان الحنفاء تعـد مـن الخطب الدينية ، أما القضائية فكانت تتمثل فى تلك التى كانـت تلقـى للفصل فى النزاع بين القبائل وإظهار الحجج وسوق البراهين وما إلى ذلك .

ولأهمية الخطابة ودورها قالوا لابد للخطيب فى جميع الأنواع من معرفة نفوس السامعين وعلم تام بالموضوع الذى يخطب فيه وقوة لسانية يسـتطيع بها أن يثير مشـاعر السامعين ويدفعهم عن اقتناع إلى مـا يـريـد وقد " مدحوا فيه شـدة العارضة وظهور الحجة وثبات الجنان وكثـرة الريق والعلو على الخصوم فى مضايق الكلام ومآزق الخصام" [1] .

وقـد كـثرت الموضوعات التى قيلت فيها الخطابة الجاهلية بكـثـرة المواقـف الداعـية إليها من حياة الناس وظروف المجتمع وعاداته .

وأهم تلك الموضوعات :

التحريض على القتال والأخذ بالثأر : إن الحياة العربية المليئة بالمعارك فرضت على العرب ـــ وهم أصحاب اللسان والبيان ـــ أن يحرضوا على القتال وأن ينادوا بأخذ الثأر إذا سقط فى المعارك عظيم

---

(1) ٣٦٣ : العصر الجاهلى .

وتثبيت الجنود في الميدان والحض على شرف [illegible] جرى كل ذلك على ألسنة الشعراء شعراً ، [illegible] نثراً .

ـ إصلاح ذات البين حيث كانت [illegible] القبيلتين المتخاصمتين لحقن الدماء والمحافظة على [illegible] والتآخي والعيش في أمان .

المنافرات والمفاخرات : إن حياة الترحال [illegible] العرب خلقت فيهم علم الاستسلام أو المبالاة لمن يرون فيه [illegible] أو شموخاً وطالما ساقهم ذلك إلى المنافرات والمفاخرات والتباهي بالأحساب والأنساب وأكثر ما يكون ذلك في الأسواق التي كانت تقام في كل عام .

ـ السفارات والوفود ، وقد كانت سفارات ووفود القبائل العربية لا تني عن الاتصال بغيرها لعقد الأحلاف أو [illegible] أو طلب المساعدات المالية عند القحط أو [illegible] أو التهنئة بملك أو زعامة إذ كانت القبائل ترسل [illegible] إلى الملوك لكل ما سبق ، أو لدفع [illegible] من آخرين .

ـ خطب المصاهرة والنكاح ، وفي [illegible] وتطول من الخطيب الأول الذي يرغب في الزواج [illegible]

أهلـــه ، ويحسن المصاهرة من أهل المرغوب فى تزويجها ، ويرد عليه أهل الزوجة بخطبة قصيرة .

ــ الوعـــظ والـــتأمل والتوجيه : حيث كان لبعض العرب نـــزعات دينية أو خلقية أو تأملات كشفوا عنها لقومهم . ووقفوا منهم موقف الموجه وكثر هذا اللون من الخطب على لسان الحنفاء .

وتتضح أهمية الخطابة مما سبق ، إذ كانت تمثل عند العرب فى هـــذا العصر ركنا عظيماً من أركان أدبهم ، وكما كان هناك شعراء يـــنافحون عـــن قبـــائلهم ، كان هناك خطباء عرفوا بقوة العارضة وزلاقة اللسان ونصـــاعة الحجة وجهارة الصوت . ووجود مثل هذا الخطيب كان يعـــد مفخرة للقبيلة التى ينتمى إليها يقول الأعشى فى مديح قـــوم :

فيهم الخصب والسماحة والنجدة جمعاً والخاطب الصلاق.[1]

ويقول عامر المحاربى : [2]

أولـــئك قومـــى إن يلـــذ ببيوتهم ... أخـــو حـــدث يومـــاً فلن يتهضما
وكـــم فـــيهم من سيد ذى مهابة ... يهـــاب إذا ما رائد الحرب أضرما
وهم يدعمون القول فى كل موطن ... بكـــل خطيـــب يترك القوم كظما
يقـــوم فـــلا يعـــيا الكلام خطيبنا ... إذا الكرب أنسى الجبس أن يتكلما

---

(١) ١/١٢٤ : البيان والتبيين . الصلاق : جهورى الصوت .

(٢) القصيدة ٩٤ : المفضليات .

وربيعة بن مقروم يقـــول : [1]

ومـتى تقـم عند اجتماع عشيرة   خطـباؤنا بـين العشـيرة يفصل

ويقول أبو زبيد الطائى : [2]

وخطيـــب إذا تمعــرت الأو   جــه يومــاً فى مــأقط مشــهود

وإذا تصـفحنا كتـب الـتراث وجدنا طائفة من الخطباء المشـهورين فى العصر الجاهلى تتردد أسماؤهم فيها يمدحهم أصحاب المؤلفات ويضعونهم على رأس قائمة الخطباء ، ومن أشهر هؤلاء قس بـن سـاعده الإيـادى وعمرو بن كلثوم التغلبى وأكثم بن صيفى التمـيمى والحارث بن عباد البكرى وقيس بن زهير العبسى وعمرو بن معد يكرب الزبيدى . " وتتردد فى كتاب البيان والتبيين للجاحظ وغيره من كتب الأدب أسماء طائفة كبيرة من خطباء الجاهلية الذين اشـتهروا بالفصـاحة ووضوح الدلالة والبيان عما فى أنفسهم ، مما جعـل الأسمـاع والقلوب تهش إليهم ، ويعظم فى الناس خطرهم ، ويشـيع فى الآفاق ذكرهم وكانوا ينتشرون فى الجزيرة بمكة والمدينة ومـا وراءها من قبائل البادية ، فمن خطباء مكة المفوهين ، عتبه بن ربـيعة وهو خطيب قريش يوم بدر وكذلك سهيل من عمرو الأعلم وهـو الذى قال فيه عمر للنبى صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله

---

(1) ٩١٣/١٩ : الأغانى .

(2) ١/١٧٦ :البيان والتبيين. وتمعرت: تغيرت واصفرت. والمأقط:موضع القتال

انزع ثنيته الفلين حتى يدلع لسانه فلا يقوم عليك خطيبا أبدا ، فقال الرسول عليه السلام : لا أمثل فيمثل الله بى وإن كنت بنيا ، دعه يا عمر فعسى أن يقوم مقاماً تحمده [1] ، وقد أسلم وحسن إسلامه وكانت له مواقف محمودة ، ومن خطباء قريش الذين كان يفد إليهم العرب هاشم وأمية ونفيل بن عبد العزى جد عمر بن الخطاب وأما المدينة فمن خطبائها قس بن الشماس وثابت إبنه خطيب الرسول عليه السلام وسعد بن الربيع ، ومن خطباء البادية ابن عمار الطائى وهو خطيب مذحج كلها ، وهانئ بن قبيصة خطيب شيبان يوم ذى قار وزهير بن جناب خطيب كلب وقضاعة ، وهرم بن قطبة الفزارى وهو صاحب المنافرة المشهورة بين علقمة بن علاثة وعامر بن الطفيل وغيرهم كثير يمكنك الرجوع إلى البيان والتبين للجاحظ والأغانى لأبى الفرج والسيرة النبوية لابن هشام وجمهرة الأمثال للعسكرى ووفيات الأعيان لابن خلكان لتجد فيها ضالتك وتشبع منها رغبتك .

وللدلالة على فنية خطب الجاهلين وأسلوبها ومضامينها نورد بعض النماذج منها ، يذكر الجاحظ فى كتابة البيان والتبيين أن من خطباء إياد قس بن ساعدة وهو الذى قال فيه النبى صلى الله عليه وسلم : " رأيته بسوق عكاظ على جمل أحمر وهو يقول : أيها الناس اجتمعوا فاسمعوا وعوا ، من عاش مات ومن مات فات ، وكل ما هو

---

(1) ٣٠ وما بعدها : العصر الجاهلى .

آت آت " (١)

وهـو القـائل أيضاً : " فى هذه آيات محكمات مطر ونبات وآباء وأمهات ، وذاهب وآت ونجوم تمور ، وبحور لا تغور ، وسقف مرفوع ، ومهاد موضوع وليل داج ، وسماء ذات أبراج ، مالى أرى الـناس يموتـون ولا يـرجعون ، ارضوا فأقاموا أم حبسوا فناموا ، يـا معشر إياد أين ثمود وعاد وأين الآباء والأجداد؟ ، أين المعروف الـذى لم يشـكر؟ ، والظلم الذى لم ينكر أقسم قس قسماً بالله إن لله دينا هو أرضى له من دينكم هذا . وأنشدوا له :

فى الذاهـبين الأولـين	مـن القـرون لـنا بصـائر
لمـا رأيـت مـوارداً	لـلموت لـيس لهـا مصـادر
ورأيـت قومـى نحوهـا	يمضـى الأكابـر والأصـاغر
لا يـرجع الماضـى ولا	يـبقى مـن الـباقين غابـر
أيقنـت أنى لا محالـة	حيـث صـار القـوم صـائر

ومـن الخطيـب التى قيلت فى الصلح بين المتخاصمين ، ما يـروى أن قريشاً وخزاعة تنافرتا إلى هاشم بن عبد مناف فقال فيهم هاشم : " يا أيها الناس : نحن آل إبراهيم وذرية إسماعيل وبنو النضر بن كنانة وبنو قصى بن كلاب ، وأرباب مكة وسكان الحرم لنا ذروة الحسـب ، ومعـدن المجد ، ولكل فى كل حلف يجب عليه نصرته وإجابة دعوته ، إلا ما دعا إلى عقوق عشيرة وقطع رحم .

---

(١) البيان والتبيين : ١/٢٠٤

يـــا بـــني قصي : أنتم كغصني شجرة ، إيهما كسر أو هن صَـــاحبه ، والســـيف لا يصـــان إلا بغمده ، ورامي العشيرة يصيبه سهمه، ومن أمحكه اللجاج أخرجه إلى البغي .

أيها الناس : الحلم شرف ، والصبر ظفر ، والمعروف كنز ، والجـــودة ســـؤدد والجهـــل سفه والأيام دول ، والدهر غير والمرء منسوب إلى فعله ومأخوذ بعمله ، فاصطنعوا المعروف تكسبوا الحمد، ودعـــوا الفضـــول تجانـــبكم الســـفهاء ، وأكـــرموا الجليس يعمر نـــاديكم ، وحـــاموا الخلـــيط يرغب في جواركم ، وانصفوا من أنفسكم يوثق بكـــم ، وعليكم بمكارم الأخلاق فإنها رفعة ، وإياكم والأخـــلاق الدنـــيـــة فإنها تضع الشرف ، وتهدم المجد ، وإن نهنهة الجاهل أهون من جـــريرته ورأس العشيرة يحمل أثقالها، ومقام الحليم عظة لمن انتفع به ".

وقـــال هانـــئ بن قبيصة الشسيباني [1] لقومه يحرضهم على القـــتال يوم وجه إليه كسرى جيشاً عرمرماً يقوده إياس بن قبيصة الطائي ، وخير هانئ بن قبيصة الشيباني قائد جموع بكر بين ثلاث : تســـليم حلقة النعمان (خزانة سلاحه) وكان قد أودعها عند هانئ حين خلعه كسرى بعد أن غضب عليه من إمارة الحيرة ، واستقدمه إلى بلاطـــه ، فأيقن أنه مقتول ، أو الجلاء عن الديار ورجوعهم إلى

---

(١) [illegible] : ١/٩٤٩

مواطنهم أو الحرب.فهال هانئا جموع كسرى،وأهاب بقبائل بكر بأن تترك الأرض وترتد إلى ديارها،فليس لهم قبل بجيوش كسرى وجموعه العربيـــة مـــن قبائل تغلب والنمر وإياد وقضاعة،فلم يسمع له وقرر الـــبكريون مواجهـــة الجموع الكسروية مع الفارق الكبير فى العدد والســـلاح،فألقى هانئ هذه الخطبة تثبيتاً لجند البكريين وتحريضاً لهم على القتال .

يا معشر بكر هالك معذور خير من ناج فرور ، إن الحذر لا يـــنجى من القدر ، وإن الصبر من أسباب الظفر ، المنية ولا الدنية ، استقبال الموت خير من استدباره ، الطعن فى ثغر التخور أكرم منه فى الأعجاز والظهور ، يا آل بكر ، قاتلوا فما للمنايا من بد " .

ومن خطب النكاح ما ألقاه أبو طالب فى زواج الرسول عليه الصـــلاة السلام بالسيدة خديجة حين قال : " الحمد لله الذى جعلنا من ذرية إبراهيم وزرع إسماعيل ، وجعل لنا بلداً حراماً وبيتاً محجوجاً وجعلنا الحكام على الناس ، ثم إن محمدا بن عبد الله من لا يوزن به فتى من قريش إلا رجح عليه براً وفضلاً وكرماً وعقلاً ، وإن كان فى المال قل ، فإن المال ظل زائل وعارية مسترجعة ، وله فى خديجة بنت خويلد رغبة ، ولها فيه مثل ذلك وما أحببتم من الصداق فعلى " .

والـــنماذج الســـابقة الـــتى مثلنا بها تدل على أن من أهم السمات التى تميز الخطابة فى العصر الجاهلى ما يلى : فهى أولاً تعنى

يتـــناول المعانى الغزيرة فى ألفاظ قليلة وفى جمل محكمة وضع بعضها بجانـــب بعـــض فى قليل من الروابط والصلات ، واهية التماسك لا تعـــتمد على وحدة فى موضوعها ولا على فكرة مسلسلة يتـــتبعونها بالشـــروح فى كثير منها ، وكان يغلب عليها السجع وقصر الجمل ، وتكـــثر فيها الحكم والأمثال ، وإن جاءت بعضها مرسلة يشيع فيها الازدواج والتفصيل [١] ، ولأن العرب فى الجاهلية تميزوا بحب البيان والطلاقة والتحبير والبلاغة . احتفلوا بخطابتهم احتفالاً شديداً لا من حيـــث الصقل وتجويد الألفاظ فحسب ، بل أيضاً من حيث مخارج الكـــلم ، ولعلهم من أجل ذلك كانوا يتزيدون فى جهارة الصوت ، كمـــا كانوا يتمدحون سعة الأشداق وهدل الشفاه [٢] ، كما كانوا يعمدون إلى ضروب من التقعير .

ويكفـــى أن الخطابة كانت وسيلة السواد الأعظم فى التعبير عما تريد ذلك لأن الشعر موهبة وفطرة وتمرس لم ينبغ فيه إلا آحاد الناس ولـــذا تتضح أهمية الخطابة فى هذا العصر ، مما حدا بالكثيرين من هـــؤلاء الخطباء أن يهتموا بأشكال التمطيط والجهورة والتفخيم فى الكلام . ويشـــير الدكتور شوقى ضيف إلى خصائص الخطابة الجاهلـــية بقوله : " إن من يرجع إلى ما روى منها فى كتب الأدب والتاريخ يلاحظ أن أغلب ما روى من خطب القوم روى مسجوعاً

---

(١) ١٧٠ : الأدب العربى بين الجاهلية والإسلام .

(٢) ١٣ ـــ ١/١٤ : البيان والتبيين ، وانظر ٣٣ ، العصر الجاهلى .

[1] ويؤكـد الجـاحظ أن النبى صلى الله عليه وسلم هو الذى روى خطـبة قس بن ساعده الإيادى فى سوق عكاظ ـ التى ذكرناها من قـبل ـ وهى خطبة مبنية على السجع ، وأكثر ما ورد من خطب المنافرات فى الجاهلية ، يعتمد اعتماداً شديداً على السجع ، وصناعة السـجع تحـتاج إلى قيم موسيقية كثيرة حتى تتم معادلاته الصوتية وموازناتـه الإيقاعية ، وكانوا يدمجون كثيراً من التجويد والتحبير ، ويشهد لهم الجاحظ بما كانوا يعانونه فى خطبهم وخاصة الطويلة منها إذ يقول : " لم نرهم يستعملون مثل تدبيرهم فى طوال القصائد ، وفى صـنعه طوال الخطب .. .. وكانوا إذا احتاجوا إلى الرأى فى معاظم التدبير ومهمات الأمور ميثره فى صدورهم وقيدوه على أنفسهم ، فإذا قومه الثقاف وأدخل الكير وقام على الخلاص أبرزوه محككاً منقحاً ومصفى من الأدناس مهذباً " .

" وكـانوا يصـفون خطابتهم بأنها كالوشى المنمق ، ففيها تدبـيج وتزيين يشبه ما يجدونه فى الثياب اليمانية الموشاة ، وبلغ من جمـال بعـض خطـبهم أن اقترحوا لها أسماء ، وإن كانوا يحفظونها ويـتوارثونها لروعة بيانها وجودة فصاحتها وبلاغتها ، وقد نهضوا بها نهضـة واسـعة، وذهـب جميعهم مذهب التجويد والتحبير لها حتى يستميلوا ويخلبوا الألباب . [2]

---

(1) ٣٤ : العصر الجاهلي .

(2) ٢/١٤ : البيان والتبيين .

الحكم والأمثـــــــال :

الحكمـــة : قول رائع موافق للحق سالم من الحشو ويسلم به عند أكثر الناس ، مستخلص من طول الخبرة بالحياة وتجارب الحكيم فـيها ما يوافق العقل . وقيل : قول موجز يتضمن حكماً مسلماً في الحـث على الخير أو الكف عن الشر ، ويمكن أن تكون شعراً كما هي نثر . [٢]

وقيل: إن الحكمة: عبارات موجزة قوية الألفاظ دقيقة المعاني بارعـة التصوير ، وهي في الأصل العلم النافع الذي يمنع صاحبه من الطيش والسفه والحمق مأخوذة من حكمة أي منعه كما يريد .

والمـثل : كـلمات تعبر عن خلاصة أفكار تكونت نتيجة التجاريب الطويلة ، وتعتمد على الإيجاز وقوة اللفظ والمعنى وبراعة التصوير .

وقيل المثل : قول موجز قيل في مناسبة ما تشبه بها ما يماثلها عـن طريق ذكر هذا القول : أي يقصد عند ذكره تشبيه الحال التي حكى فيها بالحال التي قيل لولا بسببها للإفادة من آثارها في الموقف المسـتحدث ، ولذا تحكى الأمثال بألفاظها التي رويت بها دون تغيير فيها . [٣]

---

(٢) ١٧١ : الأدب العربي بين الجاهلية والإسلام .

(٣) ١٠٣ : الأدب العربي في الجاهلية .

ويعرفه الميدانى صاحب مجمع الأمثال بقوله : قول سائر يشبه به حال الثانى بالأول . [١]

ويقـــول أبـــو هلال العسكرى فى كتابة جمهرة الأمثال [٢] : "ويقولـــون الأمثال تحكى ، يعنون بذلك أنها تضرب على ما جاءت عن العرب ، ولا تغير حقيقتها فتقول للرجل : الصيف ضيعت اللبن بكسر التاء لأنها حكاية .

وقال إبراهيم النظام : يجتمع فى المثل أربعة لا تجتمع فى غيره من الكلام : إيجاز اللفظ وإصابة المعنى وحسن التشبيه وجودة الكناية فهو نهاية البلاغة . [٣]

وقـــيل : المثل جملة مقتطعة من القول أو مرسلة بذاتها تنقل عمن وردت فيه إلى مشابهه بدون تغيير . [٤]

وقال ابن المقطع : إذا جعل الكلام مثلاً كان أوضح للمنطق وآنق للسمع وأوسع لشعوب الحديث . [٥]

ما سبق يمثل وجهات نظر الباحثين فى الحكم والأمثال سواء تطابقـــت أو اختلفـــت ، لكن المهم أنهما قد وردا كثيراً على لسان

---

(١) ٥ : مجمع الأمثال الميدانى .

(٢) ٥ : هامش الميدانى .

(٣) ٥ : هامش الميدانى .

(٤) ١٨ : تاريخ الأدب العربى .

(٥) ٣/٢ : نهاية الأدب .

العرب فى الجاهلية ووجه المؤلفون جهدهم فى تجميع هذه الأمثال فى كتب خاصة .

ولأن الحكمة والمثل يكثر استعمالهما لدى الناس فى المواقف المختلفة للإقناع بها والتأثير على سامعيها والمخاطبين بهما بما تحويان من مضامين ، فهما يأتيان فى عبارتين قصيرتين مكثفتى المعنى فى الغاية من دقة ألفاظهما وتأدية المعانى المقصودة منهما .

ولأن الحكمة والمثل ثمرتا الحنكة ونتيجتا الخبرة وخلاصة التجربة فإن كل من مرت به تجربة مشابهة لتلك التجربة ولم تواته عبارة يعبر بها عن موقفه استعار ذلك اللفظ الذى أثر عن العرب قديماً فى مثل تلك الحادثة فأطلقه وعبر به ، وللمثل مورد ومضرب فمورد المثل يطلق على القصة الأولى التى ذكر فيها المثل ، ومضربه يطلق على الموقف الذى أشبهه ، وقد يرتبط المثل بحادثة ، وهذه الحادثة إما حقيقة أو فرض ، فالمثل الذى يستند إلى حقيقة لابد له من أصل معروف ، أما الذى يقوم على الفرض فهو وليد الخيال صنع على لسان طائر أو حيوان أو جماد أو نبات ، وتلك وسيلة معروفة لإبراز الرأى فى عصور الكبت والاستبداد والبطش . [1]

وكانت للعرب نظرات صادقة فى حياتهم صورتها أمثالهم تصويراً حقيقياً ، وفيها تبدو عقلية الأمة فى ترتيبها وتسلسل تفكيرها واتزان منطقها ، وهى تعد من أصح الصور وأدل الأساليب على

---

(١) ١٧٣ : الأدب العربى بين الجاهلية والإسلام .

منطق القوم ، وما كان يتسم به من تهذيب ورقة ، فهى أقوال مستوية الأطراف مهذبة النسج رائقة الأسلوب .

والأمثال والحكم من وضع أصحابها الذين نسبت إليهم ، وأما الأقاصيص التى تتعلق بها فالغالب أن معناها من تفكير أصحابها ، أما ألفاظ القصص فالمرجح أنها من وضع الرواة ، وقد سمعوا القصص بمعناها فوضعوا هم ألفاظها .

والمعروف أن الأمثال بنات بيئتها ، أى تصدر عن بيئة معينة لتعبر عن تجارب هذه البيئة ، ولذلك كانت الأمثال الجاهلية ، لكن تلك الأمثال تجاوزت حدود البيئة فى عموميتها ، واستمرت حية عبر الأزمنة يفاد من حكمتها فى المواقف المتشابهة .

وقد أخذوا من نبات وحيوانات البيئة بعضاً من أمثالهم ، فقالوا : أكسى من بصله ، وأعقد من ذنب الضب ، وبعضها من حياتهم الحربية وما يتعلق بها من مثل : أفوق من السهام ، أعط القوس باريها ، قبل الرماء تملأ الكنائن ، وعلى لسان الحية كيف : أعاودك وهذا أثر فاسك .

ومن أمثالهم : " إن الشقى وافد البراجم ، قاله عمر بن هند الملك ، وكان سويد بن ربيعة التميمى قتل أخاه وهرب ، فأحرق به مائة من تميم ، تسعة وتسعين من بنى دارم وواحداً من البراجم كان قد قدم آخر النهار على عمرو بن هند راكباً وكان قد انتهى من

حـــرق تسعة وتسعين من بنى دارم ـــ واسمه قمار حتى أناخ راحلته عليه ، فقال له عمرو : من أنت ؟ قال : أنا رجل من البراجم ، قال: فمـــا جـــاء بك إلينا ، قال : سطع دخان وكنت قد طويت من أيام فظننته طعاماً ، فقال عمرو : إن الشقى وافد البراجم فذهبت مثلاً ، وأمـــر بـــه فـــألقى فى النار ، فقال بعضهم : ما بلغنا أنه أصاب من بنى تميم غيره ، وإنما أحرق النساء والصبيان ، ولذلك عيرت بنو تميم بحـــب الطعام لما لقي هذا الرجل ، والمثل يضرب لمن يوقع نفسه فى هلكة طمعاً .[1]

ومن أمثالهم : " أبصر من زرقاء اليمامة " ، واليمامة اسمها ، وبهـــا سمى البلد ، وذكر الجاحظ أنها كانت من بنات لقمان بن عاد وأن اسمها (عنـــز) قال محمد بن حبيب : هى امرأة من جديس ـــ يعنى زرقاء ـــ كانت تبصر الشيئ من مسيرة ثلاثة أيام ، فلما قتلت جديـــس طسما خرج رجل من طسم إلى حسان بن تبع فاستحاشه ورغـــبه فى الغنائم ، فجهز إليهم جيشاً ، فلما صاروا من جو على مسيرة ثلاث ليال صعدت الزرقاء فنظرت إلى الجيش وقد أمروا أن يحمل كـــل كل رجل منهم شجرة يستتر بها ليلبسوا عليها فقالت : يـــا قوم قـــد أتتكم الشجر أو أتتكم حمير فلم يصدقوها فقالت على مثال رجـــز :

---

(1) ٩ ، ١/٣٩٥ : الأمثال للميدانى .

أقسم بالله لقـد دب الشجر   أو حمير قد أخذت شيئاً يجر

فـلم يصـدقوها ، فقالت أحلف بالله لقد أرى رجلاً ينهس كـتفا أو يخصـف النعل ، فلم يصدقوها ولم يستعدوا حتى صبحهم حسان فاجتاحهم ، فأخذ الزرقاء فشق عينيها . [١]

وقد دونت هذه الأمثال منذ أواسط القرن الأول للهجرة ، ألـف فيها صحار العبدى أحد النسابين فى أيام معاوية ، وألف فيها معاصره عبيد بن شرية الجرهمى كتاباً آخر قيل إنه فى خمسين ورقة ، ثم تـوالى التألـيف فيها وكثر بعد ذلك فظهر كتاب أمثال العرب للمفضـل الضبى فى القرن الثانى ، وألف أبو عبيد القاسم بن سلام كـتابه الأمثال فى القرن الثالث ، وألف أبو هلال العسكرى كتابه جمهرة الأمثال فى القرن الرابع ، وألف الميدانى كتابه مجمع الأمثال فى القـرن الخامس وهو يقول فى مقدمته إنه رجع فيها إلى ما يربو على خمسين كتاباً .

من نماذج الحكم :

عـن أقـدم حكماء العرب الذين عرفت لهم حكمْ مأثورة وأقـوال مشـهورة تدل على أصالة الرأى وصواب الفهم وصدق النظرة وحسن المعرفة بتصرف الدهر وتقلب الزمن ، لقمان بن عاد وينسب إليه أنه أول من قال : " رب أخ لك لم تلده أمك ، الصمت

(١) مجمع الأمثال : ١/١١٤ .

حكـــم وقليل فاعله ، وهو غير لقمان الحكيم الذى ورد ذكره فى القرآن الكريم " .

يقـــول الجاحظ [1] : " والعرب تعظم شأن لقمان بن عاد فى النباهة والقدر وفى العلم والحكم وفى اللسان وفى الحلم ، وهو غير لقمان الحكيم المذكور فى القرآن الكريم كما يقول المفسرون " .

ومن حكمائهم أيضاً أكتم بن صيفى الذى يقول: شر الملوك مـــن خافـــه البـــرئ ، آفة الرأى الهوى ، خير الأعوان من لم يراء بالنصيحة ، مقتل الرجل بين فكيه .

ومـــن الحكماء ذو الأصبع العدوانى وعامر بن الظرب وقس بـــن ساعدة ، ومن الحكمة ما جاء من قولهم : الخطأ زاد العجول ، من سلك الجد أمن العثار ، عى صامت خير من عى ناطق .

ومـــن الأمـــثال : كيف أعاودك وهذا أثر فاسك ، وفى بيته يؤتى الحكم ، ومن أمثالهم كذلك : أى الرجال المهذب ، رب عجلة تهب ريثاً ، ويل للشجى من الخلى ، لكل جواد كبوة ، من استرعى الذئب ظلم .

الوصـــــــــايا :

مـــن ألوان النثر التى كانت شائعة فى العصر الجاهلى ، وهى فن قولى يتخذ تجارب الحياة موضوعاً له إيستخلصها الكبير ويزود بها

---

(1) البيان والتبيين : ١/١٦٢ .

إنســاناً أثــيراً لديــه ، أو من يهمه أمره ويعنيه شأنه ، وطبيعى أن النصــيحة لابــد أن تعتمد على تجربة وتهدف إلى إرشاد ويكون لها مــن قــوة التأثــير ، وبلاغة القول ما يجعلها تحل من القلوب محل الأنس والقبول .

وأغلب ما تكون الوصايا حكماً وأمثالاً ولا تتجاوز أن تكون فى محدود من الناس ، لأنها تكون غالباً من أب لأبنائه أو أم لبناتها أو من حكيم لقومه أو من سيد لعشيرته ، وتعد الوصايا لوناً من ألوان الخطابة بيد أن ميدانها أضيق دائرة وأقل مجتمعاً من الخطابة ، وتلقى على السامع حين تحزب المسائل واحتشاد المشاكل .

وعــادة ما تكون الوصايا غنية بالنصائح وهى نتيجة تجارب وخبرة بأحوال الناس والحياة والمجتمعات ، وهى تنم عن عقلية مميزة تدفــق فى الأمور ، فترسل العبارة الموجزة منطوية على معان كثيرة ، وأســلوبها محكم النسج ، نسقت ألفاظه تنسيقاً يكشف عن فصاحة القائل وقوة بيانه .

ومــن هذه الوصايا ما قاله أكثم بن صيفى موصياً : " تباروا فــإن الــبر يبقى عليه العدد ، وكفوا ألسنتكم فإن مقتل الرجل بين فكــيه ، إن قول الحق لم يدع لى صديقاً ، الصدق منجاة ، لا ينفع التوقى ممــا هو واقع ، فى طلب المعالى يكون العناء ، الاقتصاد فى السعى أبقى للجمام ، أصبح عند رأس الأمر أحب إلى من أن أصبح

عـــند ذنبه ، لم يهلك من مالك ما وعظك ويل لعالم أمر من جاهله ، يتشابه الأمر إذا أقبل ، وإذا أبر عرفه الكيس والأحمق .

ومـــنها أيضاً وصية أوس بن حارثة لابنه مالك : " يا مالك المنــية ولا الدنية والعتاب قبل العقاب ، والتجلد ولا التبلد ، وأعلم أن القبر خير من الفقر وشر شارب المشتف وأقبح طاعم المقتف [1] ، والدهر يومان : يوم لك ويوم عليك ، فإذا كان لك فلا تبطر ، وإذا كـــان عليك فاصبر فكلاهما سينحسر . وكذلك وصية ذى الإصبع العدوانى لابنه : " ألن جانبك لقومك يحبوك ، وتواضع لهم يرفعوك ، وابســـط لهـــم وجهك يطيعوك ، ولا تستأثر عليهم بشئ يسودوك وأكـــرم صـــغارهم كما تكرم كبارهم يكرمك كبارهم ويكبر على مودتك صغارهم ، واسمح بمالك واحم حريمك وأعزز جارك ، وأعن من استعان بك ، وأكرم ضيفك وأسرع النهضة فى الصريخ فإن لك أجـــلاً لا يعـــدوك ، وصن وجهك عن مسألة أحد شيئاً فبذلك يتم سؤددك " .

سمات عامة للوصايا :

النماذج التى استعرضناها سابقاً تدلنا أن الوصايا يلقيها غالباً الأكـــبر للأصـــغر ، وذو الخـــبرة المجرب للحياة والمعايش لظروفها المختـــلفة إلى من دونه خبرة ، كما يتسم من تصدر عنه بتمام التعقل

---

[1] المشتف : الآخذ بعجلة ، وقيل الآتى على ما فى الإناء من طعام ، والمقتف : السريع .

ونفاذه " ولذلك تأخذ أسلوب النصيحة .

وتكـــثر فـــيها أفعال الأمر والنهى مراداً منها حقيقتها حينا والمجـــازى منها أحياناً أخرى ، ويتبدى فيها أسلوب الإغراء بالشيئ والتحذير من ضده ، وتقل الجملة الخبرية فيها إلا إذا كان مراداً منها غير حقيقتها ، فتكون خبرية اللفظ إنشائية المعنى تتضمن تحذيراً من شئ أو تحبيبا فيه .

كذلك يعمد الموصى إلى ذكر العلة أو التبرير لأمره أو نهيه ، أو يشـــير إلى النـــتائج التى تترب على وصيته تحفيزاً وتحريضاً على اتـــباعها ، ومن سمات الوصايا البارزة أنها تكون قصيرة فى ذاتها أقل مـــن الخطـــبة فـــتأتى فى جمل قصيرة مسجوعة متوازنة حتى يسهل حفظهـــا ، ويبدو الهدوء والاتزان فى لغة الوصية التى تعبر فى دقة عن مضـــمونها وأفكارهـــا ، وتسيطر عليها الحكمة والعمق وإن كان لا يجمعهـــا إلا أنـــه وصيه ، ولذا تعتمد على وحدات موسيقية صغيرة تتمثل فى الجمل المسجوعة التى تفتقد غالباً الوحدة الموضوعية .

المفاخرة والمنافرة :

المفاخـــرة ، هى تفاخر القوم بعضهم على بعض بما ينسبون لأنفسهم من الشرف وعلو الحسب ومعالى الأمور ، فإذا اشتد الجدل فى هـــذا ولج كـــل فيما يدعيه دلفوا إلى المنافرة ، وهى التحاكم إلى الأشـــراف من حكام العرب ليفصلوا بين المتنافرين، ويقضى الحكم

لأيهما أو يسوى بينهما [١] ، وغالباً ما تكون الخصومة على السيادة والشـــرف . ولم يقتصـــر هذا التفاخر على الخصمين المتنازعين على السيادة والشرف إنما يتسع فيشمل اتباع الفريقين وأنصار كل منهما يفاخر أنصار الآخر بما فى صاحبه من صفات . [٢]

ومـــن أمثلة ذلك ما وقع لعامر بن الطفيل وعلقمة بن علاثة العامـــريين فقـــد وقف عامر لعلقمة وجعل ينازعه الشرف فى قومه وتفاقم الأمر بينهما .

قال عامر : والله لأنا أشرف منك حسبا، واثبت منك نسباً، وأطول قصباً . وقال علقمة : أنافرك وإنى لولود وإنك لعاقر ، وإنى لوفى وإنك لغادر ، وقال عامر : أنافرك وإنى أنشر منك أمة وأطول قمـــة وأبعد همة ثم تنافرا وتواعدا على الخروج إلى من يحكم بينهما وجعـــلا يطوفان الأحياء ، وهاب الناس أن يحكموا بينهما خيفة أن يقـــع فى حييهما الشر إلى أن ذهبا إلى هرم بن قطبة الفزارى ، فلما علم بأمرهما أمر بنيه أن يفرقوا جماعة الناس خوفاً من الفتنة ، وجعل يطاولهمـــا ، ويخوف كل واحد منهما من صاحبه حتى لم يبق لواحد مـــنهما هم سوى أن يسوى فى حكمه بينهما ، ثم دعاهما بعد ذلك والناس شهود فقال لهما : لقد تحاكمتما عندى وأنتما كركبتى البعير تقعان إلى الأرض معاً وتقومان معاً فرضياً بقوله ، وانصرفا إلى حييهما

(١) ١٧٧ : الأدب العربى بين الجاهلية والإسلام .

(٢) ١١٠ : الأدب العربى فى الجاهلية .

وعاش هرم هذا إلى زمن عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

سجع الكهان :

الكهان طائفة يدعون التنبؤ بالغيب واستكناه المجهول ، ويزعمون أنهم ينقلون عن الجن التى تسترق السمع وتطلع على ما خط فى لوح الغيب ، ويزعم بعض الكهان أن له رئياً من الجن يسترق له السمع من الملائكة ثم يلقيه إليه فيخبر به الناس عند استبهام أمر أو افتقاد ضالة من متاع أو مال أو حدوث ريبة لامرأة .[1]

وانتشرت الكهانة فى الحياة الجاهلية وكثر الكهان ، واتخذ الكهانة طابعاً دينياً تسلطت به على الناس ، وصار الناس يستشيرون الكهان فى كثير من مهام أمورهم ، يقول النويرى : " وكانت كهنة العرب لهم أتباع من الشياطين يسترقون السمع ويأتونهم بالأخبار فيلقونها لمن يتبعهم ويسألهم عن خفيات الأمور حتى جاء الإسلام ، فمنعت الشياطين من استراق السمع كما فى قوله تعالى : " وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهباً ، وأناكنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً " .[2] فعند ذلك انقطعت الكهانة ، فلم يسمع فى الإسلام بكاهن " .[3]

---

(١) ١٧٨ : الأدب العربى بين الجاهلية والإسلام .

(٢) الآية ٨ ، ٩ : سورة الجن .

(٣) ٣/١٣٨ : نهاية الأدب ،وانظر ١٠٨ : الأدب العربى فى الجاهلية .

ولم تقتصر الكهانة على الرجال وحدهم ، بل شاركهم فيها النســاء ، وكــان لهم قداسة دينية ونفوذ قوى فى الناس ، والناس يــلجأون إلــيهم لــيحكموهم فى الخصــومات التى تنشب بينهم، ويستشــيرونهم فى مستقبل أمورهم وغامضها ويستفسرون منهم عن رؤاهـــم المنامية ، ومن ذلك : مارآه ربيع بن نصر اللخمى من رؤيا هالــته فجمع وجوه مملكته ليعرف تأويل رؤياه. فقال له رجل : إن كــان الملــك يريد هذا فليبعث إلى سطيح وشق ، فليس أحد أعلم مــنهما بتأويل الرؤيا ــ واسم سطيح : ربيع بن ربيعة بن مسعود ، واسم شق ، شق بن صعب بن يشكر ولما قدم سطيح قال له الملك : رأيت رؤيا هالتنى فاخبرنى بها يا سطيح قال : رأيت جمجمة خرجت مــن ظلمة فوقعت بأرض تهمه [1] ، فأكلت منها كل ذات جمجمة ، قال الملك : ما أخطأت يا سطيح ، فما عندك فى تأويلها ، قال أحلف بما بين الحرتين [2] من حنش [3] ، ليهبطن أرضكم الحبش ، فليملكن مــا بــين أبين إلى جرش [4] ، قال الملك : يا سطيح إن هذا لغائظ موجــع ، فمتى هو كائن افى زمانى أم بعده ؟ قال : لا بل بعده بحين أكثر من ستين أو سبعين يمضين من السنين قال : فهل يدوم ذلك من

---

(١) تهمة : بلد ، أو لغة فى تهامة .

(٢) الحرة : الحجارة السود .

(٣) الحنس : الحيات وكل ما يصاد من الطير والحشرات .

(٤) ابين وجرش : موضعان .

ملكهم أو ينقطع ؟ قال : بل ينقطع لبضع وسبعين يمضين من السنين ثم يقتتلون بها أجمعين ، ويخرجون منها هاربين ، قال الملك : ومن ذا الذى يلى ذلك من قتلهم واخراجهم ؟ قال : عليه أرم ذى يزن يخرج من عدن ، فلا يترك منهم أحدا باليمن . قال أفيدوم ذلك من سلطانه أو ينقطع ؟ قال : بل ينقطع . قال ومن يقطعه ؟ قال : نبى زكى يأتيه الوحى من قبل العلى . قال : ومن هذا النبى ؟ قال : رجل من ولد غالب بن فهر بن مالك بن النضر . قال : أحق ما تخبر به يا سطيح ؟ قال والشفق والغسق والفلق إذا اتسق [1] إن ما نبأتك لحق .

ما سبق نموذج يبين ما كان عليه الكهان من مكانة ثم أسلوبهم وطريقتهم فى أداء ما يرون من أفكار .

ولم تقتصر الكهانة على الرجال وحدهم بل شاركت النساء فيها ، ومن أشهر الكهان الذين عرفوا سطيح وكان بمشارف الشام ، وعبد المسيح بن عمرو الغسانى وشق وأنمار ، ومن كواهنهم طريفة وكانت باليمن وفاطمة الخثعمية وكانت بمكة والزرقاء بنت زهير وعفيراء الحميرية وسعدى بنت كريز من ربيعة بمكة .

وقد أنسر هؤلاء جميعاً كلام يقوم على السجع المتكلف والأسلوب المتصنع ولا شك فى أن هذا كله من صنيع الوضاعين

---

(١) الغسق : الظلمة ، الشفق : الحمرة . الفلق الصبح ، اتسق : انتظم وجمع .

واختراعات المخترعين .

سمات عامة للنثر الجاهلي :

مــع أن لكــل فن من فنون النثر العربي سماته وما يميزه عما عداه فإن هذه الفنون جميعاً يجمعها سمات مشتركة منها :

إن العبارات القليلة تتضمن معان كثيرة مع الإيجاز والتركيز، والجمــل تكــون عامة وعادة قصيرة مسجوعة ، في بعضها غالباً ما يكــون ملتزماً في أقاويل الكهان متكلفاً فيه مع التصنع الواضح فيما يتصل بالقسم .

والأفكار في غاية الوضوح تدرك بسهولة فلا تعقيد فيها ولا غمــوض عــدا ذلــك الذي يصدر من الكهان فيكون غامضاً شبه طلاســم لــتعمدهم التعمــية قصــد التأثير على السامع والإبهار ، والاتكــاء على الألغاز ، فيغيب المعنى وراء أستار التهويم ، وأكثر ما يكــون للبيئة أثرها في أفكارهم ، ويظهر ذلك جلياً في نثرهم الذي يجسد تجاربهم التي عاشوها فيصدر عنها ، ويلحظ في هذا اللون من النثر العاطفة الموارة التي تتدفق في سهولة ويسر دون تعقيد أو التواء، موظفــين الحريــة الواسعة التي عاشوها في بيئتهم المترامية الأطراف الــتي لا تحــد ، مــع الانــدفاع والصراحة ، كما أنه يترجم عن الــبداوة التي عاشــوها ، فنلمس جانباً من القسوة عند بعضهم ، بينما يكون الخطاب هادئاً متزناً عند الحكماء الذين اتسمت حياتهم

بالهدوء والتؤدة .

وبعــــــد ،،،

أرجــو أن يكــون هــذا الجهد فى تأليف المادة العلمية لهذا الكــتاب وتجميعها مفيداً ومجسداً لغاية هدف إليها المؤلف والله من وراء القصد وعلى الله قصد السبيل .

زهران محمد جبر

فهرس الموضوعات

تم بحمد الله تعالى

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم